صالح

من وحي القرآن والسُنّة

تأليف

أ د عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

المحتويات

المقدّمة 4

النبي صالح من وحي القرآن 30

الغفور قريب من عباده: 43

صفات النبي صالح 159

1 . رسول: 159

2 . مصلح: 165

3 . مرحوم: 182

4- مستغفر: 225

5- ناصح: 229

6- صالح: 235

7 . أمين: 236

ثمود قوم صالح: 238

تكوين قبيلة ثمود 246

الملأ: 246

الأرهط التسعة: 249

المستضعفون: 250

عقيدة ثمود: 253

صالح رسول الله بين قومه: 261

موقف العموم: 262
موقف الملأ: 264
موقف المستضعفين: 271
رسالة صالح: 272
معجزة صالح: 276
النبي صالح من السنّة.. 282
أمور تستوجب اللطف: 289
علاقة اللطيف بأسمائه تعالى: 294
التسع رهطٍ: 308
منهج النبي صالح: 353
النّاقة الآية: 404

المقدّمة

النبي صالح عليه الصّلاة والسّلام يعو نسبه إلى قبيلة ثمود وهي من القبائل العربية البائدة، ظَهَرت هذه القبيلةُ بعد أن بادَت قبائلُ عادٍ في وادي الأحقّاف. ذلك الوادي الذي تميّز أهله بالزراعية وهم قوم يَنحِتُون بيوتَهم في قلبِ الجبال؛ فكان عليهم أن يؤمنوا بالله ويشكروه على نعمه عليهم، ولكنّهم كفروا؛ فعبدوا الأوثان مِن دُونِ الله.

وفي تلك الظروف أصطفى الله تعالى صالح عليه السّلام نبيا لبني ثمود؛ فأعلَنَ دعوتَهُ وبَشّر برسالته، ومِن هُنا بدأ الصراع. فانقسمت القبيلة بين مؤمنين وكافرين، وكان على رأس قبيلةِ ثَمود تِسعةُ رجالٍ أقوياء، وكان جميعهم من المفسدين.

كانت القبيلة تعبد أربابا من دون الله، وعلى رأس ما يعبدون حجرة ضخمة سموها: (الصخرةُ المقدّسة) والذبائح عليها ومن حولها تذبح عبادة من دون الله. فقال لهم صالح عليه السّلام: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ}1

ثمّ قال لهم: {أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}2. قالَ صالح عليه السّلام: لقد أرسَلَني الله إليكم لتعبدوه، وأنا لا أطلبُ على ذلك أجرا من أحدٍ

الأعراف 59. 1

الشعراء 142 . 2.152

ولا أعبُدُ أحدا إلاّ الله الذي خَلَقني؛ فقالوا: إذا كنتَ حقّا رسولا مِن الله تَستطَيعُ أن تُخرِجَ لنا مِن قلبِ هذه الصخرةِ الصمّاءِ ناقةً عَشْراء.

إنّه الحوار والجدال بين رسول لطيف كريم له رسالة بها يدعو ويبشّر وينذر ويحرّض على توحيد الله ولا شريك له، وبين كفرة سفهاء لا يقدّرون أصحاب المكانة الرّفيعة من عند الله تعالى.

فصالح عليه السّلام هو: "نَبِي الله وَرَسُوله وهُوَ ابْن عبيد بن آسَف بن مَاشج بن عبيد بن جادر بن ثَمُود، بَعثه الله تَعَالَى إِلَى ثَمُود وَهِي قَبيلَة مَشْهُورَة باسم جدهم ثَمُود أخي جديس، وَهُوَ من الْعَرَب العاربة يسكنون الْحجر بَين الْحجاز وتبوك، وَكَانُوا يعْبدُونَ الْأَصْنَام فَدَعَاهُمْ نَبِيّهم صَالح إِلَى عبَادَة الله وَحده فآمنت طَائِفَة وكفرت طَائِفَة وَهو مَا زَالَ ينصح لَهُم فآذوه بالمقال وَالْفِعْل وهمّوا بقتْله، ثمَّ إِنَّهُم طلبُوا مِنْهُ أَن يخرج لَهُم من قلب الْجَبَل نَاقَة كي يصدّقوه فَسَأَلَ الله ذَلِك فَاسْتَجَاب، وَلَكنّهُمْ عقروا النَّاقة فَأنْزل الله عَلَيْهِم الصَّيْحَة فأهلكتهم ونجى صَالحا وَمن مَعَه"3.

كانت ثمود من الأقوام المفرطة في اللذات من مطعم ومشرب ومسكن، وبلغوا في ذلك الترف مبلغا أوقعهم في السّرف والعصيان والتمرّد على كل دعوة حقّ لظنّهم أنّ ما هم فيه دائم لا يزول، فعاثوا في الأرض فسادا وسخروا من صالح عليه السّلام ودعوته ومن آمن معه، وناصبوهم العداء وأعرضوا عن الصراط المستقيم الذي جاء به. قال الله عزّ وجلّ: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ

---

3 نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عزّ وجلّ من التوحيد، 1، ص 293.

مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ}4.

ومع تلطّفه في دعوته طمعا في هدايتهم، وتذكيره لهم بنعمة الله تعالى عليهم، ومكانته المعروفة لديهم واشتهاره بينهم بالصّدق والأمانة وحسن الخُلق فيهم، مع ذلك كلّه اتهموه بالسّحر، والسّفه، وسخروا منه ومن دعوته، مع أنّ لهم فيه رجاء وطمع قبل أن يظهر عليهم بهذه الدّعوة الجديدة.

وقد حافظ صالح عليه السّلام على صفته التي استمدّها من اللطيف تعالى مع تحدٍّ لا رجعة عن الدّعوة لتوحيد الله الواحد الأحد. ومن هنا أيضا كانت صفة صالح عليه السّلام (الخليفة في الأرض) عدم التخلّي عن تلطّفه في دعوتهم بغرض الهداية.

وبالرّغم من قبول التحدّي، ولكن صالح اللطيف عليه السّلام بقي لطيفا، ومتوكّلا على اللطيف الأعلى. وهذا الاسم يستحقّه "من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دقّ منها وما لطف ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تمّ معنى اللطف ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله سبحانه وتعالى؛ فأمّا إحاطته بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك، بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي من غير فرق، وأمّا رفقه في الأفعال ولطفه فيها فلا يدخل أيضا تحت الحصر إذ لا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله وعرف دقائق

---

4 الشعراء 141 . 152

الرّفق فيها وبقدر اتساع المعرفة فيها تتسع المعرفة لمعنى اسم اللطيف"5.

واللطيف من أسماء الله الحسنى الدالة على اللين والمقاربة من المخلوق بالعفو والتسامح والتواد، ولذا فاللطيف هو من يملك القوّة المطلقة ويملك العفو والرّحمة ويفعل ذلك متى ما يريد وهو العليم الخبير. وهو مالك العذاب والحساب والعقاب لمن يشاء وفقا لما تقدّمه الأيدي وهو المسامح بالعفو والمغفرة والرّحمة والعطاء، قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}6.

وهنا اللطيف هو الذي بيده كلّ شيء ويعفوا عن كثير ويتجاوز عن الأخطاء استجابة لمن دعاه طاعة وإخلاصا، ولأنّه يعلم السراء والضراء، ولا تُخفى عليه خافية، فهو لا يستجيب إلا عند الوجوب، وفي ذلك لطفا بالعباد الذين لو أدركوا العاقبة لكانت الطاعة مع الصبر من أجل المستقبل الأفضل الذي لا يعلمه إلا هو، ولذلك قال تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}7. الأنفس متعددة الطباع،

5 المقصد الأسنى، ج 1، ص 101.

6 التوبة 103 . 106.

7 البقرة، 216.

تضعف وتقوى حسب درجة الإيمان ومستوى الخلافة، فعندما تضعف تهوى في غير محل وعندما تقوى تصبر حتى تنال أجرا، ولذا فاللطف بالعباد في الأقوال والأفعال التي يقدمون عليها وهم لا يدركون العاقبة، فيتيح لهم الله لطفا يحول بينهم وبين العاقبة غير المحمودة.

وعليه فاللطيف بعباده كما قال ابن عباس: "حفي بهم. وقال عكرمة: بارّ بهم. وقال السدى: رفيق بهم. وقال مقاتل: لطف بالبَرّ والفاجر. وقال القُرَظيّ: لطيف بهم في العرض والمحاسبة"[8].

فاللطيف اسم إنّما يستحقّه من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دقّ منها وما لطف، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تمّ معنى اللطف ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله سبحانه وتعالى.

واللَّطِيفُ: هو الَّذي اجْتَمَعَ له الرِّفْقُ في الفعْلِ، والعلْمُ بدَقائق المِصالحِ، وإيصالها إلى من قَدَّرَها لَهُ من خَلْقِه. واللُّطْفُ المطلق لا يجمع لأنّه واحد، أمّا الأَلاطِفُ: الأَحِبَّةُ، جمعُ الأَلْطَفِ أَفْعَل من اللُّطْفِ بمعنى الرِّفْقِ. وهذه من صفات المستخلفين في الأرض، الذين ميزهم الله بالقيم والفضائل التي بها تُدرك الأمور ويتم التوفيق فيها بلطفٍ"[9]. ومن هنا استمد النبي صالح صفة لطفه.

ومن معجزات النبي صالح يقال إنّ الناقة كانت معجزة لأنّ صخرة بالجبل انشقت يوما وخرجت منها النّاقة، وقد ولدت من غير الطريق المعروف للولادة. وكانت تشرب المياه الموجودة في الآبار في يوم؛ فلا

---

8 القرطبي، مصدر سابق، الجزء السادس عشر، ص 19.

9 تاج العروس، ج 1، ص 6120.

تقترب بقية الحيوانات من المياه في ذلك اليوم، وقيل إنّها كانت معجزة لأنّها كانت تدر لبنا يكفي لشرب النّاس جميعا في ذات اليوم الذي تشرب فيه الماء، والذي عندما تشربه؛ فلا يبقى شيء للناس. وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله: (نَاقَةُ اللهِ) أضافها لنفسه سبحانه بمعنى أنّها ليست ناقة عادية وإنما هي معجزة من الله. {هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً}10، وأصدر الله أمره إلى صالح أن يأمر قومه بعدم المساس بها أو إيذائها أو قتلها، أمرهم أن يتركوها تأكل في أرض الله، وألا يمسوها بسوء، وحذرهم أنّهم إذا مدوا أيديهم بالأذى للناقة فسوف يأخذهم عذاب قريب.

في البداية تعاظمت دهشة ثمود حين ولدت الناقة من صخور الجبل؛ فكان واضحا إنّها ليست مجرد ناقة عادية، وإنّما هي آية من آيات الله. عاشت الناقة بين قوم صالح، حيث آمن منهم من آمن وبقي أغلبهم على العناد والكفر. وذلك لأنّ الكفار عندما يطلبون من نبيهم آية، ليس لأنّهم يريدون التأكد من صدقه والإيمان به، وإنّما لتحديه وإظهار عجزه أمامهم. ولكنّ الله دائما يؤيّد أنبياءه بمعجزات من عنده.

إنّ النّاقة المعجزة هي نتاج تحدي قوم ثمود لنبيه صالح عليه السّلام؛ فهم عندما طلبوا منه أن تلد الحجارة ناقة، هم واثقون أنّ الحجارة لا تلد شيء، فما بالك أنّهم قد حدّدوا رغبتهم في أن تلد لهم ناقة، ونسوا أنّ تحدّي الأنبياء هو تحدّ لمرسلهم. ولهذا قال لهم نبيهم صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئت به، وتصدقوني بما أرسلت به؟

---

10 الأعراف 73.

قالوا: نعم، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثمّ قام إلى مصلاه فصلّى لله عزّ وجلّ، ثمّ دعا ربّه تعالى أن يجيب دعاؤه؛ فكانت الإجابة آية حيث فأمر الله عزّ وجلّ تلك الصّخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه الذي طلبوا، أو على الصّفة التي نعتوا. فلما عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيما، ومنظرا هائلا، وقدرة باهرة، ودليلا قاطعا، وبرهانا ساطعا، فآمن من آمن منهم، واستمرَّ أكثرهم على كفرهم11

ولما خرجت الناقة قال صالح عليه السّلام: {هٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ}12، فمكثت الناقة ومعها سقيها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد الماء سبتا فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر من الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفعها حتّى تشرب كلّ ما فيها من ماء. ومع ذلك فقد عتوا الكفرة من قوم ثمود عن أمر ربّهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها13.

قتلت النّاقة على أيدي الكفرة من قوم ثمود، ويقال لما قتلت الناقة هرب الفصيل بنفسه فانفتح له الحجر؛ فدخل فيه، ثم انطبق عليه، فهو فيه إلى وقت خروجه14. وبعد أن قتلوا الناقة حقّ عليهم العذاب فأرسل الله عليهم صيحة من السماء أزهقت أرواحهم جميعًا ونجى الله القلة المؤمنة بتوحيدها لله وتوكلها عليه15, قال تعالى: {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ,

الموسوعة العقدية، الدرر السنية، 4، ص 44، بترقيم الشاملة آليا 11.

الشعراء 12.155

تفسير الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 4، 253 13.

أشراط الساعة، ص، 149 14 .

عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، ص، 215 15.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ, وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ, كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدا لِثَمُودَ}16

والناقة المذكورة قد وصفت بناقة الله وهذا يعني أنّها معجزة ربانية ظهرت على يد نبي ثمود جوابا على تحديهم. وقد تكرر ذكرها في مواضع عديدة من القرآن المكي. والمفسرون يذكرون استنادا إلى الروايات أن الناقة خرجت من بطن صخرة، كما يذكرون بيانات كثيرة عن جسمها وكيفية شربها وحلبها ومقامها ورغائها والمؤامرة على عقرها ونهاية أمرها17

قال تعالى: {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رِبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبّونَ النَّاصِحِينَ}18، هذه الآيات الكريمة يتبين من خلالها تحقّق العذاب على قوم صالح عليه الصّلاة والسّلام، وكأن سيدنا صالح قال ذلك ليتذكروا كيف أبلغهم رسالات الله ومنهجه ونصح لهم وتحنن عليهم أن يلتزموا بمنهج الله، لكنّهم لم يستمعوا للنصح. ولم يحبّوا الناصحين؛ لأنّ الناصح يريد أن يُخرج المنصوح عما ألفه من الشر، وعندما ينصحه أحد يغضب عليه19.

هود 65. 68. 16
التفسير الحديث، 2، ص 141 17.
18 الأعراف 77- 79.
19 تفسير الشعراوي، ج 1، ص 2944.

والنصح: تحري: فعل أو قول فيه صلاح صاحبّه. قال تعالى: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبّونَ النَّاصِحِينَ}20، وقال تعالى: {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}21، أمّا النصح فكان مع النبي صالح عليه الصّلاة والسّلام في قوله تعالى: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبّونَ النَّاصِحِينَ}22.

فكان ناصحا لامته وكلّ نبي هو ناصح لامته، ذلك أنّ النبي يرى ما لا يراه غيره من النّاس، فإدراكهم العقلي لا يتجاوز في كثير من الأحيان خطوات أقدامهم، وعند الحديث عن النصح نجدهم يقولون وهو من قولهم: نصحت له الود. أي: أخلصته، وناصح العسل: خاصله، أو من قولهم: نصحت الجلد: خطته، والناصح: الخياط، والنصاح: الخيط، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}23؛ فمن أحد هذين؛ أمّا الإخلاص؛ وأمّا الإحكام، ويقال: نصوح ونصاح نحو ذهوب وذهاب24.

ولقد اتصف النبي صالح عليه السّلام بالأمانة (انّه أمين)، والأمين هو من يؤتمن جانبه، وهو الذي يتقي الله ويخشاه في كلّ أمر يقدم

---

20 الأعراف 77- 79.

21 الأعراف 21.

22 الأعراف 79.

23 التحريم 8.

24 مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ج 3، ص 461.

عليه، إنَّه المؤمن بالحقّ قولا وعملا خالصا لله وحده، وهو الموثوق فيه من قبل الآخرين الذين تربطه بهم علاقات موضوعية.

والأمين هو محل الأمّانة وأمين تعنى ممّا تعني:

. الحريص.

. المتقي لله تعالى.

. المتمكن من حُسن الأداء.

. الآمن.

ولذا؛ فكلّ هذه المعاني جاءت في الآية الكريمة السابقة الله عليه وسلّم، فهو الحريص، والمتقي لله تعالى.

الأمين الذي يؤتمن جانبه ويوثق في قوله وفعله وعمله وسلوكه، وهو المخلص لمن ائتمنه، فلا يخالف ولا يخون ولا يزوِّر الكلّم عن مواضعه والحقّائق عن حُججها، وهو الذي إن عاهد وفي.

الأمين هو الصادق والمصدق الذي تودع لديه الأمّانات وتسلم على يديه بالمحافظة عليها فلا تضيع ولا تُزوَّر ولا يزيد ولا ينقص منها شيئا.

والأمّانة قد تكون من الله تعالى كما هو حال الأنبياء والرّسل الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ وجعل بين أيديهم أمّانات منه للعباد تستوجب الإيمان والطاعة والتبشير والإنذار والتحريض والأخذ بما جاء فيها قولا وعملا، والانتهاء عمَّا نهت عنه وتجنب ما أنكرته وتحريم ما حرَّمته.

ولأنّ كلّ أمّانة تستوجب أن يكون أحد أمينا عليها، والرسالات السماوية أمّانات فقد اصطفي الله تعالى لها الصدِّقين رُسُلا حافظين ومبشرين ومنذرين وفاعلين بها بين العباد الخيرات الحسان، قال تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}25.

وعليه كان النبي صالح عليه السّلام مصرّا على أن يترك قومه ما يعبدون من دون الله، فطلب منهم أن يتخلّوا عن عبادة الزائل ويعبدوا الباقي الذي لا يزول؛ ذلك لأنّ قبيلته كانت تعبد أربابا من دون الله، وعلى رأس ما يعبدون حجرة ضخمة سموها: (الصخرةُ المقدّسة)؛ فقال لهم صالح عليه السّلام: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}26 أي اعبدوا الباقي الذي لا يزول ولا يفني ولا يبيد ولا ينتهي، هو الأول والآخر وهو على كل شيء قدير.

الباقي "هو الله تعالى المستأثر بالبقاء وكتب على خلقه الفناء وهو خالق الفناء والبقاء"27.

الباقي "الدَّائِمُ الْمَوْجُودُ لَمْ يَزَلْ، الْمَوْصُوفُ بِالْبَقَاءِ، الَّذِي لا يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ الْفَنَاءُ"28.

---

25 الشعراء 105 . 111.

26 الأعراف 59.

27 تفسير أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 64.

28 الأسماء والصفات للبيهقي، ج 1، ص 44.

الباقي هو الموجود لا عن حدوث في حال وصفه بذلك[29]، أي إذ ذُكر الباقي فصفة الوجود كامنة في الذات لا في الحدث، فالله سبحانه موجود لا محدث، وهو موجود قبل الوجود، وموجود بمعنى العِلْمِ المجرَّدِ إذ كان اللهُ تعالَى مُنَزَّها عن الوَصْفِ بالجَوَارِحِ والآلاتِ[30]، فهو الذي أوجد الوجود، فقد أوجد السماء والأرض، {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}[31]، وقد أريد بالرتق حالة العدم إذ ليس فيه ذوات متميزة فكأن السماوات والأرض أمر واحد متصل متشابه وأريد بالفتق وأصله الفصل في قوله تعالى: (ففتقناهما) الإيجاد لحصول التمييز وانفصال بعض الحقّائق عن بعضها، ومعنى الآية ألم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا على حالتين من التهيؤ، فأظهرناهما بالأمر (كن).

ثم أوجد ما في الأرض وما في السماء، {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[32]، ثم أوجد عليهما من يقوم بأمره، فأوجد الخليفة في الأرض ليعمرها ويأمر بالحقّ ويمنع سفك الدماء والفساد، {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[33]، وأوجد الملائكة في السماء ليسبحوا

[29] معجم الفروق اللغوية 1، 90.
[30] تاج العروس 1، 2319.
[31] الأنبياء 30.
[32] البقرة 29.
[33] البقرة 30.

باسمه، {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحقّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[34].

وليقوموا بأمره فيها، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النّاس وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}[35].

والباقي هو الدائم الذي دام وجوده، فالبقاء له صفة قائمة بذاته[36]، وهو الباقي بجلاله وعرشه وملكه وكماله على الدوام دون تأثر أو تغيير؛ لأن الحي من البشر قد يوصف بالسمع لكن سمعه يتأثر بمرور الوقت فيضعف سمعه، وربما يحتاج إلى ما يعينه كسماعة الأذن لتعينه على تلافي النقص الحاصل جراء التغيير الطارئ عليه، وقد يكون بصيرا لكنه يتأثر بعد مدة فيضع عدسة يستعين بها على الإبصار، والإنسان قد يكون متصفا بالصفات لكنه يتأثر بالسنة والنوم والغفلة، ولو كان قائما دائما لكملت حياته وبقيت صفاته، أما الباقي فهو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم لأنه كامل الصفات، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[37]، وهو الذي لا يغفل، {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا

[34] الزمر 75.

[35] التحريم 6.

[36] الاعتقاد للبيهقي، ج 1، ص 66.

[37] البقرة 255.

يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}38، وعلى الخليفة أن يكون بقدر ما يستطيع على الصفات الحسنى، فلا يغفل عن أداء واجبه تجاه الله سبحانه وتعالى ولا تجاه العباد، فالغفلة صفة يجب على الخليفة تجنبها بالمطلق لأن الله سبحانه وتعالى ذكرها في موضع التحذير والتنبيه على تجنبها، فوصف الغافلين بالكفر فقال جل شأنه: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النّار بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}39، ووصفهم في موضع آخر بالجهل، {وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالحقّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاس بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ}40، وهذه صفات الأولى بالخليفة أن يتجنبها بالمطلق وأن يتحلى بنقيضاتها، فيكون له أذن قادرة على السماع المميز بين الخير والشر، {لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}41، وتكون له بصيرة وليس مجرد عين ينظر بها، فإذا قال قائل؛ كيف يمتلك الخليفة البصيرة وهي من أسرار مواهب الله، أما من وهبه الله البصيرة فقد ملكها، وأما من لم ينل ذلك فعليه بكلام الله يعيه ويعمل به لأنه هو بصيرة الخليفة المؤمن، {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}42، وعلى الخليفة أن يحارب الغفلة بالذكر، وأن يتمثل حال الخليفة الحقّ في الانتباه بعد الغفلة فيتذكر انتباه سليمان عليه الصّلاة

---

[38] إبراهيم 42.

[39] يونس 7، 8.

[40] الروم 6، 8.

[41] الحاقة 12.

[42] الجاثية 20.

والسّلام بعد أن غفل عن ذكر الله، {ووَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ}43.

والباقي دائم في أمره، فأمر الله دوام إرادته، في الثوابت والمتغيرات، أما في الثوابت فمثاله أمر الباقي للجبال أن تقوم بدور إرساء الأرض وهي تقوم بهذا الدور إلى الوقت المعلوم عنده وحده سبحانه، {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}44، وعندما يحين الوقت المعلوم المحدد بأمر الباقي سبحانه تكون بغير هيئتها التي كانت عليه، يقول الباقي جل شأنه عن حركتها: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}45، ثم يصف نسفها فيقول: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}46، أما المتغيرات فمثاله حركة الأفلاك التي ينتج عنها تحديد الزمن والمواقيت وهنا أمر الله باقٍ دوام إرادته، ولا يتغير لا لطاعة العباد ولا لمعصيتهم لأنها حاجات عامة لكل المخلوقات، وشاء الباقي سبحانه أن يبقى أمره فيها إلى أن يشاء، ثم تكون وبأمره في ساعة يعلمها هو سبحانه وتعالى عما يصفون بغير حالها، {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ

---

43 ص، 30، 33.

44 النحل 15.

45 الكهف 47.

46 طه 105، 107.

النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}47، ونفهم من هذه الآيات أن ما من باقٍ غير الله، وما نراه من بقاء هذه المخلوقات إنما هو بقاء جزئي وأن البقاء المطلق هو لله سبحانه وتعالى.

وأمره جلّ وعلا لا تنطبق عليه حدود الزمن، فلا ماضي ولا حاضر ولا مستقبل، إذ الماضي من أمره هو ماضي وحاضر ومستقبل، وحاضره هو ماضي ومستقبل، ومستقبله هو ماضي وحاضر وكل ذلك على سبيل الإثبات أو النفي، أما على سبيل الإثبات فأمثلته كثيرة منها قوله تعالى:{فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا}48، فـ (كان) هنا في الآية فعل فاعله الباقي فهو مستمر غير منقطع، بمعنى أنه كان عفوا ولم يزل يعفو وسيعفو، فلا حد لزمن الفعل، ولو كان الفاعل غير الباقي سبحانه وتعالى لكان الماضي منقطع لا محالة، وأمثلة هذا النمط كثير منها قوله تعالى: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}49، فقد كتبها في الماضي وهي مستمرة في الحاضر وستبقى في المستقبل. وكذلك حاضره، {تِلْكَ الرّسل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}50، فالفعل المضارع دال

---

[47] يس 38، 40.

[48] النساء 99.

[49] الأنعام 12.

[50] البقرة 253.

على الحاضر لكن فاعله الباقي سبحانه فانتفى عنه حد الزمن ليصبح فعلا دالا على الماضي والحاضر والمستقبل معا وهو ما يتجلى في الكثير من الآيات الكريمة ومنها قوله عز من قائل: {وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[51]، وكذلك الأمر في المستقبل من أوامره حيث يسقط عنها حد الزمن وانظر إلى قوله سبحانه: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}[52]، فهل يمكن أن يكون وجوب هذا القول للمستقبل فقط وهو الله أحد من الماضي إلى الحاضر وسيبقى في المستقبل باقيا أحدا صمدا!، كذلك يقول عزّ وجلّ: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}[53]، ففعل الأمر في القاعدة يدل على المستقبل لكنه إذا صدر من الباقي فإنه باقٍ كذلك فهو للماضي والحاضر والمستقبل. وكل ما ذُكر كان على وجه الإثبات، ومثله وجه النفي فهو الآخر لا ينطبق عليه حد الزمن لأن الزمن مخصص للمتغير أما الثابت الباقي فلا ينطبق عليه حد الزمن أو مقياسه، يقول الباقي سبحانه: {وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}[54]، بمعنى أنه ما كان معذبهم وهم يستغفرون ولم يزل يفعل وسيفعل، فزمن الماضي غائب تماما في مساحة الدلالة للآية، ومثله المضارع المنفي، يقول سبحانه وتعالى: {يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}[55]، فهو باقٍ على عدم الرضا عن هؤلاء المتصفين

---

[51] البقرة 185.

[52] الإخلاص 1.

[53] الأعراف 199.

[54] الأنفال 31.

[55] التوبة 96.

بهذه الصفة التي جعلتهم من الفاسقين، أو أنهم سيكونون منهم في المستقبل.

وعليه يدعو النبي صالح عليه الصّلاة والسّلام قومه إلى توحيد الله واحد أحد لا شريك له، وينبّه قومه لأهميّة الاستغفار كونه فرصة وهبة من الله لمن تدارك أمره، ولهذا نصح صالح قومه بأن يأخذوا صفة الله الغفور فليستغفروه وليتوبوا إليه.

ذلك لأنّ صالح يعلم أنّ من صفات الله المغفرة لمن استغفر عن ذنبه، وهو يعلم أنّ المغفرة تحوي في ثناياها معاني الرّحمة والودّ والقيومية وتمنح العبد المؤمن بالله عزّ وجلّ الذي قصّر في حقّ ربّه بارتكاب بعض الذنوب أو تركه لبعض الواجبات، فهذا الاسم يكون بمثابة فسحات متكررة من الأمل تطرد من قلب هذا المؤمن شبح اليأس ذلك لقوله تعالى مطمئنا عباده القانطين: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}56.

والغفور يدلّ على استمرارية المغفرة أو الغفران بدون أيّ عوائق أو موانع، بل بيسر وانسياب، وقد جاءت صفة (غفور) في القرآن الكريم بدون أيّ شرط أو قيد أو صعوبة في مواضع عدة منها قوله تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ}57، وكذلك قوله عزّ وجلّ: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

56 الزمر 53.

57 البقرة 225.

رَحِيمٌ}58، وأيضا قوله سبحانه وتعالى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النّاس وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}59، والكثير من الآيات القرآنية تُشْعرنا بيسر عملية الغفران وقربها منا وإمكانية الوصول إلى استحقّاق مغفرة الغفور عزّ وجلّ.

وهناك أيضا ارتباط للمغفرة بالرّحمة في آيات كثيرة من القرآن الكريم وهذا يدلّ على أن المغفرة الميسَّرة للعباد نوع من أنواع اللين والرّحمة من الخالق لعباده التائبين، فمن رحمة الله تعالى تيسير المغفرة للبشر الخطّائين وفي هذا أيضا استشعار لليسر والسهولة في اسم الله (الغفور).

فالله عزّ وجلّ يغفر الذنوب لمن أراد بقوّته وإرادته ولا يغفرها خوفا أو طمعا بل رحمةً بعباده ولطفا بهم.

وأصل الغفر في اللغة التغطية والستر فكلّ شيء سترته فقد غفرته والمغفرة التغطية على الذنوب.

واسم الغفور ورد في أحد عشرَ موضعا من القرآن الكريم مطلقا ومنونا مراد به العلمية ودالا على كمال الوصفية كما في قوله تعالى في كتابه الكريم: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرّحيم}60 وقوله تعالى أيضا: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرّحمة لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ

58 آل عمران 31.

59 البقرة 198، 199.

60 الحجر 49.

الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا}61، وورد في صفة غفور اثنين وسبعين موضعا من القرآن مثل ما جاء في قوله تعالى: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }62، وقوله أيضا: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}63.

ومن خلال القرآن الكريم وما ورد فيه من قصة خلق الإنسان وجدنا أنّ الخطيئة لم تكن موجودة قبل خلقه، فقد كانت الملائكة تسبح لله وتحمده وتطيعه وحتى الشيطان نفسه كان في طاعة الله لا يخرج عنها لمعصية إلا بعد أن خلق الله تعالى آدم وأمر الملائكة بالسجود له، هنا ظهرت أوّل معصية وبدأ البغض والحقّد وظهر الغرور والتكبّر من جانب الشيطان الذي توعد بنشر الفساد والضلال بين البشر الذين سيتبعونه، كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا

61 الكهف 58.

62 البقرة 173.

63 البقرة 235.

يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفي بِرَبِّكَ وَكِيلًا}64.

كانت الحكمة من إرسال الرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم هي تحقّيق مصلحة خلقه في أرضه في مرضاته تعالى فهو بهم رءوف رحيم ورزاق كريم عظيم،

ومن الحكمة في إرسال الرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم للخصوص والعموم والكافة هو للهداية والرشاد للحقّ أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإصلاح وإعمار في الأرض، ولذلك كان إرساله لرسُله تترى بحيث كلّما ابتعد النّاس أو بعضا منهم عن الجادة بعث فيهم ولهم رسولا مبشرا وداعيا وهاديا لإتباع الحقّ ومنذرا من أجل مستقبل أفضل، وساعيا في الخيرات قولا وعملا وفعلا، قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرّسل أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ}65.

تعرّض النبي صالح عليه الصّلاة والسّلام الى التكذيب من قبل قومه وهذا الأمر ليس بغريب فكل الأنبياء تعرّضوا لذلك ولكن الله دائما معهم وهم الفائزون، قال تعالى: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ ربّه قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

64 الإسراء 61. 65.

65 – المائدة 19.

جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}66.

هذا التكذيب والصد لا يعود أثره السّالب إلا على فاعليها ممّا يجعل المصلحين هم دائما مصلحون.

إذا المصلح هو من يكون موّفقا في حياته ومماّته ويوم بعثه فيكون لمن بعده أسوة حسنة لمن يريد اتعاظا.

العمل الصالح هو الذي يكون في مرضاة الله تعالى، والعمل غير الصالح هو العمل الفاسد الذي لا يُرضي الله عزّ وجلّ، فعقر الناقة كان إيذانا بالخروج عن مر الله تعالى، فهذا الفعل هو عمل غير صالح يترتب عليه بعد ذلك العقوبة، يقول تعالى: {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ}67.

والصلاح ما ليس بفساد وهو لا يكون إلا على الهداية والطاعة التامة لله ربُّ العالمين. والمصلح هو المصلح في ذاته من ذات الله تعالى، فهو الذي خُلق في أحسن تقويم وكان من المستخلفين في الأرض ليعمل صالحا يرضاه الخالق، فالمصلح هو من يَصلُح للحياتين ويرث فيهما خيرا كثير، قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كلّما رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}68.

---

66 – الأعراف 75 – 79.

67 – الأعراف 77، 78.

68- البقرة 25.

ولأنّ صالح من الأنبياء والمرسلين الكرام صلّى الله عليهم وسلّم فهو بدون شك من الصالحين الذين هُم رفيعي الدرجات في مرضاة الله وطاعته وحُسن خَلقه وخُلقه، قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}69.

ولأنّ كلّ الأنبياء من الصالحين (كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ) فنحن لا نميّزَ بين احدٍ من رُسُله وقالوا سمعنا وأطعنا، إنهم الأنبياء والرّسل الصابرين الطائعين الصالحين الذين أدخلهم الله في واسع رحمته مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}70.

المصلِح هو من يُسهم في إصلاح لمفاسد الآخرين، والمصلح هو من لا يؤمن إلا بما هو خير وفي مرضاة الله وهو الذي لا يؤمن أن يكون على غير ذلك قولا وعملا، ولهذا يتوجّه بالعمل الصالح للآخرين ليُسهِمَ في إصلاح أحوالهم لأنه في ذاته مصلحا والله تعالى جعله على الصلاح، ولهذا، لم يكن هدفه من إصلاح الآخرين أو الإصلاح من أجلهم ليكون صالحا، فالصلاح بالنسبة له لا يعد مطلبا يرجوه بل الصلاح هو صفة له ويتصف به قولا وعملا وفعلا

69- الأنعام 83. 86.

70- الأنبياء 85. 88.

وسلوكا، ولذا؛ فهو لا يعمل إلا صالحا، قال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}71، وعندما يكون أهل الأرض (سكانها) يصلحون أحوالهم ولا يفسدون فيها ولا يسفكون الدماء بغير حقّ يتصفون بصفة الإصلاح الذي هو من الإعمار والبناء وسيادة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة بين أهلها وسكانها.

وعليه فالمصلح هو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والآمر هو من بيده امتلاك الأمر واستصداره والقدرة على تنفيذه ومعاقبة من لم يستمع أو ينتهي أو يجتنب أو يتوقف ويمتنع أو يَقدِم دون تردد.

نصح النبي صالح صلّى الله عليه وسلّم قومه، بما نصح به هود ونوح قومهما من قبله، فقد أمرهم بتقوى الله وصارحهم بصدقه معهم، وبتعففه عن تعاطي الأجر على نصحه لهم. فهو مرسل من الله لقومه بما فيه الخير والسعادة، حفيظ على هذه الرسالة كما تلقاها عن الله.

والأمين هو من يؤتمن جانبه، وهو الذي يتقي الله ويخشاه في كلّ أمر يقدم عليه، إنّه المؤمن بالحقّ قولا وعملا خالصا لله وحده، وهو الموثوق فيه من قبل الآخرين الذين تربطه بهم علاقات موضوعية.

والأمين هو محل الأمّانة وأمين تعنى ممّا تعني:

ـ الحريص.

ـ المتقي لله تعالى.

ـ المتمكن من حُسن الأداء.

ـ الآمن.

71- هود 117.

ولذا؛ فكلّ هذه المعاني جاءت في الآية الكريمة السابقة الله عليه وسلّم، فهو الحريص، والمتقي لله تعالى.

الأمين الذي يؤتمن جانبه ويوثق في قوله وفعله وعمله وسلوكه، وهو المخلص لمن ائتمنه، فلا يخالف ولا يخون ولا يزوِّر الكلّم عن مواضعه والحقّائق عن حُججها، وهو الذي إن عاهد وفي.

الأمين هو الصادق والمصدق الذي تودع لديه الأمّانات وتسلم على يديه بالمحافظة عليها فلا تضيع ولا تُزوَّر ولا يزيد ولا ينقص منها شيئا.

والأمّانة قد تكون من الله تعالى كما هو حال الأنبياء والرّسل الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ وجعل بين أيديهم أمّانات منه للعباد تستوجب الإيمان والطاعة والتبشير والإنذار والتحريض والأخذ بما جاء فيها قولا وعملا، والانتهاء عمَّا نهت عنه وتجنب ما أنكرته وتحريم ما حرَّمته.

وعليه النبي صالح اسم ومسمى (اسم وصفة) أي أنّ النبي صالح هو الصالح خَلقا، ثمّ الصّالح خُلقا، فهو مثل محمّد بالتمام الذي خُلق على الحمد خلقا، هكذا هو صالح قد خُلق على الصلاح خلقا. وهنا فالصالح هو من توفرت فيه معطيات الصلاح ليكون نافعا ومفيدا لِما يَقدِمَ عليه من عمل، وهو من يُصلح أحوال المفسدين وفسادهم في الأرض دون كلّل ولا ملل، ولذا لا مُصلح بالمطلق إلا الله تعالى أمّا المستخلفين فيها فهم في دائرة الممكن هم المصلحون فيها بالإضافة، قال تعالى: {يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فوزا عَظِيمًا إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمّانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}72.

وعليه لقد انطبق اسم صالح مع صفة الإصلاح؛ فهو صالح في اسمه وهو صالح في صفاته وهو صالح في أفعاله، ولذا فهو غير منقوص من حيث ما فيه إصلاح، ولهذا بُعث صالح ليصلح أحوال قومه ليكونوا مصلحين في الأرض كما يشاء الله أن يكون بني آدم مستخلفين فيها بالإصلاح. والحمد لله ربّ العالمين.

أ د عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

---

72 الأحزاب 71، 72.

النبي

صالح من وحي القرآن

جاءت رسالة النبي صالح صلّى الله عليه وسلّم لتصحيح العقيدة بإعادتها إلى الثابت بالباقي (لا إله إلا الله)، ثم إصلاح الانحرافات السلوكية في المعاملات الإنسانية التي تفضي إلى الفساد والإفساد وتنقل النّاس أو تعيدهم إلى الصلاح والإصلاح.

ولذا، لقد كانت عقيدة ثمود أوّل الأمر عقيدة موروثة عن الآباء يشوبها الشرك، ويدل على ذلك ما نصّ عليه رسولهم صالح كما يخبرنا العليم الخبير: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}73.

وعليه يدعو النبي صالح عليه الصّلاة والسّلام قومه إلى توحيد الله واحد أحد لا شريك له، وينبّه قومه لأهميّة الاستغفار كونه فرصة وهبة من الله لمن تدارك أمره، ولهذا نصح صالح قومه بأن يأخذوا صفة الله الغفور فليستغفروه وليتوبوا إليه.

ذلك لأنّ صالح يعلم أنّ من صفات الله المغفرة لمن استغفر عن ذنبه، وهو يعلم أنّ المغفرة تحوي في ثناياها معاني الرّحمة والودّ والقيومية وتمنح العبد المؤمن بالله عزّ وجلّ الذي قصّر في حقّ ربّه بارتكاب بعض الذنوب أو تركه لبعض الواجبات، فهذا الاسم يكون بمثابة فسحات متكررة من الأمل تطرد من قلب هذا المؤمن شبح اليأس

73 - هود 61.

ذلك لقوله تعالى مطمئنا عباده القانطين: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}74.

والغفور يدلّ على استمرارية المغفرة أو الغفران بدون أيّ عوائق أو موانع، بل بيسر وانسياب، وقد جاءت صفة (غفور) في القرآن الكريم بدون أيّ شرط أو قيد أو صعوبة في مواضع عدة منها قوله تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ}75، وكذلك قوله عزّ وجلّ: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}76، وأيضا قوله سبحانه وتعالى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النّاس وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}77، والكثير من الآيات القرآنية تُشْعرنا بيسر عملية الغفران وقربها منا وإمكانية الوصول إلى استحقّاق مغفرة الغفور عزّ وجلّ.

وهناك أيضا ارتباط للمغفرة بالرّحمة في آيات كثيرة من القرآن الكريم وهذا يدلّ على أن المغفرة الميسَّرة للعباد نوع من أنواع اللين والرّحمة من الخالق لعباده التائبين، فمن رحمة الله تعالى تيسير المغفرة للبشر الخطّائين وفي هذا أيضا استشعار لليسر والسهولة في اسم الله (الغفور).

---

74 الزمر 53.

75 البقرة 225.

76 آل عمران 31.

77 البقرة 198، 199.

فالله عزّ وجلّ يغفر الذنوب لمن أراد بقوّته وإرادته ولا يغفرها خوفا أو طمعا بل رحمةً بعباده ولطفا بهم.

وأصل الغفر في اللغة التغطية والستر فكلّ شيء سترته فقد غفرته والمغفرة التغطية على الذنوب.

واسم الغفور ورد في أحد عشرَ موضعا من القرآن الكريم مطلقا ومنونا مراد به العلمية ودالا على كمال الوصفية كما في قوله تعالى في كتابه الكريم: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرّحيم}78 وقوله تعالى أيضا: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرّحمة لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا}79، وورد في صفة غفور اثنين وسبعين موضعا من القرآن مثل ما جاء في قوله تعالى: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }80، وقوله أيضا: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}81.

ومن خلال القرآن الكريم وما ورد فيه من قصة خلق الإنسان وجدنا أنّ الخطيئة لم تكن موجودة قبل خلقه، فقد كانت الملائكة تسبح لله وتحمده وتطيعه وحتى الشيطان نفسه كان في طاعة الله لا

---

78 الحجر 49.

79 الكهف 58.

80 البقرة 173.

81 البقرة 235.

يخرج عنها لمعصية إلا بعد أن خلق الله تعالى آدم وأمر الملائكة بالسجود له، هنا ظهرت أوّل معصية وبدأ البغض والحقّد وظهر الغرور والتكبّر من جانب الشيطان الذي توعد بنشر الفساد والضلال بين البشر الذين سيتبعونه، كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا}82.

وعندما ننظر في قصة خَلْق الله للإنسان نجد ولله الحمد أنّ أسماء الله وتعالى وصفاته الأزلية تمثّل الغطاء التام لحاجات الإنسان الكثيرة، فلا يمكن للإنسان قضاء أي حاجة من حاجياته بدون اللجوء لله تعالى، فاسم (الرّحيم) مثلا يعطي معنى الرّحمة التي نزلت من الله القوي بالإنسان الضعيف لخير ذلك الإنسان، واسم (الغفور) يمثّل حاجة الإنسان للمغفرة عند الخطأ واسم الشافي يحتاج إليه الإنسان المريض، واسم الغني يحتاج إليه الفقير وهكذا. وبما أن الله تعالى بعلمه المطلق يعلم أن الإنسان مخلوق ضعيف وهناك من يتوعد بتضليله فإن الذنوب والأخطاء تحتاج لمن يغفرها، ونجد هذه الحاجة أوّل ما نجدها في قصة سيدنا آدم، فعندما خلق الله آدم وخلق منه حواء وأسكنهما الجنّة وضّح لهما الحلال والحرام، ولكنهما وقعا في الذنب باستماعهما لوسوسات الشيطان الرجيم الذي أغراهما بالمحرّم فكان لابدّ من أن

82 الإسراء 61 . 65.

يتوبا لبارئهما وهنا كانت مغفرة الله التي يحتاجها الإنسان لتقبل توبته فكانت التوبة بابا للمغفرة، قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مما كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ ربّه كلّمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم}83، وقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنّة فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّة وَعَصَى آدَمُ ربّه فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ ربّه فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا}84، فخطأ سيدنا آدم وزوجه أظهرت حاجة الإنسان الضعيف إلى مغفرة الغفور المطلق الأزلية.

ومن هنا نجد أنّ أسماء الله تعالى وصفاته كلّها رحمة للإنسان من حيث أنّه يتضرع بها إلى خالقه عزّ وجلّ كلّ حسب احتياجه، فالفقير مثلا يسأل الله الغني أن يعطيه، والمريض يسأل الله الشافي الشفاء،

83 البقرة 34. 37.

84 طه 116. 125.

والضعيف يتضرع إلى الله القوي أن يسانده وينصره، والمذنب يسأل الله تعالى المغفرة حتى ينجو من عذاب الجحيم.

ونحن البشر لنا حالات حياتية معينة قد تختل فيها الموازين لدينا فلا نعود قادرين على التصرف الصحيح في الموقف الذي نتعرض له، فنجد أنفسنا تارة نسعى في عمل الخير ونحاول قدر الإمكان أن نبتعد عن الذنوب والأخطاء، وتارة أخرى نجد أن ذنوبنا التي نعتبرها بسيطة أو صغيرة تختلط ببعضها البعض فنحاسب أنفسنا بعد التدبر والتمعّن والتفكير في ما قدمنا من عملٍ نافع ووضعه في ميزان مع ما ارتكبناه من ذنب، ونجد أنفسنا أحيانا نخلط بين عمل صالح وآخر سيء، كما جاء في قوله: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم}[85]، فإذا أحس العبد أن عمله السيئ قد غلب على الحسن تملّكه اليأس والخوف والحزن فيأتي اسم الغفور ليزرع فيه الأمل لكي ينهض من جديد فيتوب ويجدد أعماله ويقلبها إلى أعمال حسنة.

اسم الله الغفور يجعل الإنسان يشعر بضآلة حجمه وضيق قدراته في هذا الكون إذ أنه كثير الأخطاء والذنوب، وهذا من شأنه أن يجعله متواضعا شاعرا بغيره من البشر، وكذلك يجعله هذا الاسم يدرك أنه لن يضر الله شيئا إذا أذنب ولكنه لو تاب واستغفر الغفور وتراجع عن خطئه يستره الله ويغفر له.

---

85 التوبة 102: 104.

الغفور هو المحاسب: فالحساب واقعٌ لا محالة يوم الدين فلا يمكن أن يفلت أحد من حسابه عزّ وجلّ وذلك تصديقا لقوله تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النّاس أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}86 فالله تعالى لن يترك العباد سدى فيساوي بين المؤمن والكافر والمطيع والعاصي، وكذلك لا يساوي بين كبائر الذنوب وصغائرها، وكذلك العلم بها والجهل بها، فكلّ ذلك يدخل في حساب الله تعالى للإنسان، فمثلا من يعمل سوءا وهو عالمٌ بذلك يحاسبه الله على علمه بذلك فيكون الحساب أشد من الذي يعمل السوء على جهلٍ منه، وذلك كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوّلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}87.

فالمحاسب المطلق يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء وليس للإنسان حجّة على الله بعد أن أرسل رسله بالدعوة للتوحيد والتبشير بالجنّة والتحذير من النّار مع توضيح طرق الوصول لكلّ منهما وهذا بحد ذاته يرفع أي ستار من الممكن أن يختبئ الكافر أو العاصي خلفه يوم الدين ليبرر ما كان عليه في الحياة الدنيا فلا مغفرة تصيبه بما قدّمت يداه.

فالحساب يتضمن المغفرة والعقاب، المغفرة لمن يستحقّها والعقاب لمن يستحقّه، وكلّ إنسان حسابه وجزاؤه رهين بما قدّم من أعمال كما في قوله تعالى: {وَكلّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ

86 الزلزلة 1: 8.

87 النساء 17.

الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفي بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}88، فهذه الآية الكريمة توضّح للإنسان أنه:

*الوحيد الذي يستطيع أن ينجو بنفسه التي أعطاها الله له أمّانة من النّار بأن يستحقّ مغفرة الخالق بما يقدّم من أفعال.

*إن صاحبّ العمل هو الذي سيجازى عليه ويحاسَب لا أقرباءه وأهله، فلن يشاركه أحد في أعماله وأفعاله التي قام بها.

* لا حجّة للإنسان يوم القيامة بعد وجود كتاب أعماله وفيه مسجّل كلّ صغيرة وكبيرة، لأن حساب الخالق عزّ وجلّ دقيق إلى درجة أن الإنسان سيقول يوم الحساب: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أوّل مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ممّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}89.

* إنّ الله عادل لا يعذب ولا يحاسب الإنسان إلا بعد أن يرسل الرّسل والأنبياء كما جاء في قوله تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حجّة بَعْدَ الرّسل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفي بِاللَّهِ شَهِيدًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا إِنَّ

---

88 الإسراء 13 . 15.

89 الكهف 47 . 49.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا يَا أَيُّهَا النّاس قَدْ جَاءَكُمُ الرّسول بِالحقّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}90.

إذن بهذا الحساب العادل ستكون مغفرته لمن يستحقّها بعلمه وقيامه على أمر العباد، لأن أمر الحساب يتطلب أن يكون المحاسب قائما على الأعمال والأقوال فكان الغفور حيا قيوما كما في قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}91، بهذا يكون الحساب عادلا والمغفرة تشمل العباد المستحقّين لها.

فعلى خليفة الله أن يحاسب نفسه أوّلا قبل أن يُحَاسب، فيعلم متى يستحقّ أن يغفر لنفسه ولغيره ممن حوله، فبحسابه للآخرين سيصل إلى معادلة صحيحة يدرك من خلالها كيف ومتى يغفر ويعفو، فيكون الخليفة بحقّ في الأرض فلا يتعدى على حقّ أحد ولا يتجاوز الحد في العقاب، ويغفر متى كان ذلك ميسّرا له ولمن حوله.

---

90 النساء 165. 170.

91 البقرة 255. 256.

الغفور هو الغني: من صفات الخالق عزّ وجلّ أنّه الغني المطلق فهو ليس بحاجة شيء أو مخلوق، والغني لا يحتاج أن يستأذن أحد في أن يغفر أو أن يعاقب، وبما أنّه الغني فالبشر هم الذين بحاجة إليه وإلى مغفرته وعفوه، فلا نجاة لإنسان إلا أن يغفر له المولى عزّ وجلّ، فالخالق قوي متكبر عن كلّ الخلق، والعباد هم الضعفاء كما جاء في قوله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}92، وكذلك قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}93.

فالضعيف هو دائما بحاجة إلى عفو وكرم القوي، والله عزّ وجلّ لا يقهره كفر الكافرين وذلك لغناه عنهم، ولكنهم لا غنى لهم عنه سبحانه وتعالى، فلا ملجأ للإنسان إلا خالقه ولا معين له إلا هو الواحد الأحد، فالكافر سينقلب كفره عليه، قال تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النّاس حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}94 ولن يضر الله شيئا ولن ينفعه بكفره وجحوده.

وهذا أساس التفكير السليم الذي يقوّي العلاقة بين العبد وربّه فيستحقّ أن يكون خليفة في الأرض، وهو يحمل في قلبه وعقله اعتقادا راسخا بأنه الضعيف المحتاج إلى الخالق وهو الغني سبحانه وتعالى عن الخلق، فيتودد هذا الخليفة إلى الله تعالى طالبا مغفرته لأنه لا يغفر الذنوب إلا هو عزّ وجلّ، وهذا من شأنه مساعدة الخليفة

92 آل عمران 97.

93 لقمان 12.

94 آل عمران 96 . 97.

على الارتقاء بنفسه فيستغني عن رذائل الأمور وصغائرها فيكون غنيا عن كلّ الخلق بتوجهه لله تعالى ولجوئه إليه في كلّ أمره صغيره وكبيره.

وعلى الخليفة أن يعلم أن الغنى ليس بالمال والأوّلاد فكم من غني لم تسعفه أمواله من دفع الضرر عنه وأكبر شاهد على ذلك قارون إذ أن الغني المطلق وهب له من الأموال ما لا يستطيع إنسان حصرها وبالرغم من ذلك ظل ضعيفا ومحتاجا لله كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوّلي القوّة إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أوّلمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قوّة وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}95، فقد كان قارون في الحساب البشري الدنيوي من الأغنياء وبالرغم من ذلك كان فقيرا في الحقّيقة إلى رضا الغني المطلق وإلى مغفرته عزّ وجلّ، لأنّ الغنى الحقّيقي هو استحقّاق مغفرة

95 القصص 78. 83.

الله فيكون رصيد الإنسان مليئا بالعمل الصالح والتوبة الصادقة لتحل عليه مغفرة الله تعالى وعفوه، ولكن الغنى قد يكون مع فقر الإنسان، كما جاء في قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النّاس إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}96.

الغفور هو الكريم: من صور كرم المولى عزّ وجلّ للإنسان مغفرته له على ما تاب ورجع عنه من ذنوب فيعفو الله تعالى عنه ويرضى عليه، فقد كرّم الخالق تعالى الإنسان بحمل الأمّانة، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمّانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ}97، فكان خليفته على الأرض، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كلّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ

96 البقرة 272 . 274.

97 الأحزاب 72.

غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}98، وبعد ذلك كرّمه بالعفو والمغفرة التي لا تنزل إلا على عباده المؤمنين الذين يوحدونه ويطيعونه، فاستحقّوا كرمه عزّ وجلّ واستحقّوا مغفرته، قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النّاس وَاللَّهُ يُحِبّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أوّلئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ ربّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}99.

فالكريم المطلق لم يبخل بمغفرته وعفوه عن المذنبين بل ودعاهم لطلب المغفرة فيستجيب لهم كما في قوله تعالى: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كلّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}100، فقد طلب الخالق عزّ وجلّ من عباده على لسان رسله وأنبيائه أن يستغفروه فيغفر لهم ويتوب عليهم، كيف لا وهو الرّحيم الغفور الكريم؟

وليسم من خلفاء الله من يبخل على نفسه بالعمل الصالح أو التوبة الصادقة، فخليفة الله هو من اتصف بالكرم في عفوه عمن أساء

98 البقرة 30 . 33.

99 آل عمران 133 . 136.

100 هود 1 . 4.

إليه وأخطأ في حقّه فلا يبخل عليه بالسماح والغفران، وأن لا يكون بخيلا في طلب المغفرة من الغفور الكريم كما جاء على لسان الأنبياء والمرسلين في قوله تعالى في دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ}101، وكذلك قوله تعالى في طلب سيدنا موسى عليه السلام الغفران منه سبحانه وتعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}102، وأيضا قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}103، فمن الآيات الكريمة السابقة يتضح لنا قيمة الاستغفار، فإذا كان هذا حال الرّسل والأنبياء والصالحين الذين اصطفاهم الله تعالى وميّزهم بالصفات النبيلة فكيف الحال بنا نحن البشر؟

فلا تبخل أيها الخليفة في طلب المغفرة والعفو واجعل من المرسلين قدوة ومثل تسير عليه في كلّ أمر ومنها طلب الغفران وقبول التوبة، فلا تبخل في طلب المغفرة لنفسك ولوالديك وأهلك وجميع المسلمين.

الغفور قريب من عباده:

1- حثهم على الاستغفار: كقوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قوّة إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}104.

---

101 الشعراء 82.

102 الأعراف 151.

103 الحشر 10.

104 هود 52.

2- قبوله الدعاء وإجابته لعباده كلّ حسب حاله وأحواله: كقوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}105.

وإجابة الدعوة تعني قرب الله من الإنسان قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}106، فالخالق عزّ وجلّ يحدد ويؤكد لعباده المؤمنين الذين يطلبونه دائما ويلجئون إليه أنّه قريب وليس ببعيد، والقرب هنا يوحي بمحبّة المولى عزّ وجلّ بقربه لعباده وغفرانه لهم، والخالق قريب من البشر أجمعين بعدة أشكال منها:

1- إنّه قريب من عباده التائبين بغفرانه لهم، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}107، فيبعث الأمل بنفوسهم بتأكيده أنه قريب منهم يغفر لمن يطلب الغفران ويتوب ويرجع للحقّ.

---

105 البقرة 286.

106 البقرة 186.

107 آل عمران 135، 136.

2- قريب من عباده الطائعين بأنه يلبي لهم رغبتهم بدخول جنته، كقوله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كلّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}108.

3- إن الغفور قريب من عباده أجمعين بعلمه بما توسوس به أنفسهم، كما في قوله تعالى في كتابه الكريم: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالحقّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كلّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}109.

4- وهو قريب من عباده بقيامه عليهم وحسابه لهم على كلّ صغيرة وكبيرة، فيغفر ويعفو عن من يستحقّ المغفرة، قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفي بِنَا حَاسِبِينَ}110، وقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أوّلئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آَيَاتِنَا

108 البقرة 25.

109 ق 16 . 23.

110 الأنبياء 47.

مُعَاجِزِينَ أوّلئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبّكَ هُوَ الحقّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ}111.

فعلى الخليفة أن يكون قريبا من الله تعالى لا يترك مجالا للشيطان أن يوسوس له أبدا لأن عباد الرّحمن أي خلفاءه لا سيطرة للشيطان عليهم ذلك كما أكّد لنا الله تعالى في قوله عزّ وجلّ: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كلّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكلّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرّحيم}112 فالقرب من الله تعالى يحفظ الإنسان من أي سوء قد ينزل به، فيكون في أمّان من كلّ شر، ولذلك فعلى الخليفة أن يكون قريبا من ربّه.

111 سبأ 3. 6.

112 الحجر 32. 50.

أوّلا: بالطاعات والدوام على العبادات وذكره والاستغفار لذنوبه والخشوع له، قال سبحانه وتعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أوّلئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حقّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}113، وكذلك بحبّه للرسول – صلّى الله عليه وسلّم– لقوله تعالى في كتابه الكريم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسول وَأوّلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرّسول إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}114، فيستحقّ بذلك أن يكرمه الله تعالى بالمغفرة والعفو.

ثانيا: من قربّه لنفسه: وذلك بأن يحاسبها بشكلّ مستمر، فيرقى بها عن المفاسد والرذائل، وأن يبني صداقة مع ذاتها بأن يتصارح معها ولا يخاف من مواجهة نفسه، بذلك يقودها إلى التفكير الجدي والعميق الذي سيصل به إلى خلافته في الأرض، ويستحقّ غفران الله تعالى له.

ثالثا: قربّه من أهله: وذلك بالإنفاق عليهم والإحسان إليهم فيكون شاعرا بما يصيبهم، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}115، وكذلك قوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا أمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كلاّهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا

---

113 الأنفال 2 . 5.

114 النساء 59.

115 البقرة 215.

كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرّحمة وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حقّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا}116.

رابعا: قربّه من أبناء الأمة: من حقّ المسلمين على الخليفة أن يحسن معاملتهم وخطابهم، وأن يرفع الأذى عنهم ومعهم، وأن يعود مرضاهم ويدعو لأسراهم ويعلّم جاهلهم لتكون أمة كلّها خير ومنه الخير لقوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}117.

فالله قريب من عباده وهو يخبرهم بذلك لكي يكون قربّه منهم لمنفعة تعود عليهم كأن يراقب الإنسان نفسه وأن يشعر بالخجل من أي فعلٍ قبيح ينوي القيام به لمعرفته أن الله يراقبه فيتركه ويتوب، قال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا}118.

الغفور حي قيوم:

عملية المغفرة لا تأتي وحدها دون أيّ سابق فلابدّ للإنسان من ذنب لكي تطلب مغفرة الغفور عزّ وجلّ، وهذا بالتالي يتطلب أن

116 الإسراء 23 . 26.

117 آل عمران 110، 111.

118 النساء 110 . 113.

يكون الله قائما على أمور العباد فلا تفلت منه صغيرة ولا كبيرة، قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}119، فالعلم بالذنوب يتطلب الحياة والقيومية فيكون بذلك الحساب عادلا، فيغفر لمن يستحقّ ويعاقب من يستحقّ، ونجد أن هناك نوعين من الاستغفار:

استغفار من تفكيرٍ سيء: كسوء الظن أو الشك في غير محله أو التفكير في المحرمات وغيرها، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}120.

استغفار من عملٍ سيء: والأعمال السيئة والفاسدة عديدة منها الأعمال القولية مثل: التجسس والغيبة لقوله سبحانه وتعالى: {وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكلّ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}121، ومنها الأعمال القصدية مثل: الزنا والقتل العمد والغش في الميزان وأكلّ مال اليتيم لقوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا

119 البقرة 255.

120 الحجرات 12.

121 الحجرات 12.

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}122

وكلّ من هذين الأمرين يتطلب غفران الغفور وعفوه بأن يقبل توبة التائب، وغفران الخالق عزّ وجلّ ليست لغفلةٍ منه بل على وعي تام وكامل بمجريات الأمور، وكيف لا يكون قائما على العباد وهو خالقهم؟

الغفور ودود:

من أروع صور حبّ الله تعالى ووده لنا هي التي تتجلى في غفرانه ذنوبنا وستره لنا، فقد جعل الله عزّ وجلّ الإنسان خليفة في الأرض ليسعى فيها بالإصلاح والإعمار ولنشر الحقّ، فكان نزول سيدنا آدم عليه السلام وزجه إلى الأرض رغم اعتراض الملائكة على خلافته منذ البداية كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}123، وهنا تتجلى محبّة الخالق للإنسان وتكريمه وذلك بالآتي:

122 الإسراء 32. 36.

123 البقرة 30: 33.

اختياره أن يكون خليفة له في الأرض دون سائر المخلوقات الأخرى من جن وملائكة، فقد كرّم الله تعالى الإنسان باستخلافه في الأرض وهذا أمرٌ عظيم.

طلب الخالق من الملائكة السجود لآدم بعد خلقه، فمن غير المعقول أن تطلب التكريم والتقديم لأحدٍ ما من غير أن تكون على صلة وثيقة مبنية على المحبّة والود.

تقديم المولى عزّ وجلّ العلم للإنسان بما يجهله الملائكة والجن، وفي هذا تفضيل من الله تعالى للإنسان ولا يكون التفضيل إلا عند تواجد الود، فقد كان بالإمكان أن يعلّم الله تعالى الملائكة أو الجن مثلاً ما علّمه للإنسان ولكنه فضّل هذا الإنسان.

ونستطيع أن نلاحظ ونستنتج بالمقابل بغض الشيطان للإنسان وحقّده عليه في بقية الآية الكريمة السابقة: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}124 إذ أنّه لا وجود للود في ردّ الشيطان على أمر الله تعالى بالسجود لآدم بل إنّنا نجد البغض والحسد والكراهية والاستكبار، كما جاء في قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ

---

124 البقرة 34.

أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ}125، ففي هذه الآية الكريمة تتضح كراهية الشيطان للإنسان، وقد كان نتيجة ذلك استحقّاق الشيطان غضب الله تعالى عليه وعدم مغفرته تعالى له على تكبره وعصيانه لأوامر الله تعالى.

فمن ذلك نستنتج أنّه من الأمور التي لا يغفرها الله تعالى عدم إطاعة أوامره والاستكبار عنها، وهنالك الكثير من الآيات والأدلة التي توضح وتؤكد ذلك نذكر منها:

1- {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كلّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ}126، فبذلك الاستكبار عن أوامر المولى عزّ وجلّ استحقّ الشيطان لعنة الله تعالى عليه.

2- {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ذْ نَادَاهُ ربّه بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُوّلى

---

125 الأعراف 11. 18.

126 الحجر 28. 35.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}127، فتكبر الإنسان وعصيانه وكفره لا يغفرها الله تعالى للإنسان.

فعلى خليفة الله أن يكون متواضعا خاشعا مطيعا لما أمره الله منفذا لها كي يستحقّ مغفرة الخالق لذنوبه وإدخاله دائرة رحمته التي وسعت كلّ شيء، وإطاعة هذه الأوامر من شأنها أن تفتح بابا من أبواب المغفرة، ومن ضمن هذه الأوامر:

أ – إطاعة الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم:

فقد قال الله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرّسول فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبّ الْكَافِرِينَ}128، فمن الآية الكريمة السابقة نجد أن من شروط وسمات حبّ العبد لله ورسوله هي الطاعة وإتباع أوامره عزّ وجلّ وإتباع رسوله الكريم – صلّى الله عليه وسلّم- وبهذه الطاعة يستحقّ هذا المؤمن حبّ الله، وهذا الحبّ المتبادل من شأنه أن يجعل مغفرة الله قريبة ورحمته من هذا العبد كذلك، قال تعالى في كتابه الكريم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسول وَأوّلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرّسول إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}129، فالرّسول عليه الصّلاة والسّلام لا ينطق إلا بما علّمه الله تعالى فمن أطاعه فقد أطاع الله، وإطاعة الرّسول الكريم أمرٌ من الخالق يُلْزم به كلّ من أراد مغفرته ورضاه، فلا يمكن أن نكون مسلمين دون أن نطيع رسولنا الكريم،

---

127 النازعات 15 . 26.

128 آل عمران 31، 32.

129 النساء 59.

وهذه الطاعة إذا كانت موجودة استحقّ الإنسان مغفرة المولى عزّ وجلّ في حال ارتكابه ذنبا أو خطا يستوجب الاستغفار، وكذلك لابدّ أن يكون حبّ الله والرّسول الكريم متقدّما عن أي حبّ آخر في قلب المؤمن وإلا فإن الطاعة لن تكون كاملة إذا نازع محبّتهما محبّةٍ أخرى وذلك مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحبّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}130.

فعلى خليفة الله أن يكون مطيعا بحبّ وود لله ورسوله، ومحبّا بطاعته لله ورسوله، ليستحقّ مغفرة الخالق عزّ وجلّ ورحمته به، فمغفرة المولى عزّ وجلّ للخليفة بالإضافة هي أكبر فوز ونجاح لهذا الخليفة.

ب- الإحسان إلى الوالدين:

تنفيذا لقوله تعالى في كتابه الكريم: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا أمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كلاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرّحمة وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا}131، يتضح لنا من الآية الكريمة السابقة مدى ارتباط توحيد الله تعالى وعبادته بالإحسان إلى الوالدين، ذلك أنه ما من مؤمنٍ غفر الله له وهو عاق لوالديه أو لأحدهما، بل وقد أمرنا الخالق عزّ وجلّ أن نحسن

130 التوبة 24.

131 الإسراء 23: 25.

معاملتهما ونطلب لهما الرّحمة لنكون مستحقّين لرحمة الله تعالى ومغفرته، فحبّنا وودنا لله تعالى لا يمكن فصله عن حبّ الوالدين والإحسان إليهما فيرضى عنا الخالق بهذا الحبّ.

ولا يمكن أن يكون من بين خلفاء الله في الأرض من هو عاقٌ أو مسيءٌ لوالديه أو لأحدهما، فبرهما والعطف عليهما من سمات خلفاء الله في الأرض.

ج – الإنفاق في وجوه الخير:

قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحبّ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النّاس بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}132، فقد وضّح الله تعالى كيفية الإنفاق الصحيح في الأمّاكن التي تستوجب هذا الإنفاق، وهذا الإنفاق مرتبط بحبّ الله وتوحيده، فهي عملية مترابطة ببعضها البعض فإذا أحبّ العبد ربّه فإنه لن يحبّ زينة الحياة الدنيا كمثل حبّه له تعالى، وهذا الحبّ يجعل منه زاهدا في متاع الحياة الدنيا الفاني ويحثه للبحث عن الخير الباقي الذي يجعله عباد الرّحمن الذي رضي عنهم فغفر لهم وعفا عنهم، وهذا الإنفاق له أساسيات يجب أن يسير عليها المسلم تنفيذا لما أمره الله به بعلمه المطلق وخبرته اللامحدودة.

وخليفة الله هو من كان حبّ الخالق عزّ وجلّ ورسوله مهيمنا على كافة أنواع الحبّ الأخرى سواء كانت زوجة أو أوّلاد أو أموال أو

---

132 النساء 36، 37.

غيرها من متاع الحياة الدنيا الفاني، فلا يحرّكه إلا حبّه لله فيدفعه لكلّ ما فيه خيره وصلاحه.

د- الصّبر على البلاء:

امتثالا لقوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[133]، فمن الأمور العظام التي لا يستطيعها كلّ البشر هو الصبر عند حلول المصيبة أو البلاء كالمرض والموت ونقص الأموال أو الأولاد فكلّ هذه الصعاب تحتاج إلى عزيمة وإرادة وقبلهما إيمان قوي، والإنسان الصابر له درجة عالية عند رب العالمين وهذه الدرجة التي نالها برحمة الله وصبره تغفر له زلاته أو أخطائه، فكلّ البشر خطاؤون ولا يوجد من هو معصوم عن الخطأ، ولكن هناك فرق بين خطأ هذا الإنسان الصابر المحتسب أمره لله وبين الإنسان المتذمر الذي لا يصبر على قضاء الله وقدره.

وخليفة الله لا يمكن أن يكون عجولا هلوعا بل لابدّ أن يملك من الصبر ما يجعله مستحقّا لمغفرة الله تعالى، فيثبت عند الشدائد ويصبر لحكم الله ويكون صبره لثقته بأن الله رحيما به غفورا له.

هـ- الجهاد في سبيل الله:

من أروع صور الحبّ والود بين الخليفة وبين الخالق عزّ وجلّ هي تقديم الروح والنفس في سبيل إعلاء كلّمة الحقّ والدفاع عن ديننا الحنيف ورسولنا الكريم – صلّى الله عليه وسلّم – فيستشهد المؤمن

---

133 البقرة 155 . 157.

لتتجدد حياته فور استشهاده كما جاء في قوله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحقوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}134، فالبشرى لا تكون إلا للأحياء، والرزق لا يكون إلا للأحياء أيضا، فالمولى عزّ وجلّ كرّم هؤلاء الشهداء بتلك المنزلة الرفيعة من الجنّة، وبالطبع من وصل إلى هذه المنزلة فقد استحقّ مغفرة الغفور على ما ارتكب من أخطاء صغيرة في حياته لأنه قدّم أغلى ما يملك في سبيل المولى عزّ وجلّ فإذا كان هذا حال المخلوق فكيف يكون جزاء الخالق؟

فطوبى للشهداء الأبرار الذين اختاروا الدار الآخرة على الحياة الدنيا فاشتروا حبّ الله ليستحقّوا بذلك مغفرته ورحمته بهم.

و- الالتزام بالعبادات:

لقد جاء رسولنا الكريم محمّد – صلّى الله عليه وسلّم- بالعديد من الأوامر الإلهية الواجبة على المؤمن إتباعها، وكذلك اشتمل القرآن الكريم على العديد من النواهي التي لابدّ من الابتعاد والنهي عنها، وكلّما كان المؤمن ملتزما بهذه الأوامر مؤديا للعبادات استحقّ بذلك غفران الخالق سبحانه وتعالى، فمثلا الالتزام بأداء الصّلاة في مواقيتها تجعل من العبد قريبا من ربّه يناجيه ويطلب منه ويستغفره فيقبل الله منه ويغفر له ما قد وقع فيه من أخطاءٍ في حياته الدنيا، كما جاء في قوله تعالى في كتابه الكريم: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ

---

134 آل عمران 169 . 171.

اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصّلاة وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}135 فكما جاء في الآية الكريمة السابقة من الأمور التي تُنزل مغفرة الخالق على المخلوق هي قراءة القرآن الكريم وإقامة الصّلاة وأداء الزكاة والقتال في سبيله تعالى والإنفاق في وجوه الخير والاستغفار المرافق لكلّ ذلك، فبالرغم من الأعمال العظيمة التي لابدّ أن يقوم بها المؤمن إلا أن الله تعالى قرنها بالاستغفار الذي يذكّر العبد بالغفور المطلق الذي لا حد لمغفرته، كما جاء في قوله تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}136.

فالخليفة لابدّ أن يكون ممن يؤدون ما فرض الخالق عليهم من عبادات، وهو محبّ له راضٍ كلّ الرضا بذلك، لا يمل ولا يتكلّف ولا يتذمر، لا يفعل ذلك من أجل هدفٍ دنيوي كما وصف المولى المنافقين في قوله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصّلاة قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النّاس وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}137.

ع – التوبة الصادقة:

---

135 المزمل 20.

136 المائدة 39 . 40.

137 النساء 142 . 143.

التوبة قوّة من بلغها كان عليها ومن لم يبلغها كان على الضعف، ولذلك المؤمن على القوّة وليس على الضعف. لقد خلق الله تعالى الإنسان وخلق الخير والشر، وقد كان الإنسان ضعيفا أمّام الحياة ومغرياتها فأحيانا يضعف وأحيانا لا، ولكن الضعف البشري نوعان هما:

أ- الضعف المؤقت:

هذا الضعف يصيب المسلم القوي الذي قد يضعف في لحظةٍ ولكنه يستدرك نفسه ويسارع إلى استغفار ربّه والتوبة ممّا كان فيه، كما حدث لسيدنا آدم عليه السلام عندما أزله الشيطان ووسوس له كما جاء في قوله تعالى: {وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكلّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شئتما وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا ممّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ ربّه كلّمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم}138، وكذلك يكون الضعف المؤقت الذي يوقع الإنسان تحت سيطرة الشيطان الرجيم في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أوّلئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ ربّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}139 فينجو بنفسه من الهلاك، هذا المسلم يحمل بين جنبيه ضميرا وقلبا يفيضان بالخوف من الله ومحبّته والرغبة في رضاه، فيخرجه هذا الحبّ من هذا الضعف فيقوى ويستمد هذه القوّة ممّا ذكرناه، فيستغفر لذنبه ويتوب كما جاء

138 البقرة 35 . 37.

139 آل عمران 135، 136.

في قول الله تعالى: {وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}140.

ج – الضعف المستديم:

هذا الضعف يصيب نفس من لا يحمل إيمانا قويا، ولا يسكن حبّ الخالق قلبه بشكلّ يكفيه من الضياع والهلاك، فيسيطر عليه الشيطان الرجيم ويجعله ضعيفا تائها ويستمر هذا الضعف لعدم توجهه لله تعالى والتوكلّ عليه، فيكون هذا الإنسان من معصية لأخرى، ومن مفسدة لغيرها، فتنقضي حياته دون أن يشعر وهو غارق في الملذات والرذائل، أوّلئك الذين قال الله تعالى عنهم: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوَلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوَّلِئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}141، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوّلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ العزّة فَإِنَّ العزّة لِلَّهِ جَمِيعًا }142.

ولا تتحقّق التوبة الصادقة التي تستحقّ غفران الخالق إلا بالتالي:

أوّلا: ترك المعصية:

للخروج من الذنب إلى المغفرة فإن أوّل خطوة لابدّ أن تكون الإقلاع عن الذنب نفسه، فلا يغرق فيه مرة أخرى، بل يجب عليه أن

---

140 الأعراف 153.

141 آل عمران 90، 91.

142 النساء 137 ـ 139.

يملك من العزيمة والإصرار ما يجعله كارها لفعله عازما على عدم العودة إليه باقتناعٍ تام ورغبة في أن يرقى بنفسه عن الذنوب، قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

ثانيا: العزم على عدم الرجوع إليها:

لا يعني ترك الذنب أو الخطأ مؤقتا أو ترك جزء منه فقط هي توبة توجب المغفرة، بل لابدّ أن يقلع نهائيا لا جزئيا عن هذا الذنب مع مصاحبّة العزم على عدم العودة لذلك الذنب مهما كانت مغريات الدنيا وشهواتها.

ثالثا: الندم:

قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}143، فلابدّ أن يكون الشعور بالندم على ما ارتكبه هذا الإنسان المذنب مصاحبّا ومرافقا لنفسه لصيقا بحياته، إذ أنّ الندم هو أوّل علامات التوبة النابعة من القلب والموجبة للمغفرة.

ويعد الجهل من الأمور التي تجعل من توبة الإنسان مقبولة، أمّا العلم بذلك فإنه يكون حجّة على الإنسان يوم الدين كما جاء في قوله عزّ وجلّ: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأوّلئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ

143 الزمر 53.

قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}144، فالآية الكريمة وضّحت بعض الأمور التي هي في بالغ الأهمية:

أوّلهما: الجهل.

أن الجهل بالذنب يجعل من التوبة مقبولة والمغفرة حاصلة.

ثانيهما: التوبة.

أنّ للتوبة زمنٌ محدد وهي أثناء حياة الإنسان بطولها ولكنها لن تفيد إذا واجه الإنسان الموت فتاب حين يحضره الموت.

ثالثهما: الإسلام.

وعليه فالتوبة لا تُقْبل من كافر.

والتوبة لابدّ أن تكون مقرونة بالعمل الصالح الذي من شأنه أن يرفع درجة المؤمن عند ربّه، كما جاء في قوله تعالى في كتابه الكريم: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا}145، فالآية السابقة تقرن التوبة المقبولة عند الله بالعمل الصالح وهذا دليل على أنّ التوبة ليست بالأمر الهين الذي يستطيعها كلّ مخطئ وكلّ مسيء بل إنها تتطلب عزيمة وإرادة يدعمهما إيمانٌ ثابت. والعمل الصالح لا يمكن حصره في أعمالٍ معينة بل أنه يشمل كلّ عملٍ مقصده الخير والصلاح، يُقْصد به وجه الغفور.

144 النساء 17، 18.

145 الفرقان 70، 71.

والمولى عزّ وجلّ ودودٌ بمغفرته وحث الإنسان للسعي وراءها، فقد قدّم المولى عزّ وجلّ جميع أسباب المغفرة للإنسان وفي هذا ودٌ واضحٌ من الخالق لهذا المخلوق الذي كرّمه تعالى عن كلّ المخلوقات، وقبوله التوبة من أكبر الأمور التي تدل على الغفور عزّ وجلّ هو ودودٌ بهذه المغفرة.

لذلك فخليفة الله عليه أن يكون ودودا مع من أساء إليه فلا يبادله الإساءة وإذا طلب منه المسيء العفو والغفران فلا يمنعها عنه ولا يجعل من قلبه مستودعا للحقّد والبغض.

والسعي في طلب المغفرة والعفو من المولى عزّ وجلّ من شأنه أن يصل بالإنسان المسلم والأمة الإسلامية إلى أعلى درجات الرقي والتطور، {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكلّ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا

اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}146، فمن الممكن التخيل إذا كانت هذه أخلاق كلّ المسلمين فكيف سيكون حالهم؟

الغفور رحيم:

من صور رحمة المولى عزّ وجلّ بنا هي مغفرته لنا وقبوله توبتنا، وقد قرن الله تعالى بين المغفرة والرّحمة في كثير من الآيات الكريمة مثل قوله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}147، وقوله أيضا: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرّحيم}148.

والله الغفور برحمته يترك لنا الفرصة تلو الأخرى في كلّ مرّة نخطئ فيها أو نرتكب ذنبا، فرحمة الخالق جعلت مغفرته متكررة لتكرار الذنب، وإلا إذا تصورنا أن مغفرة المولى عزّ وجلّ لا تأتي للعبد إلا مرة واحدة لما كان لعبد أمل في دخول الجنّة والفوز برضا الخالق.

ومن رحمته أيضا المتجلية في غفرانه أنّه يغفر للإنسان ما ارتكبه قبل أن يدخل الإسلام فلا يحاسبه عليه بل يبدأ حسابه له بعد دخوله الإسلام واعتناقه الدين الحنيف، وكذلك من صور رحمته الرائعة أنه لا يعجّل العقاب فور وقوع الذنب بل يترك الفرص للتوبة والرجوع للحقّ بالاستغفار والندم كما جاء في قوله تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرّحمة لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ

---

146 الحجرات 9 . 14.

147 يونس 107.

148 الحجر 49.

دُونِهِ مَوْئِلًا}149، فمن رحمته ترك الوقت للإنسان وإعطائه الفرص للتوبة ونيل غفران الله تعالى.

ومغفرة الذنوب نوعٌ من النعم ينعم الله تعالى بها على عباده المستغفرين، فالخالق عزّ وجلّ عندما يغفر للمسلم ذنبه فهو بذلك يستره يوم يقوم الحساب، فالغفور سبحانه وتعالى يغفر ويُخفي خطيئة العباد ويحفظ العقاب إن لم تكن التوبة، فالعبد المخطئ حينما يتوب إلى الله تعالى ويتراجع عن ما قام به من خطايا وذنوب لا يجد سبيلا إلا أن يدعو الغفور العظيم المسئول عن حسابه بأن يسامحه ويغفر له إضافة إلى أن الله يجعل من ذلك سرا فلا يعلم به سواه عزّ وجلّ فهو العالم بذنوب عباده وهو العليم بالتائبين والمستغفرين، وبهذا فإن هذا الستر بالمغفرة يجعل من العبد مستشعرا بالأمّان لثقته بأن الله عزّ وجلّ لن يفضحه في ذنبه هذا، في حين أنّه لو أفضى هذا الإنسان ما قام بارتكابه من ذنب لإنسان آخر فإنه بمجرد الانتهاء من الشكوى يملؤه الخوف من إفشاء سره وانتشاره بين النّاس من ذلك الإنسان، وهذا من دواعي أن لا يتجه العبد إلا لخالقه الستار الغفور فلا أمّان والثقة والحماية عنده هو الستار الكريم، وهذا الأمّان يدفع العبد لمزيد من التعلق والارتباط بالخالق عزّ وجلّ الغفور ويزداد قربا ورضا عندما يتذوق حلاوة الطمأنينة التي تبعثها هذه الثقة، فيحبّ الستر له ولغيره وبحبّه للستر من عند الله فإنّ ذلك يكون دافعا له أن يرحم المسلمين، كما جاء في حديث الرّسول عليه الصّلاة والسّلام: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النبي -صلّى الله عليه وسلّم- قَالَ "لاَ يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"150.

---

149 الكهف 58.

150 صحيح مسلم، ج 8، ص 21.

ولو أنّ كلّ فردٍ منا تعلم ذلك الدرس وساعد الآخر على العودة عن ذنوبه وأخطائه بالنصح والإرشاد والدعم المعنوي والتذكير بالعقاب الرّباني، وأن يستر غيره من العباد فإنّ ذلك يدعّم الثقة بينهم وتقوّي أواصر المحبّة والإخاء بين البشر، وتلك غاية ينشدها كلّ مجتمع وكلّ ديانة والكلّ لا يعلم كيف السبيل لذلك أحيانا، إنَّ الوصول لذلك ببساطة شديدة هو بالفهم والوعي الكامل لاسم الغفور الذي لا نستطيع الحصر الكامل لمعانيه فهو أكبر من قدرتنا البشرية على استيعابه بالشكلّ التام والكامل.

إذن فاسم الغفور يمدنا بالإيمان الكامل والثقة والطمأنينة التامة فتمتلئ النفس بالراحة والطاعة والخضوع للغفور المطلق الذي يستر العيوب ويغفر الخطايا.

والغفور سبحانه وتعالى يستر كلّ قبيح في الإنسان وقد دعا إلى أن يستر المسلمون بعضهم بعضا فيكونون رداءً يستتروا به كما جاء في حديث الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم- "عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلّى الله عليه وسلّم- « مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجنّة وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرّحمة وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ"151، فمن ضمن

151 صحيح مسلم، ج 8، ص 71.

أخلاق وصفات الخليفة الحقّ في الأرض أن يكون ستّارا لأخيه المسلم فيغفر له دون التشهير به، فكما أن الخليفة يحبّ أن يُغْفَر له ويُسْتَر عليه فكذلك يجب أن يَغْفِر ويَسْتُر كما جاء في قوله تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أوّلو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أوّلي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحبّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}152 فمن الآية الكريمة السابقة نجد أن:

أوّلا: أنّ مغفرة وعفو وستر العباد المسلمين على بعضهم البعض هو أمرٌ من الله تعالى، وهذا يدل على أهمية وقيمة ذلك في المجتمع المسلم وما له من تأثيرات إيجابية في بناء مجتمع مسلم سليم وقوي وإلا لما كان أمر الله بذلك.

ثانيا: تعويد المسلم على الإحساس ببعضهم البعض فالذي يحبّه المسلم لنفسه عليه أن يحبّه لغيره، فإذا أحبّ المسلم أن يغفر له الله تعالى عليه أن يحبّ أن يُغفر لأخيه المسلم.

ثالثا: أنّ غفران العباد المسلمين لبعضهم البعض في الدنيا سبب لمغفرة الله تعالى في الآخرة، وهذا بحد ذاته دافع لتزايد روح المحبّة والترابط بين المسلمين.

وهذا يجعلنا نشعر بالخجل من أن نفضح حين يجب أن نستر، وأن نكون على يقين بأن الله يرانا، فالخليفة لابدّ له من أن يحاول ستر عيوب وأخطاء الغير من البشر سواء أكان قريبا أم بعيدا هذا المخطئ عنه، وألا يتجه سوى لله عزّ وجلّ وكلّه ثقة وإيمان بأن الله لن يخذله عندها لن يلجأ لأي مخلوقٍ آخر، فيُسْتَر ويَسْتُر.

---

152 النور 21.

والغفور سبحانه وتعالى بغفرانه وستره لذنوب عباده يخاطب الخليفة بأن يكون متعاليا عن تصيّد أخطاء الغير وفضحها وإشهارها، وأن يرقى عن نواقص الغير بل عليه أن يعين الآخرين على الترفع عن ذلك وأن يملأ قلبه تسامحا ومغفرةً وأن يكون متفهما لدوافع الغير وشخصياتهم المختلفة من شخص لآخر، وأن لا يجعل من علمه بذنب إنسان سيفا مسلّطا على رقبة ذلك الشخص، فيكون بذلك محل ثقة واطمئنان وستر للغير، فيكون هذا الخليفة داعيا لمجتمع إسلامي منظّمٍ خالٍ من الخوف والتوتر تكون الثقة عنوانه، بذلك تنمو العلاقات الإنسانية الوطيدة بين العباد التي تكون حافزا لكلّ فرد بأن يتخلص من عيوبه بستر عيوب غيره فلا يطارده الخوف من إنسانٍ آخر يعرف ما يعرفه عنه.

الغفور عليم:

إنّ مغفرة الغفور المطلق ليست عشوائية بل هي عن علمٍ مطلق بالبشر وبمن يستحقّ هذه المغفرة، فليست المغفرة درجة واحدة بل هي درجات كما أن الذنوب درجات، قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}153.

ومغفرة الغفور المطلق ليست عن غفلةٍ بل هي عن علمٍ مطلق بكلّ شيء بمن يتوب حقّا ومن يستحقّ مغفرته ومن لا يستحقّها، قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ

153 النساء 95، 96.

اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}154

الغفور قادر:

من ثمرات الإيمان بهذا الاسم:

1- اللجوء إلى الله تعالى:

فالإنسان بطبعه دائم الخطأ ولما كان كذلك فهو يحتاج لطلب المغفرة والسماح والستر من خالقه عزّ وجلّ، فلا يجد المسلم العاقل من هو أقرب من الله تعالى لمناشدته الغفران، فلا يملك هذا الأمر إلا هو وهذا أساس اللجوء إليه تعالى، فلا غفور سواه يغفر لنا ويتوب علينا، ومن هنا يدرك المؤمن الحقّ أنه لا ملجأ له سوى المولى عزّ وجلّ فيناشده بالدعاء والرجاء بأن يقبل دعاءه، قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النّاس وَاللَّهُ يُحِبّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أوّلئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}155.

2- التوكلّ عليه:

لا فلاح لمؤمنٍ دون أن يتوكلّ على الخالق عزّ وجلّ، واسم الغفور يحمل بين طياته معنى التوكلّ، كيف ذلك؟

154 المائدة 39، 40.

155 آل عمران 133 . 136.

إن الغفور المطلق لم يضع حدا لغفرانه طالما التوحيد يسكن قلب المؤمن وهذا يدعو المؤمن لأن يكون في توبته متوكلّا على الله في غفرانه لما قام به من ذنوب وسيئات.

3. الأمل المتجدد في النفوس:

كلّما ذُكِر اسم الغفور تزايد الأمل في النجاة في قلوب المؤمنين، فما من مؤمن إلا ارتكب سيئة أو ذنب لذلك فجميع المؤمنين يسعون لغفران الغفور المطلق وكلّهم أمل في نيل ذلك الغفران لأن من ضمن أسمائه التي سمى نفسه بها الغفور.

فالمغفرة تفتح باب الأمل للمذنبين قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم}156

. نشر المحبّة والرّحمة والتسامح في المجتمع المسلم:

من توصل إلى حبّ الله ورسوله وقدمّ حبّهما عما سواهما فقد امتلأ قلبه بالحبّ والخير ولا مكان فيه للبغضاء والضغينة.

واسم الغفور يُعتبر درسا للإنسان الذي استخلفه الغفور المطلق في الأرض فهو يعلّمنا أنه أكبر من أن يعذّب عبدا ما بسبب خطأ تراجع عنه وندم عليه وطلب المغفرة وتاب، وهذا بحد ذاته يعطي البشرية جمعاء درسا حيث أن الله استخلف الإنسان في الأرض ولكنه لم يتركه دون أن يعلّمه كيف يكون خليفة، وتقبّل هذا العلم والعمل به هو من أساسيات أن يكون خليفته تعالى، ولله المثل الأعلى فمثلا رب الأسرة عندما يكون أبا فإنه يسارع في تعليم أبنائه كيف يجب أن

156 الزمر 53.

يكونوا بتوضيحه لهم طرق الخير والصلاح من الشر والفساد، لكي يكبروا على ذلك، وكذلك القائد العسكري فإنه يعلم على تدريب أفراد مجموعته على كلّ ما يمكن أن يفيدهم ويمكّنهم من الدفاع عن أنفسهم وعن أرضهم فيكسبوا المعركة بقوّة عزيمتهم وثباتهم، وأيضا الأستاذ الناجح هو من يعطي تلاميذه كلّ ما هو مفيد وأساسي في حياتهم العلمية والعملية على حدٍ سواء ليتخرجوا طلبة يعتمدون على أنفسهم فيحسنون التعامل مع متغيرات الحياة بقلبٍ قوي وعزيمة وإيمان، والخالق عزّ وجلّ بما أنه العليم المطلق والخالق الأوحد والخبير بعباده فإنه يعطي لكلّ إنسان مقدار من العلم هو ما يحتاجه ويخصص له درسا يحتاج إليه ليسمو هذا الإنسان بنفسه ويرقى عن الرذائل، ويترفع عن أخطاء من حوله وهذا له الانعكاس الرائع المثمر على تركيبته النفسية والشخصية ليصبح بحقّ خليفة الله في الأرض، ولو أن كلّ فردٍ استوعب هذا الدرس في هذه النقطة فقط لوجدنا أن كلّ فرد هو بحقّ إنسان بكلّ ما تحمله الكلّمة من معنى، ولكنا قد وجدنا لغة التخاطب الوجداني البشري عالية ليكون مجتمعنا المسلم قد حقّق نموذج المجتمع الفاضل الذي دعا لوجوده الخالق عزّ وجلّ وبعث الرّسل والأنبياء كي يدعوا لهذا المجتمع، إذ أن هذا المجتمع جاء وصفه في آخر الكتب السماوية في قوله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}[157]، فالأمة الفاضلة ليست بخيال أو وهم ولكنها من الممكن أن تخرج للدنيا حينما نصل لفهم وعمق معنى أنه سبحانه

157 آل عمران 113 . 115.

وتعالى الغفور حينها نتوصل إلى الكيفية أو الوسيلة لإصلاح الكثير من أوجه حياتنا وأدوارها، فمثلا الوالدان يقومان بكلّ ما عليهما من واجبات ويعطيان كلّ ما يملكان للأبناء ويقع على عاتقهما توضيح الصواب من الخطأ في الحياة والخير والفساد، وفي بعض الأحيان نجد أن أوّل ما يخطئ الأبناء يكون خطأهم في حقّ هذا الوالدان، فهل يا ترى الوالدان بدورهما يغلقان قلبهما عن السماح والغفران؟

أبدا بل أنّنا نجدهما مستمران في العطاء فيعطيان بذلك الفرص للأبناء للتراجع والندم وكلّهما أمل في أن يرجع الابن عن هذا الخطأ ويندم ويدرك ما هو الخير والصلاح له هو لأن في ذلك سوء العاقبة لهذا الابن إذ أنّ الخالق أوصانا بهما خيرا في قوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا أمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرّحمة وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا}158، وكذلك قوله تعالى في كتابه الكريم: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}159، فالإساءة إليهما تعود بالضرر على الأبناء أوّلا وقبل كلّ شيء، فمسؤولية الوالدين على الأبناء تمنحهما حقّ السماح والمغفرة فإذا كان هذا حالنا نحن عباد الغفور الرّحيم فما بلك بالله الغفور الرّحمن الرّحيم؟

والخليفة يرى في اسم الغفور نبراسا يدله على الخير والإحسان، فيكون متسامحا ساترا لغيره وهكذا تصبح لدينا معادلة على المستوى البشري سليمة الطرفين، الطرف الأوّل الشخص الذي أخطأ في حقّ

---

158 الإسراء 23 . 25.

159 النساء 36.

نفسه أو غيره والطرف الآخر هو الذي وقع عليه الخطأ، فحين يتوب ويعترف الطرف الأوّل يجد تسامحا وغفرانا من الطرف الثاني.

والاستغفار يعود على الإنسان بالتالي:

أ- تفريج الكرب:

كما جاء في قوله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}160، ففي الآية الكريمة السابقة يتضح أنه من أهم أسباب تفريج الهم والكرب الاستغفار الصادق الذي يخرج من الإنسان المؤمن حين وقوعه في الخطأ فيفتح الله عليه بتفريج كربّه ونجاته من الهم والضيق.

ب- فتح باب النعم:

كما جاء في قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قوّة إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}161، وكذلك قوله تعالى: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كلّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}162، فالاستغفار يفتح باب النعم من الخالق على خلقه المستغفرين

160 الأنبياء 87، 88.

161 هود 52.

162 هود 1 . 4.

لاستحقّاقهم هذه النعم باستغفارهم وتوبتهم، فالنعم من أحد الأبواب التي يفتحها الاستغفار فتصيب الإنسان المستغفر، قال تعالى: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا رْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا}163.

ج – النجاة من العذاب:

قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}164.

د– استحقّاق الجنّة:

لقوله تعالى في كتابه الكريم: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حقّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}165، فمن ضمن أسباب دخول المسلم الجنّة استغفاره الذي يقربّه من الخالق عزّ وجلّ.

لذلك فعلى خليفة الله أن يكون من أوائل المستغفرين، دائم الاستغفار في الحياة فلا ينشغل بالدنيا عن استغفاره ليستحقّ أن يستخلفه المولى عزّ وجلّ في الأرض، كما جاء في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ

---

163 نوح 10 . 12.

164 الأنفال 33.

165 الذاريات 15 . 19.

يَعْلَمُونَ أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}166.

فالاستغفار واجبٌ على الخليفة وهو أصل التوبة والتقرب للمولى عزّ وجلّ، فلذلك على هذا الخليفة أن يستغفر لنفسه وللمسلمين.

ولكن متى يكون الاستغفار مقبولا ومتى يكون مرفوضا؟

الاستغفار يكون مقبولا إذا كان صادرا عن شخصٍ مسلم تائب يسعى للرجوع للحقّ، كما جاء في قوله عزّ وجلّ: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}167.

أمّا الاستغفار غير المقبول فيكون في حقّ الكافرين والمنافقين كما جاء في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آَتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

166 آل عمران 135، 136.

167 آل عمران 155.

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}168، والنفاق من شأنه أن يكون مانعا لحلول مغفرة الخالق على العبد كما جاء في قوله تعالى: {ذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كلّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}169.

إنّ مغفرة المولى عزّ وجلّ تسع كلّ شيء، وللظلم درجات كما للمغفرة درجات:

فإذا كان الإنسان ظالم قال تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ}170 فتاب سيجد الله تعالى غافر لذنبه كما في قوله تعالى: {حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} 171.

---

168 التوبة 73 ـ 80.

169 المنافقون 1 ـ 6.

170 فاطر 32.

171 غافر 1 ـ 3.

وإذا كان الإنسان ظلوما كما في قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}172 فسيجد الله تعالى غفورا كما في قوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}173.

وإذا كان الإنسان ظلّام كما في قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ}174 فسيجد الله تعالى غفّار للذنوب كما في قوله عزّ وجلّ: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا}175، فمن رحمة الله ووده بالإنسان أنه مهما تكاثرت ذنوبه وزادت سيجد الله عند توبته ذو مغفرة واسعة، فالظالم لنفسه ولغيره إذا تاب وأناب وجد الله غافر له، وإذا كان الإنسان ظلوما وجد الله غفورا، أمّا إذا كان ظلّاما أي أنّه أسرف في الذنب فسيجد المولى عزّ وجلّ غفّارا، فكلّما كان الذنب كبيرا كانت مغفرة الخالق عزّ وجلّ أكبر وأعم حين توبته فكيف لا يكون كذلك وهو الغفور الرّحيم؟ قال تعالى: {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ ربّه إِلَّا الضَّالُّونَ}176، فالإنسان بجهله يتدرج في الظلم والخالق برحمته يزداد في المغفرة إلى ما لا نهاية فلا حد لمغفرته، في حين أن ظلم الإنسان محدود في علم الله تعالى فلا يتجاوز قدر معين، فالمغفرة من عند المولى عزّ وجلّ تغلب على كلّ الذنوب طالما كان الإنسان بعيدا عن الشرك به، كما جاء في قوله عزّ وجلّ في كتابه الكريم: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا إِنْ يَدْعُونَ مِنْ

172 الأحزاب 72.

173 النساء 106.

174 الزمر 53.

175 نوح 10.

176 الحجر 56.

دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا}177، فالشرك بالله تعالى يحجب مغفرته تعالى عن الإنسان الذي لا يوحد الخالق فيموت على كفره وشركه.

لذلك فإن الخليفة من كان متسامحا غافرا لخطيئة من حوله، لا يُظْهِر إلا كلّ جميل فيمن حوله ويستر قبيحهم، ويدرك أن الله تعالى هو الغفور الذي يغفر ذنوب عباده وحده فكما أن الخليفة يحبّ أن يغفر الله له فيجب أن يغفر لغيره.

وهذا الاسم يعلّم الخليفة الحكمة على الأرض فلا يعجّل برد فعلٍ مماّثل للفعل الذي يتلقاه، وأن يصبر ويترك المجال للإصلاح، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاس وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} 178 فالآية الكريمة السابقة فيها قانون لو عملت به البشرية لوصلت إلى السعادة والأمّان وذلك بالتالي:

177 النساء 116 . 121.

178 الشورى 39 . 43.

أ- لا يتجاوز الإنسان الحد المشروع له في رد الإساءة، فلذلك قانون هو: أن لا يكون الرد بشيءٍ أكبر وأعظم، أي أن يكون العدل في استرداد الحقّوق.

ب- إن العفو والغفران أفضل درجة عند الله من معاقبة بعضنا بعضا.

ج - لا حقّ لإنسان بظلم إنسان آخر وسلب حقّوقه.

د- إنّ الصبر على الأذى ليس بالأمر الهين الذي يستطيعه أيّ كان من البشر، بل هو أمر عظيم وشاق على النفس البشرية، لذلك كانت لهم البشرى في الدنيا والآخرة عند رب العالمين كما جاء في قوله تعالى للصابرين: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجنّة وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}179.

هـ- إنّ المغفرة تأتي مع الصبر فلا يمكن لإنسانٍ عجول متهور أن يغفر ويعفو، فالصبر يضيء العقل في التفكير الصائب ولا يجعل للشيطان سيطرة على هذا الإنسان الصابر.

وهذا كلّه يعطي حافزا للخليفة ليأخذ خطوة المبادرة للإصلاح وتقديم العفو والمغفرة في نفسه عن الانتقام والعقاب، بما أن الله تعالى أعطاه الفرصة لذلك ووضّح له قانون الخلافة الحقّ، وهذا عامل مساعد على أن يكون الخليفة فردا فعّالا إيجابيا صالحا متوازنا، لأنه يحمل في قلبه دائما نقطة ضوء ونور وخير لابدّ من أن نتعاون نحن المؤمنون لكي يوسّعها ونثبّتها، فتصبح أكبر حجما لتعُم قلبه وتسكن روحه بالكامل، فالفرصة هنا التي أُعْطِيت للخليفة تجعله يسلك

---

179 آل عمران 142.

مسلكا واضحا وصائبا في الحياة وهو درب العفو والخير والمحبّة والإخاء، وأن يكونوا أسوة حسنة لغيرهم من البشر.

بذلك يتم تدريب الخليفة على أن يسير بما يرضي الله تعالى في الحياة فلا تعرف القسوة طريقا لفؤاده، ولا يتمادى في معاقبة الظالم أو المسيء، فيتعلّم ويعلّم غيره على ألا نأخذ الفرد بذنبه فور تمكننا من ذلك، بل نعطيه الفرص لكي يتراجع ويندم وأن يترك ما هو فيه، فيكون الخليفة قد أخذ بيد أخيه المسلم وستر عيوبه ومد له يد الأخوة والمحبّة وهذا بحد ذاته كافٍ لكي يكون لدى المسلمين أفضل مجتمع يستند على أروع وأنبل القوانين التي تسيّر حياتهم بالعدل والخير والمعروف.

ولابدّ للخليفة أن يكون له في رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم- أسوة حسنة عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم – يقول: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"180، فإذا كان هذا حال رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم- وهو خير الأنام والذي علّمه الله وأحسن أدبه كما في قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} 181، فكيف يكون حالنا نحن عباد الله الخطاؤون الذين يقعون في السيئة تلو الأخرى؟

لذلك فالاستغفار يفتح باب المغفرة وقبول التوبة، فليستغفر عباد الرّحمن مهما كان الخطأ صغيرا فالغفور يحبّ أن نتقرب إليه بالاستغفار والطاعة، قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ

180 معجم المناهي اللفظية، ج 31، ص 7.

181 القلم 4.

وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حقّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} 182، هذه هي صفات عباد الرّحمن الذين رضي الله عنهم فغفر لهم ما تقدم من ذنوب وقبل توبتهم وأسكنهم جناته، وهم الخلفاء يسعون في الأرض بالإصلاح والخير ويحاربون الفساد والرذيلة ولا يحبّون أن تشيع الفاحشة بين المسلمين، فليغفر كلّ ذي مقدرة وكلّ إنسانٍ يأتمر بأمره عددٌ من الخلق، فلا يكون قاسيا بل رحيما كما كان رسول الله عليه الصّلاة والسّلام في قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبّ الْمُتَوَكّلِينَ}183، فالاستغفار هو مطلب من الغفور المطلق للرسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام لأهميته بين المسلمين، فلنغفر لبعضنا البعض ونعفو فيغفر لنا الله تعالى ويعفو عنا.

إن الغفور المطلق يحبّ أن يغفر لنا وكيف لا وهو الغفور الرّحيم الذي يحبّ أن يسمع عباده التوابين الذين يتضرعون إليه ويرجون مغفرته، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلّى الله عليه وسلّم- "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ"184.

فالمغفرة صفة من صفاته عزّ وجلّ التي تقرّب العبد منه فلولا الخطأ ما كانت التوبة ولولا التوبة ما استحقّقنا مغفرة الغفور، وهذا بحد ذاته يجعل الأمل يضيء صدر كلّ مذنب خائف من عقاب المولى طاردا اليأس بعيدا.

---

182 الذاريات 15 . 19.

183 آل عمران 159.

184 صحيح مسلم، ج 8، ص 94.

فقالوا له كما جاء في الذكر الحكيم: {قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}185

عليه: كانت عقيدتهم قبل دعوة صالح تقوم على الإشراك، والإشراك هو التعدد، بمعنى أنّ ثمود كانت تدعو مع الله إلها آخر لذلك قال لهم رسولهم: (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)، وفي هذا الخطاب دلالة واضحة على أنهم كانوا يعبدون مع الله إلها آخر.

فالفساد الذي دخل عقيدة ثمود هو فساد مصدره عدم التوحيد، فكانت رسالة صالح لتشرح وتبيّن وتدلل على أن الله هو الواحد.

ومع أنَّ ثمود من الذين هداهم الهادي هدى خاص ولكنهم استحبّوا العمى على الهداية مصداقا لقوله تعالى: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحبّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)، أي؛ وأمّا ثمودُ فهديناهم هداية إرشاد برسولنا إليهم وتأييده بآية الناقة التي أخرجها لهم من الأرض.

وثمود نالت هدى الهادي الذي أرسل الرّسل للهداية، ولكن أهل الضلال استحبّوا العمى على الهدى، قال الله تعالى: {فَاسْتَحبّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}186، وحبّ العمى عل الهدى انصراف بالكلّية عن طريق الرشاد إلى طريق الفساد لا محالة ومن طريق الخلافة إلى طريق الغواية، ومن ارتضى هذا المسلك أوجب على نفسه الضلال،

185 – هود 62.

186 فصلت، 17

وابتعد عن نعمة الله التي أوجبها على نفسه في هداية خلقه إلى ما فيه خيرهم وبقائهم.

وعليه فالهدى كان برسالة وآية صالح صلّى الله عليه وسلّم التي طلبوها منه لتأكيد قوله بأنّه رسول بحجّة قوية مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآَيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ}187.

ونعتقد جازمين أنّ الهدى حصل بصالح وبرسالته وبمعجزته، وإنّ من يتبع هذا الهدى فهو مهتدٍ لا يضله شيء إلا الله، ومن لا يتبع فقد أضاع الهدى فلا يهديه هاد إلا الله عزّ وجلّ.

تبيّن الآيات الكريمة أن ثمود امتلكوا قدرات متميزة في العمران والبناء، فقد كانوا قادرين على تسخير الطبيعة من أجل تحقّيق الأهداف المعايشة الفاخرة، فالنص القرآني وصف حياة ثمود بالرفاهية مصداقا لقوله تعالى: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ}188.

ووصف بيوتهم بالقصور مصداق لقوله تعالى: (تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا)، وتأتّى هذا من عملهم فقد كانوا يجوبون الصخر بالواد كما يخبرنا العليم الخبير: {وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}189.

وينحتون الجبال، (تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا).

---

187 - الشعراء 153-155.

188 - الشعراء 149.

189 - الفج ر 9.

ثم هم بعد ذلك استغلوا السهول وزرعوها بأنواع من الزر وع والنخيل مصداقا لقوله تعالى: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آَمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ}190.

عليه: فقد كانوا من أصحاب القدرات الجسدية والمادية والاقتصادية وكذلك الفكرية، إذ لو لم يكن لديهم من الفكر شيء لما تسنى لهم تسخير هذه الموارد الطبيعية لخدمة معايشهم.

كان هناك في قوم ثمود فئة من المستضعفين ذكرها الله عزّ وجلّ بقوله: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالحا مُرْسَلٌ مِنْ ربّه قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ}191.

المستضعفون فيها دلالة إلى وقوع الضعف فيهم، أمّا لكونهم قلة، فالقلة من وجوه الضعف مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النّاس}192.

وعليه فالفريق الذي أمن من قوم صالح عليه السّلام كان على الهداية متخذا صفة الله المؤمن وثوقا لا شكّ فيه حيث لا حيِّز للظن، ولهذا فالوثوق فعل يقيني، {وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا} جعل الله تعالى الكعبة قِبلة للمسلمين يحجُّون إليها. ويحجُّون إليها تعني يبلغون فيها الأمن والسلام، وببلوغهم إياها يوثقون عهدهم طاعة وطواعية على الأيمان وهم آمنين. ولذلك قال تعالى: {إنَّ المتقين في

---

190 – الشعراء 146-148.

191 – الأعراف 75.

192 – الأنفال 26.

مقام أمين}193. أي في مكانٍ أمين لا وجود للضرر ولا مكان للخوف فيه.

قال تعالى: {إنا عرضنا الأمّانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقنا منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا}194 روي عن ابن عباس وسعيد ابن جبير أنهما قالا: "الأمّانة هي الفرائض التي أفترضها الله على عباده"195.

قال الزجاج: صفة المؤمن بالله أن يكون راجيا ثوابه، خاشيا عقابه. وعن ابن عمر قال أتى رجل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال من المهاجر؟ فقال من هجر السيئات. وقال من المؤمن؟ قال: من أتمنه النّاس على أموالهم وأنفسهم196.

والأمّانة التي عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها وأشفق منها هي المسؤولية التي حمْلها الإنسان، والمسؤولية التزام بالطاعة وعدم المعصية، طاعة الله واحد أحد لا شريك له، ولذا فإن الأمّانة عبء كبير ومن ورائها منافع أكبر فمن كان أمينا وحريصا عليها كانت له الخلافة، ومن لم يستطع فلن يكون خليفة على الأمّانة.

ولثقل عبء الأمّانة التي التزم الإنسان أمّام ربّه تعالى بحمْلها لم يُوفِّق في حمْلها بالتمام، فكان التقصير من بعضه، وكان الشرك من بعضه، وكان الظلم وقتل النفس التي حرَّم الله، وكان الفساد في

---

193 الدخان 51.

194 الأحزاب 72.

195 لسان العرب المحيط، ج1، ص 108.

196 المصدر السابق، ص 108.

الأرض، وكان أكلّ أموال النّاس بالباطل، وكان قول الزور متمشيا مع شهادة الزور، وكان الزنا مع المحرمات، والكثير من المعاصي وعدم الالتزام. وهذا لا يعني أن الكلّ على هذه الشاكلّة، بل هناك الأنبياء والرّسل صلوات الله وسلامه عليهم، وهناك الصالحون رضي الله عنهم الذين يعملون على إصلاح ما يُفسده المخالفون، وهناك المجاهدون الطائعون، وهناك الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وهناك المتصدِّقون والمزكُّون والقائمون بأعمال الخير والإحسان، وهؤلاء هم الذين إذا أقسموا بالله لأبرَّهم، فالحمد لله ربِّ العالمين. ولهذا كان الانقسام والخلاف بين الذين ثقلت موازينهم والذين موازينهم خفَّت. {فأمّا من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأمّا من خفت موازينه فأمه هاوية}197.

ولأن الميزان هو أساس القسط، فكان الاستخلاف هو الأمّانة التي بها ثقلت الموازين، قال تعالى: {وعد الله الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمكِّنَّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليُبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأوّلئك هم الفاسقون}198

تؤكد هذه الآية الكريمة على أنّ الاستخلاف في الأرض هو للذين أمنوا، ولهذا قال تعالى: (وعد الله الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات) فالذين أمنوا منكم، لا تعني الذين لم يؤمنوا منكم. ولذا كان الاستثناء في استخلاف الأرض يخص الذين أمنوا، ولا يعمَّ الذين كفروا ولا يخصَّ الذين لم يعملوا الصالحات. ولذلك فالاستخلاف

197 القارعة 6 . 8.

198 النور 55.

خاصية ترتبط بالمؤمن وبالذين يعملون الصالحات، والعمل الصالح بطبيعته عمل المؤمنين، فهؤلاء هم الذين أراد الله تعالى استخلافهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم (ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم). وعليه فكلّمة منكم، تعني بعضكم وليس عمومكم، ولأن النّاس لم يؤمنوا بعد جميعا، فلن يكونوا بالعموم خلائف.

قال تعالى: {فلمَّا تجلى ربّه للجبل جعله دكا وخر موسى صعق فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين}[199] فبعد أن رأى موسى عليه الصّلاة والسّلام آية دك الجبل صُعِقَ موسى صلّى الله عليه وسلّم، ولما آفاق، (قال سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين) فأوّل المؤمنين تعني أوّل المصدقين الذين نُزِعَ الشك والظن من صدورهم، تسليما بما يقوله الله تعالى، وإيمانا تاما بأنه هو الله، وقوله الحقّ سبحانه لا شريك له.

ولهذا فقول موسى صلّى الله عليه وسلّم (تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين) تعني أنا أوّل خليفة بعد أوّلئك الذين سبقوني بالإيمان مصداقا لقوله تعالى: (كما استخلف الذين من قبلهم). وبما أنَّ الله قد استخلف سابقين، فهو بطبيعة الحال يستخلف حاضرين وسيستخلف من بعدهم لاحقّين حتى النهاية، ولهذا جعل الله تعالى في الأرض الخلائف في حالة اتصال وتعاقب عبر الزمن، أي أنَّ أبواب الاستخلاف مفتوحة دائما لمن يهتدي، ولأن أبواب الاستخلاف مفتوحة عبر الزمن، لذا فإن عدد المؤمنين دائما في حالة ازدياد دائم حتى النهاية فالحمد لله ربِّ العالمين.

199 الأعراف 143.

ومن عرف أن الله سبحانه وتعالى هو المؤمن لم يطلب الأمن والاستقرار للناس في حياتهم الدنيا إلا في شرع الله وعلم أن أهواء البشر ونظراتهم العاجلة القاصرة لا تنتج إلا فسادا وخللا واضطرابا قال تعالى: {وَلَوِ اتَّبَعَ الحقّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ}200 فلا أمن في العالم إلا وهو مستفاد بأسباب تفرد الله تعالى بخلقها والهداية التي استظل بها قال تعالى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كلّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}201.

وحظ العبد من اسم ربّه (المؤمن) أن يكون أمينا على نفسه وماله وأن يتخلق بالأمّانة والصدق فالمؤمن لا يكذب ولا يسرق ولا يزنى ولا يرتكب شيء من الفواحش بل يتقي الله ربّه في كلّ شيء يقوله أو يفعله، ويهدي للتي هي أحسن، {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}202.

واسم المؤمن في الشرع "فالعلماء قد عبَّروا عن هذا الاسم بعبارات مختلفة فمنهم من ذهب إلى أن المؤمن يعني الذي يؤمِّن خلقه من ظلمه، كابن جرير، بينما ذهب الزجاجي وابن كثير والشوكاني إلى الجمع بين معنيين:

أحدهما: أنّه الذي يأمن عباده من بأسه وعذابه.

200 المؤمنون 71.

201 طه 50.

202 الإسراء 53.

وثانيهما: أنّه المصدق عباده المؤمنين"203.

قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ}204 تنص هذه الآية صراحة على أن المؤمن اسم من أسماء الله الحسنى، وجاء في هذه الآية اسمه مرتبا بعد صفة الملك والقدوس والسلام، وهذا الترتيب المنظم يدل على:

أوّلا: تأكيد صفة المؤمن على ما سبقها من صفات لله تعالى.

ثانيا: احتوى صفة المؤمن على ما سبقها من الصفات الحِسان.

ثالثا: تفتح صفة المؤمن آفاق واسعة أمّام الصفات التي تليها.

ولهذا اسم الله تعالى لا يتعدد وصفاته متعددة.

ويقول الدكتور محمّد بكر إسماعيل: "لاسم المؤمن معنيين:

المعنى الأوّل: "أنه الذي آمن بنفسه وشهد بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، وثنى بشهادة ملائكته فكانت شهادتهم عبادة له وتنزيها لذاته، وهي شهادة مبنية على شهادة الله تعالى، ثم تلي ذلك بشهادة أوّلي العلم وهم المؤمنون بالوحدانية الإلهية يقينا"205 وذلك مصداقا لقوله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}206.

---

203 مشرف ألغامدي منهج الأمام ابن القيم الجوزية في شرح أسماء الله الحسنى. الرياض. دار أبن الجوزية الطبعة الأولى 2005، ص 283.

204 الحشر 23.

205 محمد بكر إسماعيل أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها. القاهرة، دار المنار الطبعة الأولى 2000 ص 31.

206 آل عمران 18.

والمعنى الثاني للمؤمن: "هو الذي يؤمن للمؤمنين. أعني: يستجيب لهم إذا استجابوا له"207. وفي ذلك قال الله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}208. فليستجيبوا لي تعني: أن لا يعصوا أمري الذي هو من أجلهم، وليس من أجلي، فالله عزّ وجلّ لم يكن في حاجة لأحد، بل هو الذي كلّ أحدا في حاجة إليه، فكلّ قول من الله تعالى هو من أجل من قيل له القول. فالله تعالى لم يكن في حاجة، بل الذي في حاجة هو الذي يجوع ويظمى، ولأنه مالك كلّ شيء فهو الذي لم يكن في حاجة لأي شيء، بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير.

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه"209.

وقال أبي حامد الغزالي: "أحقّ العباد باسم المؤمن من كان سببا لأمن الخلق من عذاب الله بالهداية إلى طريق الله والإرشاد إلى سبيل النجاة. وهذه حرفة الأنبياء والعلماء"210.

بناء على ما تقدَّم علاقة قوية بين اسم المؤمن والفعل الإيماني، وذلك من حيث إنَّ اسم المؤمن هو المصدر للفعل الإيماني، أي لو لم يكن المؤمن ما كان للإيمان فعلُ، وبما أنَّ للإيمان فعل، إذن فمن يعمل

---

207 أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها. مصدر سابق، ص 31.

208 البقرة 186.

209 أبي حامد الغزالي المقصد الأسنى ف أسماء الله الحسنى. بيروت ـ دار الكتب العلمية، ص 49.

210 المصدر السابق، ص 49.

على الأخذ به وتأكيده فهو المؤمن، وإلا هل يُعتقد أن يتم الأخذ بالفعل الإيماني من غير المؤمن؟ ولذلك من يتخذ من الصفة أفعالها يتصف بها.

وبما أنَّ الأمّانة عبء، والعبء ثقل ليس هينا، ومن ورائه مسؤوليات جسام، فمن الذي يتطوع لحمْله؟ الواثق هو الذي يتقدم متطوعا لحمْله، أمّا غير الواثق فلا يتقدم، ولهذا عبء الأمّانة لا يحمله إلا الواثقون، الذين هم يتصفون بالخلائف.

المؤمن هو المصدق، قال تعالى: {قالوا يا أبانا إنَّ ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكلّه الذئب وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين}[211] وما أنت بمؤمن لنا تعني: وما أنت بمصدق لنا، وجاءها التأكيد عليها بقولهم: (ولو كنا صادقين) التي تحمل في مضمونها الاعتراف من قبلهم بعدم صدقهم فيما يقولون. ولهذا قالوا ولو كنا صادقين ولم يقولوا ونحن صادقين.

وعليه، فالمؤمن هو الصادق، الذي لم يدخل قاموسه الكذب من قريب ولا من بعيد. ولهذا (وما أنت بمؤمن لنا)، تدل أيضا على انعدام الثقة فيهم في أمر يوسف. وهذا الأمر هو الذي يجعل من أمر المؤمن أمر وثوق. ولذلك قلنا أنَّ المؤمن هو: الواثق. ولذا فهو الصادق فيما يقول، ولأنه كذلك فالمؤمن كلّما استمع أو قراء قولا من قول الله تعالى قال: صدق الله العظيم، وهذا القول هو التصديق من المؤمن بالإضافة للمؤمن الحقّ. ولأن المؤمن هو الواثق، قال جلا

211 . يوسف 17.

جلاله: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}212.

والمؤمن الحقّ هو المسلَّم بأمره، والمؤمن بالإضافة هو المسلِّم بالمؤمن الحقّ. والإيمان هو التسليم، {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آَمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرِبّه فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا}213 فآمنَّا به تعني: سلمنا به وصدقناه، ولهذا فالمؤمن لا يخاف في الحقّ أحدا. وبما أنَّ المؤمن لا يخاف في الحقّ أحدا، إذن أمر التسليم حقّ، ولأن أمر التسليم بالحقّ حقّ، لذا فالإيمان بالحقّ أمر تسليم، ولهذا جاء قوله تعالى: (وإنّا لما سمعنا الهدى أمنَّا به) أي أصبح فعل الإيمان أمرا نافدا في زمن الاستماع للهدى دون انتظار أو طلب استشارة من أحدٍ. ولذلك لما يدخل الإيمان في القلوب تصبح الحقّيقة هي البينة، {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}214. يقول القرطبي: "نزلت هذه الآية الكريمة في أعراب بني أسد بن خُزيمة قدموا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، في سنة جَدْبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السر، فكانوا يقولون للرسول صلّى الله عليه وسلّم: أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة؛ وجعلوا يمنُّون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. وقال ابن عباس: نزلت في أعراب أرادوا أن يتسمُّوا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين"215.

---

212 الأنعام 82.

213 الجن 13.

214 الحجرات 14.

215 القرطبي الجامع لأحكام القرآن. دار الكتاب العربي، ج 16، ص 348.

بناء على هذه الآراء فإن مكمن الحقّيقة هو القلب، أمّا اللسان يقول كلّ شيء فهو يقول الحقّ كما يقول الباطل، أمّا القلب فهو المكين للحقّيقة. والمكين هو الحافظ للحقّيقة سواء كانت سالبةً أم موجبةً. ولكن إظهار الحقّيقة ليس بالأمر الهين، فهو دائما في حاجة للتقصي الدقيق والمتابعة الواعية، ولذا يستند البحث العلمي على التقصي في إظهار الحقّائق من الباطن إلى الظاهر، وهذا التقصي هو الذي يُمكِّن البُحَّاثة من بلوغ الحقّيقة هي كما هي، لا هي كما ينبغي أن تكون من وجهة النظر الخاصة.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ}216 وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ}217. في الآيتين السابقتين كانت المخاطبة مباشرة للمؤمنين، إلا أن الآية الأوّلى حددت بمن يكون الإيمان، وهو: الإيمان بالله والرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم، والكتاب القرآن الكريم، والكتاب الذي أنزل من قبل، وهو الذي يستوجب التصديق بالكتب التي نزلت على الرّسل الذين كان محمّد ورسالته الخاتمين لكلّ رسول ولكلّ رسالة. ولهذا نحن لا نفرق بين أحدٍ من رسله صلوات الله وسلامه عليهم، وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

وفي الآية الثانية جاء الأمر للمؤمنين كافة أن يدخلوا السلم، وجاء النهي أيضا لهم كافة أن لا يتبعوا خطوات الشيطان. ولذلك فالعلاقة قوية بين المؤمنين والسلم الذي كما سبق أن بينا هو المستمد من اسمه

216 النساء 136.

217 البقرة 208.

السلام. ولأن المؤمن هو الذي يؤمن بالسلام عزّ وجلّ، فبطبيعة الحال أن يكون داخلا في السلم والسلم خير.

المؤمن هو: الموثوق فيه، أي أنه محل الثقة المطلقة، والمؤمن بالإضافة هو المتَّبع التزاما لكلّ ما جاء به المؤمن الحقّ، تسليما بالقول، وتسليما بالفعل، حتى يتماثل الباطن مع الظاهر (السر مع العلانية). ولذلك تغرس الثقة في المؤمن بالإضافة بعد المعايشة والمرافقة والتجريب معه في القول والفعل اللذين بتطابقهما مع الصدق ينالان الثقة. ولذلك يعد المجرَب هو الذي عُرِف عنه قول الحقّ وفعل الحقّ ممّا يجعله محل ثقة بين النّاس.

وعليه فالمؤمن المطلق هو الذي جاء بالإيمان بدين الحقّ الذي آمن به المؤمن المضاف حتى اتصف به قولا وسلوكا.

آمن به تعني: وثق به وصدَّقه، حتى اعتقده حقّيقة، ولذا فالإيمان هو الوثوق والتصديق والتسليم. وفي ذلك يقول الشيخ محمّد متولي الشعراوي: "من آمن بالله اعتقده حقّيقة، فآمن بوجوده وبصفاته التي وصف بها نفسه في كتابه، وعلى لسان نبيه عليه الصّلاة وأتم التسليم"218.

ويتساءل الشعراوي بقوله: ما المقصود (بالمؤمن) حين يكون اسما ووصفا للحقّ تبارك وتعالى؟

ويجيب: المؤمن كوصف من أوصاف الله عزّ وجلّ له معانٍ متعددة. منها أنه تبارك وتعالى مؤمن بكلّ ما دعانا إلى الإيمان به، فهو مؤمن بأنه موجود، ومؤمن بأنّه موصوف بصفات الكمال

---

218 محمد متولي الشعراوي أسماء الله الحسنى. القاهرة، أخبار اليوم قطاع الثقافة، ص 159.

المطلق، ومؤمن بأنه واحد أحد، ومؤمن أنّه لا إله سواه"219. وفي ذلك قال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}220.

الإيمان خير، والمؤمن هو الخيّر، ولذا فمن يُريد خيرا فعليه بالإيمان، ومن يريد شرا عفانا الله فليس له من غيره، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس قَدْ جَاءَكُمُ الرّسول بِالحق مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}221 فقوله تعالى (فآمنوا خيرا لكم) دليل إثبات أن الإيمان هو الخير في ذاته ولهذا ارتبط بذات الله العلية، وفي مقابل ذلك ينفصل الشر عن ذاته ويرتبط بفاعله.

قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النّاس إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}222. هذه الآية رسالة من الله تعالى إلى النّاس جميعا، يُطلب فيها الإيمان به وبرسوله محمّد النبي الأمي، الذي آمن بالله وكلّماته وهو الذي له ملك السماوات والأرض وحده لا شريك له، يحيي ويميت وهو على كلّ شيء قدير.

وقد يظن البعض متسائلا كيف يكون هو الرّسول من عند الله تعالى ويقول آمنوا بالله ورسوله النبي الأمي، وفي هذا النص يشير مباشرة لنفسه (النبي الأمي)؟

---

219 المرجع السابق، ص 160.

220 آل عمران 18.

221 آل عمران 179.

222 الأعراف 158.

هذه الآية نصا تاما من عند الله تعالى، وما الرّسول إلا مكلّفا بتبليغها هي كما هيَّ دون زيادة ولا نقصان، فالله تعالى هو الذي قال النص التام لهذه الآية الكريمة، وهو الذي وصفه بالنبي الأمي ولم يصف نفسه بذلك، وبهذا الوصف الرّباني يُبرئ الله سيدنا ونبينا محمّد صلّى الله عليه وسلّم من أي اتهام أو ظن، مؤكدا أنَّ الرسالة التامة هي من عند الله وليس للرسول فيها من شيء إلا البلاغ، وبهذا أكد الله تعالى على أن الرّسول أمي أي لا علم له بأمر الرسالة لو لم يُعلِمه الله بها ويُعلِّمه علمها ويُكلّفه بالتبليغ.

ولذا فإن الرّسول من بعد الرسالة لم يكن أميًّا، فهو الذي يُبيّن ويفسِّر ما علَّمه الله، فالرّسول قبل الرسالة بحقّ كان أميا بأمرها، أمّا من بعدها فقد علَّمه الله عزّ وجلّ بعلم الرسالة، فالرّسول صلّى الله عليه وسلّم لو لم يعلم أنَّ الله على كلّ شيء قدير ما آمن به، ولو لم يعلم علم اليقين بأنه الحقّ ومنه الحقّ ما اصطفاه الله رسولا له، ولو لم يكن كذلك قادرا على حمْل ما كلّفه بحمله ما حمِلَ الرسالة وبشَّر بها ودعا إليها وحرَّض على ما تأمر به، ولو لم يكن كذلك ما كان المرجعية التي يعود إليها جميع المسلمين {وَمَا آتَاكُمُ الرّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[223] وقوله تعالى: {لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفي بِاللَّهِ شَهِيدًا}[224] فأنزله بعلمه الذي عَلِمهُ محمّد أوّلا وبشر به ثانيا، ولأنه قادر على ذلك، صلّى الله عليه وسلّم، وطلب منَّا الصّلاة والتسليم عليه فالحمد لك والشكر لك لا شريك لك

223 الحشر 7.

224 النساء 166.

والصّلاة والسّلام على من أمرتنا بالصّلاة والسّلام عليه سيدنا ونبينا محمّد عليه الصّلاة وأتم التسليم.

وورد في الآية الكريمة بلاغان: بلاغ عن الرّسول، وبلاغ به: فالبلاغ عنه: أنه آمن بالله وكلّماته. والبلاغ به: أنه المكلّف بإبلاغ النّاس أن يؤمنوا بالله وبرسوله النبي الأمي، وإتباعه مع أفضل التمنيات بالهداية.

وعليه، فالإيمان في هذه الآية جاء رباعي الأبعاد:

البعد الأوّل: إيمان الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بالله تعالى.

والبعد الثاني: طلب في صيغة أمر بأن يتم الإيمان بمن آمن الرّسول به وهو المؤمن.

البعد الثالث: أن يتم التسليم والإيمان بالرّسول الأمي محمّدا رسول الله عليه الصّلاة وأتم التسليم.

البعد الرابع: إتباع الرّسول أي الأخذ بسنته حتى تتم الهداية لِما يأمر الرّسول به.

وعليه من يؤمن كان الخليفة، ومن يكفر فلن يكون من الخليفة في شيء.

قال أحمد عبد الجواد في كتابه ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها: "المؤمن هو الذي يفزع إليه الخائف فيؤمِّنه، فلا أمن ولا أمّان إلا منه. وقال: من اسم المؤمن أشتق الأمن والأمّانة، واشتق اسم العبد المؤمن"225.

225 أحمد عبد الجواد ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها. الدار البيضاء، دار الثقافة ص 40.

ولذا فإن اسم المؤمن هو الأصل، وما يشتق منه تابع له، فالمؤمن بالإضافة مشتق من المؤمن الحقّ، وهو في هذه الحالة متماثل في اشتقاقه مع اشتقاق الأمّانة والأمن والأمّان من اسمه.

والأمّان عهد على حقّ، ولذا فالحقّ هو الذي جعل عهد الله هو العروة الوثقى التي لا انفصام لها. {أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ}226.

والمؤمن هو الذي لا تردد في أمره، فإذا أراد شيئا قال له كن فيكون.

قال تعالى: {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النّار وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الجنّة وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}227 جاء الخير من الإيمان وهو عدم الخيانة، ولذا فبمقارنة خائن ولو أعجبك بمؤمن لا يخون حتى ولو كان عبدا، فإن الاختيار يقع في حالة الأمر الجد على من لا يخون. ولهذا فالخائن لا أمّانة له، ولا ثقة فيه، ولا سكنا معه ولا طمأنينة.

قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}228. لما سمع صحابة رسول الله هذه الآية الكريمة قالوا للرسول صلّى الله عليه وسلّم: "أيّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "ليس هو كما تظنون إنّما هو كما قال

226 القصص 31.

227 البقرة 221.

228 الأنعام 82.

لقمان لأبنه: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}"229.

فالذين أمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، هم المؤمنون حقّا الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فهم الذين لم يصاحبّهم ظنا بما أمنوا به، وهم الذين لا يقولون إلا ما يفعلون، ولذلك فهم المؤمنون، ولأن المؤمنين هم جمع مؤمن، لذا فهم القوّة المجمَّعة بقوّة الإيمان التي بها يضمنون الأمن وهم مطمئنون مهتدون بمعرفة تامة إلى ما يجب إتباعه، وإلى ما يجب اجتنابه، وهؤلاء هم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وهذا الحال هو بالتمام حال أمر الخليفة، الذي آمن بالله ورُسُله وكُتبه وملائكته، أمّا حال أوّلئك البعض من الذين لم يؤمنوا بالوحدانية الإلهية ولم يؤمنوا بجميع الرّسل والكتب والملائكة، وخانوا الله والرّسول وأمّاناتهم، فهم لم يكونوا من الخليفة في شيء، والأمر الذي جعلهم من المستثنين هو عدم إيمانهم، ولذا لو لم يؤمن النّاس ما جعل الله في الأرض خليفة.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرّسول وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}230 قيل إنها نزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بني قريظة بالذبح. قال أبو لُبابة: "والله ما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله، فنزلت هذه الآية. فلما نزلت شدَّ نفسه إلى سارية من سوار المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله عليَّ، وبقي على هذا الحال

229 القرطبي الجامع لأحكام القرآن الكريم، الجزء السابع، ص 30.

230 الأنفال 27.

سبعة أيام حتى خر مغشيا عليه، فجاءه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فحله بيده"231.

في هذه الآية الكريمة نهى الله تعالى عن ثلاث خيانات: خيانة الله تعالى، وخيانة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وخيانة الأمّانات. والنهي عن الخيانة هو نهي عن ارتكاب الأفعال الفاقدة لمعاني الصدق، ولذلك فالقاعدة هي الصدق (قول الحقّ وفعل الحقّ)، والشذوذ الكذب (خيانة قول الحقّ وفعل الحقّ واستبداله بالقول الزور والفعل الزور).

الأمّانات في هذه الآية جاءت غير محددة، ممّا يستوجب تعددها إلى النهاية، فالأبوة أمّانة، والأمومة أمّانة، والأخوة أمّانة، والعمومة وذي القربى أمّانة، والجيرة أمّانة، وممّارسة الحقّوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات أمّانات، التعلم والتعليم أمّانة، العمل والإخلاص فيه أمّانة. العهد أمّانة، الإيمان أمّانة، الفرائض أمّانة، قول الحقّ وفعل الحقّ أمّانة، وغيرها من الأمّانات كثير، وفي مقابلها الكثير من الخيانات، فالزنا خيانة، وشهادة الزور خيانة، الشك بالله خيانة، بيع الوطن خيانة، هتك العرض خيانة، أكلّ أموال النّاس بالباطل خيانة، إتباع المنهي عنه خيانة، وهكذا تتعدد الأمّانات والخيانات على كفتي العدل إلى النهاية.

ولذلك فإن اسم المؤمن اسم الوثوق، الذي لو لم يكن اسمه المؤمن ما كان لنا الدليل على صدق ما يُقال، فالمؤمن اسم عهد على الإيمان، ولذا فالإيمان هو دليل وثوق المؤمن من ذاته ونفسه وقوله

231 مواهب الجليل من تفسير البيضاوي، ص 230.

وفعله. فالإيمان عهد لا ينفصم، وقسم لا يحنث، إنه الرسوخ والثبوت على الحقّ بقوّة الحجّة.

اسم المؤمن اسم يقيني، {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}232. هذه الآية الكريمة دليل إثبات أمّام الأبصار والعقول، ولقد جاءت شاهدا على الإيمان، (قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) أي بلى آمنت ولكن لأرى الحقّيقة، وليرى غيري ومن يتم استخلافه من بعدي أنَّ الإيمان حقّ. فالعلاقة قوية بين ما تراه الأبصار وبين ما يَستقرُّ في القلوب ليُعمَّر. ولذلك فمن يريد أن يرى الله فعليه بملاحظة امتداد قوته بين الحركة والسكون. فالطيور الأربعة التي تم أخذها هي في حالة حركة، وبعد أن قُطِّعت إلى أجزاء متفرقة أصبحت ساكنة لفقدانها الحياة التي بانعدامها تنعدم الحركة بالنسبة للميت، ولأن خالق الحياة والموت حيا لا يموت وبيده الأمر، أعيدت الطيور الأربعة إلى الحركة الحية آية بين أيدي الخليفة الذي عندما سُأل: أوّلم تؤمن قال: بلى. وبما أنه أجاب ببلى، فهو المؤمن بدون ظن. وبما أنه المؤمن بدون ظن، إذن فلماذا إبراهيم يسأل ربّه تعالى؟

تتلخص هذه الآية الكريمة في دعوة إبراهيم ربّه تعالى، واستجابته له كانت القوّة الماثلة أمّامه وبين يديه، فاطمأن قلب إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم باستجابة ربّه تعالى حتى أزيل الشك عنه. وبهذه الاستجابة الشاهد عيان انقطع الشكّ من قلب إبراهيم عليه الصّلاة

232 البقرة 260.

والسّلام، وعرف أن ربّه سيكون مجيبا دعاءه كلّما دعاه. وفي الوقت ذاته كانت الاستجابة قوّة حجّة وستظل شاهدا عبر الزمن لمن يُؤمن بالله والرّسل والأنبياء.

ولأنّ المؤمن الحقّ هو الذي يُصدِّق عباده ووعده، جاء تصديقه بالاستجابة لدعوة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، حتى اطمأن قلبه بالإيمان.

أوّلم تؤمن جاءت استغرابية استفهامية. فالله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وجعل الليل لباسا والنهار معاشا، هو الذي تساءل بقوله تعالى: (أوّلم تؤمن) أي أوّلم تؤمن وأنت تعرف أنك تجوع وأنا الذي أطعمك من الجوع، وأنت الذي تظمى وأنا الذي أروي ظمأك بالماء الذي جعلت منه كلّ شيء حيا، وأنت الذي في حاجة للجنس، وأنا الذي شرَّعت لك الحلال منه، وأنت الذي تخاف وأنا الذي آمنتك من الخوف، وأنت الذي تغضب وأنا الذي جعلت الفرحة تملأ صدرك، أنت الذي تظلم وأنا الذي جعلت العدل فيك حبّ وغرست الكره في كلّ المظالم، وأنت الذي تقتل وأنا الذي حرَّمت قتل النفس بغير حقّ، وأنت الذي من بينك كفرة وأنا الذي جعلت الإيمان حقّ لمن يريد أن يكون الخليفة

وبناء على ما ورد في هذه الآية علينا أن نفرّق بين الظن والشك: فالظن ضعف وذلك بمصاحبّة الإثم له في بعض الأحيان، والشك قوّة تفكير من أجل الإدراك الواعي. ولذا فبالشك يتم التفكُّر والتذكُّر وبه يتم تصحيح المعلومة الخاطئة بالمعلومة الصائبة. {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ

رَكَّبَكَ}233. وقال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}234. الله عزّ وجلّ لم يكن له شكلّا أو جسما ليُنظر إليه أو تراه الأبصار، فهذا الأمر في غير محله.

الله واحد أحد في ذاته، والإنسان صورة في جسد، ولهذا ليس لذات الله شكلّا ولا صورة حتى يكون قابلا للمشاهدة أو الرؤية العينية، بل هو الكلّ الواحد الأحد الذي لا يمكن أن يتمكن أحد من رؤيته، مع انه يتمكن بكلّ يسر من إدراكه. ولذا عندما قال موسى صلّى الله عليه وسلّم ربِّ أرني أنظر إليك. قال: لن تراني. أي لن تراني كما يتهيأ للبعض بأني في صورة أو شكلّ ممّا يعرفون، بل إذا أردت أن تراني قوّة فأنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني، ولأن الجبل بقوّة الله لم يستقر في مكانه، إذن فبطبيعة الحال لن يرى موسى عليه الصّلاة والسّلام ربّه تعالى، ولكنه يدركه حقّيقة. إنه هو الذي بيده القوّة التي جعلت الجبل دكا، وجعلت موسى يخر صعقا. وهذه الآية القوّة هي التي جعلت موسى بعد أن آفاق يقول: (سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين).

وعليه يقول الشيخ سعيد ابن على ابن وهف: "المؤمن هو الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي

---

233 الانفطار 6 . 8.

234 الأعراف 43.

أرسل رسله، وأنزل كتبه بالآيات والبراهين، وصدَّق رسله بكلّ آية وبرهان"235.

المؤمن الحقّ هو مصدر القوّة المطلقة، والمؤمن بالإضافة هو الذي يستمد قوته من المؤمن الحقّ، وهو الذي يُسلِّم به تسليما تاما لا ظن فيه. ولذا فإن اسم المؤمن بالإضافة هو اسم تسليمي، يؤمن بما أنزل ولا يعصي لله أمرا.

واسم المؤمن بالإضافة اسم تعبدي، بعد أن يتم التسليم بالله ورُسُله وكتبه وبكلّ ما أمر به ونهى عنه يصبح الإيمان فعل إضافة لفعل التسليم، ويصبح المؤمن في هذه الحالة هو الذي يملأه اليقين مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}236.

والأمن نقيض الخوف، فمتى ما حلَّ الأمن نُزِعَ الخوف، وهذا يعني أن الإيمان هو بيت الاستقرار والسكينة الذي به تطمئنَّ القلوب. وبما أنَّ الإيمان هو بيت السكينة والاطمئنان، إذن إذا أريد للأمن أن يستقر في القرية الصغيرة فلا مفر من المؤمن الحقّ إلا المفر إليه وحده لا شريك له بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير. وإن لم يتم ذلك لا يمكن للفتن أن تزول، ولا يمكن للحقّد والمكائد أن تزول، وبما أن الأمر كذلك فستظل الفتن والمكائد والصدامات والحروب إلى أن تتم العودة إليه بدلا من المفر منه مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}237.

---

235 سعيد ابن على ابن وهف شرح أسماء الله الحسنى. ف ضوء الكتاب والسنة. بيروت، دار ابن حزم 2003. ص 92.

236 الحجرات 14.

237 الكهف 80.

وبما أنَّ الإيمان هو المشتق من اسم المؤمن، وهو بيت السكينة والاطمئنان، إذن فمن آمَنَ بالمؤمن آمِنَ نفسه من الجوع والخوف {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}238. وعليه فمن أراد ألا يكون من الخائفين فعليه بالإيمان. {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}239.

وبما أنّه لا أمّان إلا منه. إذن فالإيمان به هو الممكن من الإيمان منه. ولذا فمن أراد أمّانه فعليه بالإيمان به واحد أحد لا شريك له. والإيمان في هذه الحالة هو عهد قطعي لا رجعة من بعده ممّا يستوجب اللجوء إليه دون غيره، حيث لا أحد غيره يطعم من الجوع ويأمن من الخوف. وإلا هل هناك من يضمن ذلك ويؤتمن جانبه إلى الابدّ غيره؟ الإجابة تكمن في قوله تعالى: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}240.

بالرغم من وضوح القوّة والمقدرة الإلهية على الفعل المطلق، إلا أن المؤمن رءوف بالذين يرثون الأرض، فلم يصبهم بذنوبهم التي بها يفسدون في الأرض التي استخلفهم الله فيها ليصلحوا. والفرق كبير بين ورثة الأرض وبين الاستخلاف فيها: فورثة الأرض حقّ معيشة عام لا استثناء فيه. والاستخلاف في الأرض بابه مفتوح للجميع ولكن لا يدخله إلا مؤمن (مصلح). ولذا قال الله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ

238 قريش 4.

239 الرعد 28.

240 الأعراف 97 . 100.

أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} 241 دائما الفساد يؤدّي إلى النهاية غير الحسنة، فأخذناهم بما كسبوا تعني بما عملوا من مفاسد في الأرض. فالأرض التي خلقها الله وجعلها كنز وافر في الحياة الدنيا، العيش فيها حقّ للجميع {المؤمن وغير المؤمن) وبالتالي لا يحقّ الإفساد فيها حتى لا يحرم أحد من ورثتها من العيش الآمن، ولذا فمن يُفسد فيها يكون العذاب جزاءه في الدار الآخرة. ولأن مَن يملك الكلّ يملك الجزء، فالله خلق الأرض ليرثها الجميع، ولكن إذا أراد أن يُملّكها لعباده الصالحين فهو القادر متى ما يشاء وكيفما يشاء، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} 242.

فالعذاب والعقاب لا يأتيان إلا لملاحقّة خيانة، ولهذا فالقاعدة: الإباحة هي الحلال، والاستثناء هو التحريم والنهي، ولذا فكلّ ما يقع من خيانة هو خروج من دائرة الإباحة الحلال ودخول إلى دائرة الاستثناء (الممنوع والحرام). فالفساد في الأرض منهي عنه وهذه قاعدة تستوجب الاتباع، فمن يُفسد فيها يُخِلّ بالقاعدة ويدخل دائرة الاستثناء، وبناء على القاعدة والاستثناء فإن المصلحين فيها هم الخلفاء، والذين يعيشون عليها هم الورثة.

وعليه، قد يتساءل البعض: بما أنّ الإباحة هي القاعدة، والتحريم هو الاستثناء من القاعدة، وأن الوجود مؤسس على القاعدة والاستثناء، فهل هذا دليل إثبات انعدام المطلقية؟ لا مطلق إلا من عند الله، وهذه قاعدة. ولا استثناء إلا من عند المخلوق وهذه قاعدة.

---

241 الأعراف 96.

242 الأنبياء 105.

وقد يتساءل آخر: بما أنَّ المخلوق هو في دائرة الاستثناء، فكيف لنا بالمطالبة أن يكون متمسكا بالقواعد؟

الإنسان مع أنه خُلق في أحسن تقويم إذا ما قورنا بغيره من المخلوقات الأخرى، إلا أنه لم يُخلق على الكمال، فهو الذي يُفكِّر ويتذكر في وقتٍ واحد (يُفكر في مستقبله، ويتذكر ماضيه) ومع ذلك لن يستطيع أن يفكر في كلّ شيء مهما فكَّر، فأي شيء يقع في دائرة المطلق، ولن يستطيع أن يستدعي كلّ ماضيه مهما تذكَّر، فالماضي بالتمام مثل المستقبل يقع في دائرة المطلق وهذه لم تكن دائرته.

وبما أنَّ هذا حاله فكيف يكون الخليفة في الأرض؟

بمقارنته بكلّ المخلوقات فهو الأقدر الذي خُلِقَ في أحسن تقويم، وبمقارنته بالخالق فهو الضعيف الذي في حاجة لقوّة من خالقه تمده بإمكانات السيادة على الأرض التي يراد له الاستخلاف فيها. والقوّة بإمكانه أن يستمدها بتمسكه بقواعد الإباحة الحلال، التي منها أن يعمل على الإصلاح في الأرض، واستثمار خيراتها، وأن يشرب حلال، ويأكلّ حلال، ويجامع حلال، ويقول الحقّ، ويفعل الحقّ، ويتعلم إلى النهاية حتى يتمكن من الغوص في كلّ آية من آياته العظام، وأن لا يشغل عقله بإله آخر غيره، فيكون انشغاله به على حساب إيمانه بالوحدانية، التي يتعلق أمرها بإحداث المطلق، وأن يمارس حقّوقه بإرادة، ويؤدّي واجباته بإرادة، وأن يحمْل مسؤولياته بكلّ حرية، وأن يُقدِّر بني جنسه أحسن تقدير وأن يعدل إذا طُلب منه أن يحكم بين النّاس، وأن لا يكتم شهادته. وعليه فإن التزم بالقواعد وابتعد عن الاستثناءات قد آمن، وإن لم يفعل فقد كفر.

ولذا يكون الإنسان مؤمنا إذا التزم بالقواعد، ويكون منحرفا إذا حاد عنها، ولهذا السُكر استثناء، وأكلّ أموال النّاس بالباطل استثناء، والزنى استثناء، والإفساد في الأرض استثناء، والظلم استثناء، وجميع هذه الاستثناءات وغيرها كثير وللأسف الشديد هي من عمل من يُرَاد له أن يكون الخليفة. ولأن أمر الإرادة بيد الإنسان، فإذا أراد أن يكون من بين الخلائف في الأرض فبإمكانه أن يكون، وإذا لم يرد فالأمر أمر إرادة. ولهذا فنحن مثلما سلمنا بقاعدة لا مطلق إلا من عند الخالق تعالى، سلمانا أيضا بقاعدة أنَّه لا استثناء إلا من عند المخلوق.

فالمخلوق إن آمن اطمأنَّ، وتخلَّص من مسببات الضعف والوهن وامتلك مقاليد القوّة، وساد في الأرض خليفة مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالجنّة الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ}243 فنحن أوّليائكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فالمؤمن هو ولي المؤمنين بأسباب إيمانهم الذي تم استخلافهم به في الأرض فكانوا نعم الوارثين {وهذا النبي والذين آمنوا والله}244. إنَّ أوّلى النّاس بإبراهيم تعني إنَّ أخصَّ النّاس بخلافة إبراهيم هم الذين اتبعوه بالإيمان، والذين آمنوا بمحمّد وأتبعوا رسالته هم الوارثون للاستخلاف في الأرض كما سبق وأن ورثها من قبلهم الذين آمنوا بالأنبياء والرّسل السابقين.

---

243 فصلت 30، 31.

244 آل عمران 68.

وعليه فمن يُؤمن بمحمّد يصلي عليه ويسلم تسليما تاما كما يصلي ويسلم على إبراهيم وكلّ الرّسل مصداقا لقوله تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}245 وقوله تعالى: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}246.

تؤكد هذه الآيات الكريمة على الاستخلاف المتصل، ولا تؤكد على الاستخلاف المنفصل. فالاستخلاف المتصل هو استخلاف تماثل، فمثلما نصلي ونسلم على الأنبياء والرّسل السابقين بالتمام نُصلي ونسلم على محمّد. أمّا الاستخلاف المنفصل أن يؤمن مسلما بنبي أو رسول من عند الله ولا يؤمن بنبي أو رسول آخر من عنده.

وعليه فالمؤمن الحقّ: هو الذي بيده اليقين.

والمؤمن بالوراثة: هو الذي يؤمن بالمؤمن الحقّ وحده لا شريك له بيده الملك يحيي ويميت وهو على كلّ شيء قدير.

أمّا الأمّانة: فهي المتداولة بين الطرفين ويستشهد بها ويُشهد عليها بين مالك ومُملَّك، وهي إرث يُورَّث. {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}247

---

245 البقرة 136.

246 البقرة 285.

247 الأحزاب 72.

والأمن: فعل استقراري من فاعل أعظم إلى فاعل بالإضافة {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}248.

والأمّان: عهد يُقطع ممّا يجعل أمّان الله باقي ببقائه، وأمّان العبد زائل بزواله.

والإيمان: اعتراف إرادي بفعل جل، {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}249.

المؤمن اسم من أسماء الله تعالى وصفة من صفاته، يوضع اسم الله تعالى (المؤمن) ضمن الصفات التي تتحقّق فيها صفة العلم الواسع الكامل لله تعالى، وهي: (العليم، اللطيف، الخبير، الشهيد، الحسيب، المحصي، الواجد، السميع، البصير، الرقيب، المهيمن، الواسع، المؤمن). واسم الله تعالى المؤمن هو المؤمن عباده بما عرفهم من عدله ورحمته من أن يظلمهم ويجور عليهم وأصل الإيمان في اللغة التصديق، ويحتمل ذلك وجوها:

أحدها أنه يصدق عباده وعده ويفي بما ضمنه لهم من رزق في الدنيا، وثواب على أعمالهم الحسنة في الآخرة، والآخر أنه يصدق ظنون عباده المؤمنين ولا يخيب أمّالهم كقول النبي صلّى الله عليه وسلّم

248 الأنعام 82.

249 المجادلة 22.

فيما يحكيه عن ربّه عزّ وجلّ: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء وقيل: بل المؤمن الموحد نفسه لقوله: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ}250، وقيل: بل المؤمن الذي آمن عباده المؤمنين من عذابه يوم القيامة وقيل: هو الذي آمن خلقه من ظلمه، وقد دخل أكثر هذه الوجوه251.

واسم المؤمن من الأسماء الحسنى التي وردت مرة واحدة في القران الكريم، يقول تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}252 إلا أنّ هذا الورود يرسم تشكلّا معرفيا كبيرا، ويحيل إلى دلالات عظيمة تكمن أهميتها في أنها ترتسم ضمن خصائص تتعلق بصلب التكوين البشري وتساعده في إدراك أبعاد مهمة تساهم في الاستقرار النفسي الذي سبقه تخبط مستمر بين القلق الدائم وعدم الإدراك لمعطيات الرؤى المتكررة التي تتكرر مرارا دون الوصول إلى حقّيقة مطلقة يستشف من خلالها كنه ما هو متحقّق، والوقوف على حقّيقته للتبصر والتمعن والإدراك، فهو يعطي صورة مغايرة تماما لما يتردد في النفس الإنسانية، وهذا يحيلنا للحديث عن ثنائية الخوف الأمن التي من خلالها نبين عظمة هذا الاسم (المؤمن)، فالخوف من المفردات التي صاحبّت البشرية منذ ولادتها وتشكلّ معها ورسم صورة من الصور التي يتبين من خلالها خصلة من الخصال التي جبل عليها البشر عامة، والخوف تشكلّ مع الإنسان من البداية، وصار جزءا لا يتجزأ من شخصيته القلقة التي تنظر إلى كلّ شيء بقلق، كالنظر إلى

250 آل عمران 18.

251 - الأسماء والصفات، ج 1، ص 166

252 - الحشر 23

البرق أو إلى المطر أو إلى الرياح، فهذه الصور وغيرها تشكلّ في داخله الخوف المتكرر، هذه البداية التي صاحبّت الإنسان كان للخوف فيها نصيب كبير جعلته يتساءل كثيرا عن السر العجيب وراء كلّ هذه المظاهر التي شغلته وأخذت منه حيزا كبيرا، فهو دائم التفكر ينظر إلى هذا العالم الواسع وما فيه من صور مختلفة، وكلّ واحدة من هذه الصور تختلف عن الأخرى إلا أنها تصب في بوتقة واحدة وهي أن هناك من يقف وراء هذه المظاهر العظيمة التي يتشكلّ العجز حين التفكير بمن يقف وراء هذه المظاهر المختلفة، وسياق الكلّام هنا تدرج بوتيرة زمنية تشكلّت وفق معطيات الإدراك البشري وطبيعته الخلقية، فلم تتضح له الصورة التي يحلم بتحقّقها للوقوف على حقّيقة ما يريد معرفته إلا بإرسال الرّسل، وهنا بدا الاتصال الرّباني مع بني البشر لتوضيح الرسالة التي يراد تبليغها للناس كافة، والتي تتضمن أجوبة لكلّ التساؤلات التي شغلت الفكر الإنساني ردحا طويلا من الزمن، فكان إرسال الرّسل، قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النّاس بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}253 وإرسال الرّسل استمر بالتتابع فلم ينقطع إلا بالرسالة الخالدة التي جاءت على يد النبي محمّد عليه الصّلاة والسّلام، يقول تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كلّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}254 هذا التشكلّ لإرسال الرّسل يتشكلّ معرفيا مع الخوف الذي صاحبّ الفكر البشري طوال تحقّقه، فذهاب الخوف المتحقّق للبشر بعد

---

253 – الحديد 25

254 – المؤمنون 44

الإيضاح التام لكلّ الأسئلة التي شغلت الفكر، ومن الأسئلة التي ترددت مرارا السؤال عن البرق والرعد والسحاب وغيرها، إذ يقول تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}[255] أصبح الأمر ليس لغزا محيرا أو مدعاة للخوف الدائم الذي يتردد بين آونة وأخرى، انه حقّيقية موجودة في الوجود وهي صورة من صور القدرة الإلهية المتحقّقة في الأرض. ولما كان الرعد صوتا عظيما جعل ذكره عبرة للسامعين لدلالة الرعد بلوازم عقلية على أن الله منزه عما يقوله المشركون من ادعاء الشركاء، وكان شأن تلك الدلالة أن تبعث الناظر فيها على تنزيه الله عن الشريك جعل صوت الرعد دليلا على تنزيه الله تعالى، فإسناد التسبيح إلى الرعد مجاز عقلي. ولك أن تجعله استعارة مكنية بأن شبه الرعد بآدمي يُسبح الله تعالى، وأثبت شيء من علائق المشبّه به وهو التسبيح، أي قول سبحان الله[256].

بعد إرسال الرّسل وبيان شرع الله تعالى المراد تطبيقه يتشكلّ منعطفا جديدا في الفكر الإسلامي وهو الخوف والسؤال الذي يطرح:

لماذا الخوف؟

ممن الخوف؟

هل الخوف مستمر أم منقطع؟

كيف معالجة الخوف؟

---

255 - الرعد 12 - 13

256 - التحرير والتنوير، ج 7، ص 348

هل هناك معالجة للخوف؟

هذه الأسئلة وغيرها تفتح ملفا مهما يتشكلّ ضمن سياق التفكير الجديد للإنسان بعد أن عرف الله وتجلت له الحقّائق أمّامه، فيدخل بابا جديدا يؤرقه ويدخله في صراع مع نفسه، إذ يقول تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}257 هنا السياق يحيل إلى فترة زمنية مهمة جدا في حياة الإنسان المسلم وهذه الفترة تتمثل في الليل الذي يمثل جانبا مهما من جوانب العبادة التي تتحقّق فيه، فالصّلاة فيه صورة من صور التقرب إلى الله تعالى، يقول رسول الله محمّد عليه الصّلاة والسّلام "أَيُّهَا النّاس أَفْشُوا السَّلاَمَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا وَالنّاس نِيَامٌ تَدْخُلُونَ الجنّة بِسَلاَمٍ"258. فترتفع جنوبهم، وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو ألذ عندهم منه وأحبّ إليهم، وهو الصّلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى. ولهذا قال: (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما. (خَوْفًا وَطَمَعًا) جامعين بين الوصفين، خوفًا أن ترد أعمالهم، وطمعًا في قبولها، خوفًا من عذاب الله، وطمعًا في ثوابه259. فهنا الخوف أخذ منحا جديدا إذ يسير وفق أطر جديدة يحكمها الاعتقاد الراسخ بما جاء به الرّسول محمّد عليه الصّلاة والسّلام وهو القرآن الكريم ففيه كلّ التشريعات والأحكام التي رسمت المنهج الذي يتبع للوصول إلى مرضاة الله تبارك وتعالى، وهنا تتجلى لنا أحد معاني اسم الله تعالى (المؤمن) هو الذي أمن من آمن به من عذابه، ولذا فبعد الرّسل والرسالات وخاصة الخاتمة لا خوف من

257 – السجدة 16

258 – سنن الترمذي، ج 9، ص 380

259 – تفسير السعدي، ج 1 ص 655

المجهول، كلّ شيء معلن عنه في الكتاب الحكيم فمن آمن به اطمئن قلبه من كلّ خوف ومن لم يؤمن لابدّ له من مصاحبّة الخوف، وذلك لجهله بالحقّيقة التي هي في اللوح المحفوظ (القرآن الكريم)، وهنا تبرز لنا قضية مهمة جدا شغلت حيزا كبيرا في الخطاب القرآني ألا وهي قضية الإيمان، والإيمان أركانه ستة، وهي:

الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر.

الأوّل: الإيمان بالله: أن تؤمن بربوبية الله تعالى، أي أنه الرّب الخالق المالك المدبر لجميع الأمور، وتؤمن بألوهية الله تعالى، أي أنه الإله الحقّ، وكلّ معبود سواه باطل، وتؤمن بأسمائه وصفاته، أي بأن له الأسماء الحسنى والصفات العلى الكاملة.

وتؤمن بوحدانية الله في ذلك، بأنه لا شريك له في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته، قال الله تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}260

وتؤمن بأنه لا تأخذه سنة ولا نوم، وأنه عالم الغيب والشهادة، وأنه له ملك السماوات والأرض، قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حبّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}261.

الثاني: الإيمان بالملائكة:

---

260 - مريم 65

261 - الأنعام 95

وأن الله خلقهم لطاعته، ووصفهم بأنهم: {عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}262، ويقول تعالى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ}263، حجبهم الله عنا فلا نراهم، وربما كشف الله بعضهم لبعض أنبيائه ورسله.

وللملائكة أعمال كلّفوا بها، فمنهم جبريل الموكلّ بالوحي، ينزل به من عند الله على من يشاء من عباده المرسلين، ومنهم الموكلّ بقبض الأرواح، ومنهم الملائكة الموكلّون بالأجنة في الأرحام، ومنهم الموكلّون بحفظ بني آدم، ومنهم الذين يتنزلون في ليلة القدر، ومنهم الكثير الذي لا نعلم عنه شيء، ومنهم الموكلّون بكتابة أعمالهم فلكلّ شخص ملكان، إذ يقول تعالى: {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}264

الثالث: الإيمان بالكتب: الإيمان بأن الله أنزل كتبا على أنبيائه ورسله، لبيان حقّه والدعوة إليه، كما قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاس بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}265، وهذه الكتب كثيرة منها: صحف إبراهيم، والتوراة التي أوتيها موسى، والزبور الذي أرسل به داود،

262 الأنبياء 26 - 28

263 - الأنبياء 19، 20

264 - ق، 17، 18

265 - الحديد 25

والإنجيل الذي جاء به المسيح والقرآن الكريم (الرسالة الخاتمة) على سيدنا محمّد عليه وعليهم جميعا الصّلاة والسّلام.

فالإيمان بهذه الكتب السابقة يتحقّق بأن تؤمن بأن الله أنزلها على رسله، وأنها تضمنت الشرع الذي أراد الله إبلاغه إلى النّاس في ذلك الزمان.

وهذه الكتب التي أخبرنا الله عنها نسخت برسالة محمّد عليه الصّلاة والسّلام للكافة، فلم يبق لصحف إبراهيم وجود في الدنيا، أمّا التوراة والإنجيل والزبور فإنها وإن كانت توجد بأسمائها عند اليهود والنصارى إلا أنها حرفت وبدلت وفقد الكثير منها، ودخل فيها ما ليس منها، بل نسبت إلى غير أصحابها، فالعهد القديم فيه أكثر من أربعين سفرا، وينسب إلى موسى خمسة فقط، والأناجيل الموجودة اليوم لا ينسب واحد منها إلى المسيح.

الرابع: الإيمان بالرّسل صلوات الله وسلامه عليهم:

أن الله أرسل إلى خلقه رسلا يبشرونهم بالنعيم إذا آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وينذرونهم العذاب إذا عصوا، قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كلّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حقّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}266 وقال جل ثناؤه: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حجّة بَعْدَ الرّسل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}267.

---

266 – النحل 36

267 – النساء 165

الخامس: الإيمان باليوم الآخر: ذلك أن نهاية كلّ مخلوق في الدنيا الموت، فما مصير الإنسان بعد الموت؟ فما مآل الظلمة الذين سلموا من العذاب في الدنيا؟ هل يسلمون من طائلة ظلمهم؟ والمحسنون الذين فاتهم نصيبهم وجزاء إحسانهم في الدنيا هل تضيع أجورهم؟

إنّ البشرية تتتابع إلى الموت، جيلا بعد جيل، حتى إذا أذن الله بانقضاء الدنيا، وهلك كلّ مخلوق على ظهرها، بعث الله جميع الخلائق في يوم مشهود، يجمع الله فيه الأوّلين والآخرين، ثم يحاسب العباد على أعمالهم من خير أو شر كسبوه في الدنيا، فالمؤمنون يساقون إلى الجنّة، والكفار يقادون إلى النّار.

والجنّة هي النعيم الذي أعده الله لأوّليائه المؤمنين، فيها من أصناف النعيم ما لا يقدر أحد على وصفه، فيها مائة درجة، لكلّ درجة سكان على قدر إيمانهم بالله وطاعتهم له، وأدنى أهل الجنّة منزلة من يعطى من النعيم مثل ملك من ملوك الدنيا وعشرة أضعافه.

والنّار هي العذاب الذي أعده الله لمن كفر به، فيها من ألوان العذاب ما يهول ذكره، ولو أذن الله بالموت لأحد في الآخرة لمات أهل النّار بمجرد رؤيتها. قال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ}268.

السادس: الإيمان بالقدر:

268 العنكبوت 36 ـ 38.

أ- معنى الإيمان بالقدر:

هو التصديق الجازم بأن كلّ خير وشر فهو بقضاء الله وقدره، وأنه الفعّال لما يريد، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره، ولا يصدر إلا عن تدبيره، ولا مَحيد لأحد عن القدر المقدور، ولا يتجاوز ما خُط في اللوح المسطور، وأنه خالق أفعال العباد والطاعات والمعاصي، ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم، وجعلهم مختارين لأفعالهم، غير مجبورين عليها، بل هي واقعة بحسب قدرتهم وإرادتهم، والله خالقهم وخالق قدرتهم، يهدي من يشاء برحمته، ويضل من يشاء بحكمته، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

والإيمان بقدر الله تعالى أحد أركان الإيمان، كما في جواب الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حين سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان قال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره"269.

ب- مراتب الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر يتضمن أربعة أمور:

الأوّل: الإيمان بأن الله تعالى عَلِم بكلّ بشيء جملةً وتفصيلًا، وأنه تعالى قد عَلِم جميع خلقه قبل أن يخلقهم وعلم أرزاقهم وآجالهم وأقوالهم وأعمالهم، وجميع حركاتهم وسكناتهم، وأسرارهم وعلانيّاتهم، ومن هو منهم من أهل الجنّة، ومن هو منهم من أهل النّار.

269 - صحيح مسلم، ج 1، ص 28

قال الله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرّحمن الرّحيم}270 وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكلّ شَيْءٍ عِلْمًا}271.

الثاني: الإيمان بكتابة ذلك، وأنه تعالى قد كتب جميع ما سبق به عِلْمُه أنه كائن في اللوح المحفوظ. ودليلُه قوله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}272.

وقول النبي صلّى الله عليه وسلّم: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة273.

الأمر الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة التي لا يردُّها شيء، وقدرته التي لا يعجزها شيء، فجميع الحوادث وقعت بمشيئة الله وقدرته، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

هذا الإيمان المتشكلّ من هذه الأركان هو صورة الإيمان التي يريدها الله تبارك وتعالى من عباده، فان تحقّقت أمن العباد من عذاب الله تعالى.

واسم الله المؤمن فيه عدة أقوال، كلّها يدل عليها الاسم ويشملها لأنها من معاني الكمال الذي اتصف به رب العزّة والجلال:

---

270 - الحشر 22

271 - الطلاق 12

272 - الحديد 22

273 - صحيح مسلم، ج 8، ص 51

القول الأوّل في معنى اسم الله المؤمن: أن المؤمن هو الذي أمن النّاس أنه لا يظلم أحدا من خلقه وهو الواحد القهار لا شريك له سبحانه، وأمن من آمن به من عذابه، فالله عزّ وجلّ لا يظلم أحدا من خلقه، وكلّ سينال ما يستحقّ، ولا يبخسه الله شيئا ممّا له من الحقّ، إذ يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرا عَظِيما}274 وقال تعالى: {وَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدا}275.

والقول الثاني في معنى اسم الله المؤمن: أن المؤمن هو المجير الذي يجير المظلوم من الظالم، وذلك على اعتبار أن الله عزّ وجلّ هو الذي يجير المظلوم من الظالم بمعنى يؤمنه وينصره، إذ يقول تعالى: {قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كلّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}276، وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}277 لن يجدوا ملاذا ولا مأمنا من دون الله، {قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدا}278، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يستعيذ من الظلم، إذ يقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ"279، وورد أيضا في قوله عليه

274 – النساء 40

275 – الكهف 49

276 – المؤمنون 88

277 – الملك 28

278 – الجن 22

279 – سنن أبي داود، ج 5، ص 67

الصّلاة والسّلام: "إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، قَالَ ثُمَّ قَرَأَ: 280 {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِي ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}281.

القول الثالث في معنى اسم الله المؤمن: أنه الذي يصدق المؤمنين إذا وحدوه، لأنه الواحد الذي وحد نفسه بشهادته في قوله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوّلو الْعِلْمِ قَائِما بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ}282، وهذه الآية تحمل أعظم المعاني في كشف حقّيقة الحياة، وكيف أنها جعلت لتوحيد الله، فلما كانت شهادة التوحيد المبنية على توحيد العبادة لله، ونفي ألوهية ما سواه، هي أصل دعوة الرّسل ومبني قضيتهم التي جاهدوا من أجلها، وكانت هذه القضية مثار إنكار المشركين وخلافهم مع رسلهم، وجب الفصل بين الجميع في هذه القضية بحكم عدل يصدق أهل الحقّ ويكذب أهل الباطل، فمن المعلوم أنه عند الاختلاف بين النّاس ترفع الأمور إلى القضاء، والقضية تتطلب قاضيا وحكما يفصل في الخلاف، وكذلك إعلام المختلفين ودعوة المعنيين من سائر الأطراف، كما أنها تتطلب أيضا دفاعا عدلا، وحججا وجدلا، وشهودا وقسما وشهادة وبينة، وتتطلب في نهايتها الحكم وفق دستور ثابت أو منهج ونظام، هذا مع توفر القدرة على تنفيذ ما يستصدر في القضية من أحكام، ويزداد الأمر جلاء ووضوحا إذا أضفنا إلى ما تقدم أن قضية توحيد العبادة لله هي في حقّيقتها ابتلاء وامتحان للإنسان، الإنسان الذي استخلفه الله في أرضه، واستأمنه

---

280 - صحيح البخاري، ج 15، ص 322

281 هود 102.

282 - أل عمران 18

على ملكة، وميزه على كثير من خلقه، وأنه سبحانه وتعالى حذر الإنس والجان من الشرك والكفر العصيان، وسوف يقضى بينهم بالحقّ وهو أحكم الحاكمين.

القول الرابع في معنى اسم الله المؤمن: أن المؤمن هو الذي يصدق مع عباده المؤمنين في وعده، ويصدق ظنون عباده الموحدين ولا يخيب أمّالهم، قال تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}283 ويقول تعالى: {ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ}284 ويقول تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ}285، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صلي الله عليه وسلّم قال: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَي أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَي بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً"286، ومن حديث ابْنِ عُمَرَ أنه قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلي الله عليه وسلّم يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَي دَرَجَةِ الْكَعْبَةِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَي عَلَيْهِ وَقَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ"287، فالمؤمن في أسماء الله هو الذي يصدق في وعده، وهو عند ظن عبده لا يخيب أمله ولا يخذل رجاءه. والخليفة المؤمن الذي لا شك في قلبه في وحدانية الله وعلمه وحكمته وعظمته وقوته وقدرته المطلقة ولا يشك في انه الواحد القهار ولا يشك أنه

283 – أل عمران 95

284 – الأنبياء 9

285 – القمر 55

286 – صحيح مسلم، ج 8 ص 67

287 – صحيح النسائي، ج 4، ص 233

على كلّ شيء قدير، ولا يشك أن صفاته الحسان تتعدد وهو واحد احد صمد لا يتعدد سبحانه لا إله إلا هو.

واسم الله المؤمن يدل على ذات الله وعلى صفة من صفات الفعل، وهي صدق الوعد وتصديق الحقّ للحقّ بدلالة المطابقة.

وحظ الخليفة من اسم الله تعالى (المؤمن) أن يتشكلّ مع فكره فيكون يقينه في ربّه أنه لا يظلم أحدا من خلقه، وأنه سينصر المظلوم، فيلجأ إلى الله أن يجيره من ظلم الظالمين، ويثق أن وعد الله لعباده المؤمنين كائن لا محالة. أمّا التشكلّ الدنيوي لدور الخليفة فهو أن يأمن الخلق كلّهم إلى جانبه، بل يرجو كلّ خائف الاعتضاد به في دفع الهلاك عن نفسه في دينه ودنياه. فضلا عن ذلك أن يكون الخليفة سببا للهداية لكلّ من خرج عن جادة الحقّ فبهداية الخلق يرسم لهم صورة الأمن المتحقّقة من نار جهنم فهو بذلك سلك مسلكا عظيما يتجلى فيه اسمى القيم والمبادئ التي أرداها الله تعالى، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاس وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}288 والخطاب في هذه الآية عبر عن الموعظة والتحذير بالوقاية من النّار على سبيل المجاز لأن الموعظة سبب في تجنب ما يفضي إلى عذاب النّار أو على سبيل الاستعارة بتشبيه الموعظة بالوقاية من النّار على وجه المبالغة في الموعظة. وتنكير (نار) للتعظيم وأجرى عليها وصف بجملة (وقودها النّاس والحجارة) زيادة في التحذير لئلا يكونوا من وقود النّار289.

---

288 – التحريم 6

289 – التحرير والتنوير، ج 15، ص 185

بعد أن أبلغهم صالح صلّى الله عليه وسلّم أنّه رسول الله انقسمت ثمود إلى فريقين على وجه الخصومة مصداقا لقوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ}290.

والخصومة كانت في بدايتها خصومة فكرية حيث لم يظهر من هذه الخصومة سوى الجدل المصاحبّ لها وهو جدل مستمرّ بدلالة استخدام الفعل المضارع (يختصمون)، بل إنّ من كفر من ثمود لم يظهر لمن آمن أي من المواقف التي وجدناها في رسالات أخرى كالإخراج أو التهديد بالرّجم أو أيّ موقف يدلّ على تحول الخصومة بين الفريقين من المستوى الفكري إلى المستوى المادي مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالحا مُرْسَلٌ مِنْ ربّه قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}291.

ولكن الرّهط المفسد وبعد أن أسقطت الحجّة بيده أبى إلا أن يحوّل الخصومة إلى نزاع مادّي يتمثل بالكيد بصالح وأهل عقيدته مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}292.

290 – النمل 45.

291 – الأعراف 75-76.

292 – النمل 49-51.

الماكر هو من "ينزل المكروه بالممكور به من حيث لا يعلم، والمكر في اللغة التدبير على العدو"293.

المكر هو "الخديعة والاحتيال للممكور به بالغدر، ليورِّطه الماكر به مكروهًا من الأمر"294.

إذا الماكر هو صاحبّ الأقوال والأفعال المزورة للحقّ والحقّيقة، وهو الذي يرشد بالأعمال المموهة عن ارتكاب المحاسن والمبعدة عن الأخذ بالقيم واتباع الفضائل الحسان.

والمكر لا يُدعم إلا بالتحايل الذي يستدرج النّاس إلى الوقوع في الفخ نكاية ووقيعة وتشمتا وتشفيا بغير حقّ.

ولذا فالمكر إظهار مقابح الأعمال والأفعال عن قصدٍ وسوء نية، ومن أنواعه إعانة خصوم الخصوم بطلب أو بدون طلب.

المكر عمل ضعيف يسهل كشفه وتسفيهه وإبطاله فمع أنَّ المكر من بناة الأفكار الباطنة في النفس إلا أنه استعجالي الظهور ممّا يجعل أمره ميسرا وظاهرا وأصحابه بدون سترة.

وفي المكر يقول الشاعر:

وأَمِنْتُه فأَتَاحَ لي من مأْمَني... مكْرا كذا مَنْ يَأْمَنُ الأيام295.

ونحن نقول:

المكر على مستويات ثلاث:

293 الفروق اللغوية، ج 1، ص 207.

294 تفسير الطبري ج 12، ص 95.

295 تفسير القشيري، ج 4، ص 138.

المستوى الأوّل:

ما يقوم به الماكر من مكر سيئ بالعباد، قال تعالى: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قوّة وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا}296.

الذين أقسموا هم الكفرة والمشركين بأنه إن بعث الله لهم نبيا رسولا ليكوننَّ من المهتدين فلما بعث الله تعالى محمّدا عليه الصّلاة والسّلام رسولا مبشرا ومنذرا ازدادوا تمسكا بكفرهم وشركهم وإفسادا في الأرض، ولكن النتيجة التي لحقّت مكرهم السيئ هي أحلال المكر بهم من خير الماكرين (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) وهذه سنة الحياة عبر الزمن لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، ولذا فالذين يمكرون بالعباد هم الذين يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء فيها بغير حقّ، وهم الذين يقدمون على أداء مجموعة من الأعمال والأفعال السيئة التي منها:

1 ـ الظلم.

2 ـ الكيد.

3 ـ الدس.

296 سورة فاطر 42 ـ 44.

4 . التحايل.

5 . المخادعة.

6 . المراوغة.

7 . الانقلاب.

8 . التقلُّب (التبدل) حيث لا ثوابت.

9 . إظهار غير الباطن.

10 . النصب والاحتيال.

11 . الغدر.

12 . الخيانة.

13 . الكذب والافتراء.

14 . الاستكبار والإفساد في الأرض وسفك الدماء فيها بغير حقّ.

المستوى الثاني:

ما يقوم به العباد الصالحين والصدِّيقين والذين أسلموا وجوههم لله ربُّ العالمين من مكر بالماكرين السيئين وهم يتلون آيات الله آنا الليل وهم يسجدون مصداقا لقوله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}297، إنهم المتقون حقّا الذين يسعون في الخيرات والأعمال الحسان التي منها:

1 . إذا حكموا بين النّاس عدلوا.

2 . إذا قالوا صدقوا.

3 . إذا عاهدوا أوفوا.

4 . إذا عملوا أحسنوا.

5 . يحبّون الخير ويعملون عليه.

6 . يحقّون الحقّ ويزهقون الباطل.

7 . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

8 . مؤتمنو الجانب.

9 . مؤمنون بالله خير الماكرين.

10 . مؤمنون بكلّ أمر ونهي وتحريم ومجتنبين لكلّ ما يجب اجتنابه طاعة لله ربُّ العالمين.

المستوى الثالث:

ما يقوم به خير الماكرين من إبطال لمكر الماكرين السيئين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ويسفكون الدماء فيها بغير حقّ، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا

297 آل عمران 113 . 115.

وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}298.

أي مَكَرَ بنو إسرائيل بعيسى عليه الصّلاة والسّلام كثيرا حتى بلغ بهم الأمر الإقدام على صلبه فظنوا أنهم قد قتله صلبا، والحقّ تعالى شبّه لهم صلبه وقتله تشبيها مصداقا لقوله تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}299.

وعود على الآية الكريمة (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) يُفهم منها ثلاثة أمور:

1 . أنهم قد مكروا، أي أن فعل المكر كان متحقّقا من بنو إسرائيل لعيسى عليه الصّلاة والسّلام، فهم الذين قد بدءوا بمكرهم دون مبرر (بدون وجه حقّ)، وفي هذا المعنى أنهم لم يتركوا سيئة كبيرة كانت أم صغيرة إلا وقد فعلوها.

2 . إنَّ الله قد مكر بمكرهم الذي هو صلب عيسى فأبطله بالشبه حتى أنهم ظنوا قتل عيسى يقينا (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) ولأن إبطال الباطل حقّا جاء المكر بمكرهم حقّا، وفي غير مقارنة ولكن لتبيان الحقّ من الباطل فإن الفرق كبير بين من يزرع مكرا وبين من لا يجعله نباتا، فالمزروع لا خير فيه لذا كان عدم إنباته خيرا، فلو نبت لكانت المفاسد ونار الفتن منتشرة وموقدة، ولهذا كان الخير كلّ الخير في عدم انتشارها وعدم إيقاد نارها.

298 آل عمران 54، 55.

299 النساء 157، 158.

3 . ولأنّ المكرَ بالمكرِ خير فإن فاعله هو خير الماكرين، ولذا فخير الماكرين هو فاعل الأفعال الحسنى، وقد يتساءل البعض:

من الذي يفعل الخير؟

نقول:

خير الماكرين (من يمكر بالماكرين) أنه مُحقّ الحقّ.

ومع أنَّ الآية الكريمة جاءت بصيغة الماضي إلا أنّ الباقي على الخير باقٍ ولهذا فمتى ما يمكر الماكرين يمكر الله بمكرهم فيبطله ويلحقّ أصحابه الضرر مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}300 وكذلك يفهم من هذه الآية الكريمة أن مكر الله مترتب على مكر سابق من الماكرين الذين كفروا فيمكر الله بهم وبمكرهم ذلك لأنه هو خير الماكرين.

وخير الماكرين عزّ وجلّ على دلالة من المعنى حيث قد يفشل البعض من العباد من إبطال ما يكيده الكائدون من مكائد وما يمكرون به من مكر ولكن قد لا يُوفّقوا في بعض الأحيان ولهذا فخير الماكرين هو القادر دائما ولأنه القادر فهو الله وهو خير الماكرين.

إذا خير الماكرين هو القادر على المكر بالمطلق، أمّا الماكر فهو القادر في دائرة النسبية ولا قدرة له بالمطلق، ولهذا لا قادر على المكر الذي هو خير إلا الله تعالى أمّا المكر الذي هو سيئ فالمفسدون في الأرض قادرون عليه، ولذا يُزين لهم مكرهم تزيينا، مصداقا لقوله تعالى: {بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ

300 الأنفال 30.

اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ}301.

ولأن صفات الخالق ثابتة وصفات المخلوق متبدلة لذا لا تبديل لمكر خير الماكرين ولا صعوبة في تبديل مكر الماكرين، أي أنّ مكر خير الماكرين هو المبطل لمكر الماكرين، ولذا كلّ مكرٍ ينهار ويتلاشى وينعدم أمّام خير الماكرين، وعليه الصفات المتبدلة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع سهلة التغيير والصفات الثابتة باقية بالمطلق لا تتغير.

ولأن الماكر قادرا على عدم إظهار ما يكنه من مكرٍ إلى حين وقته فحين يأتي وقته لا يتأخر في إظهاره بأسواء الأساليب وأقبحها، أمّا خير الماكرين (الماكر العظم) بيده الأمر إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون وهو يعلم بكلّ باطن قبل ظهوره ويعلم بكلّ علانية وهو على كلّ شيء قدير، ولذا فلله المكر جميعا قال تعالى: {وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كلّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ}302.

قوله تعالى: (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) تدل على شواهد في التاريخ الذي هو خير شاهدٍ على ما فعل النمرود من مكرٍ بإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وخير شاهدا على ما فعل فرعون من مكرٍ بموسى عليه الصّلاة والسّلام وما عمل اليهود من مكرٍ بعيسى عليه الصّلاة والسّلام وهكذا من قبلهم مكر قوم نوح بنوح عليه الصّلاة والسّلام وكلّ الأنبياء تعرضوا للمكر السيئ من السيئين عليهم اللعنة،

301 الرعد 33، 34.

302 الرعد 42.

ولكن بقيت الحياة بشواهدها شاهدةً على ما أحقّه خير الماكرين من حقّ حيث يريد الله أن يتم نوره ولو كرها الكافرون والمجرمون المفسدون في الأرض وسافكي الدماء فيها بغير حقّ، قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}303، وقال تعالى: {وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحقّ الحقّ بِكَلّمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحقّ الحقّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}304.

أمّا قوله تعالى: (فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا) تدل إثباتا على أن كلّ شيء بالمطلق هو بأمر الله تعالى، ولذلك لا شيء يفلت من يديه سواء أكان مكر الماكرين وما تكنه صدورهم أو تعلنه أم أكان تلك الأقوال والأفعال الحسان التي يؤمن المسلمون بها اتباع تنزيل من العزيز الحكيم.

ولأنّ لِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا، إذا لا خوف إلا من الله، ولهذا تقواه واجبة وطاعته عبادة، والمؤمن يقول الحقّ ويفعله ولا يُفسد في الأرض ولا يسفك دما فيها بغير حقّ وهو متيقنا أنه لن يصيبه شيئا إلا ما قد كُتب له مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَلّ الْمُؤْمِنُونَ}305.

وعليه بما أن لله المكر جميعا، فلماذا الخوف؟

لا خوف بما أنهم يمكرون والله خير الماكرين، الخوف فقط إن لم يُمن بخير الماكرين، ولذا المؤمن بخير الماكرين إن آمن حقّا لا يضره

303 التوبة 32.

304 الأنفال 7، 8.

305 التوبة 51.

كيدهم ولا مكرهم ولا سحرهم شيئا فمن يتوكلّ على الله فهو حسبه، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكلّ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكلّ شَيْءٍ قَدْرًا}306.

وحيث لا مقارنة ولكن للتوضيح نقول:

الفرق كبير بين من يمكر بعد أن يعلم بالأمر الذي كان سببا في إقدامه على أفعال وأعمال المكر وبين من يعلم بالأمر قبل وقوعه أو حدوثه ثم يُظهره في بواطن الماكرين الذين يظنون أن أمرهم غير معلوم لدى أحدٍ ثم يُظهره في أقوالهم وأعمالهم وأفعالهم ليكون شاهدا عليهم يوم لا ينفعهم مال ولا بنون قال تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}307، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوّلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأوّلئِكَ هُمْ وَقُودُ النّار كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آَيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأوّلِي الْأَبْصَارِ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حبّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآَبِ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ ربّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

306 الطلاق 2، 3.

307 الشعراء 88، 89.

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}308.

يُفهم من هذه الآيات الكريمة أن خير الماكرين هو أرحم الراحمين ولهذا مكره خير ورحمة على العباد فلولا مكره تعالى بالماكرين لفسدت الأرض وعمّت المظالم وهلك النّاس، ولكن بواسع رحمته جعل الخير رحمة من جانبين:

الأوّل: بالرغم ممّا يفعله الماكرون من مكرٍ فالحقّ دائما يعلو ولا شيء يعلو عليه.

الثاني: بالرغم من المكر المتنوع والمتعدد الذي يمكره الماكرون إلا أن خير الماكرين خير باطلا له.

فالحمد لله ربُّ العالمين خير الماكرين.

ولأنّ خير الماكرين هو علام الغيوب فكلّ ما يمكره الماكرون فهو عند الله مصداقا لقوله تعالى: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}309.

ما قام به الماكرون من مكرٍ الله يعلمه فهو ليس بمخفي عنه (وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ) ولأنه لا شيئا مخفيا عنه فهو العالم بحاله وحالهم ويعلم ما يجب اتجاهه واتجاههم، والمؤمنون هم بذلك يؤمنون فيُسلِّمونَ أمرهم إليه وعليه يتوكّلون في مواجهة كيد الكائدين ومكر الماكرين وكلّهم ثقة أن الحقّ سيحقّ ولو كرها الكافرون والمشركون والمجرمون والفاسقون والكاذبون والضالون. قال تعالى: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا

308 آل عمران 10 . 15.

309 إبراهيم 46.

دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}310.

أي أنظر إلى الدليل الذي تركناه شاهدا على ما فعلوا من مظالم ومكايد ومكر عظيم، فكانت العظمة بما فعل خير الماكرين من مكر بمكرهم تدميرا شاملا لهم ولقومهم أجمعين فبقيت بيوتهم أثارا خاوية بأسباب ما اقترفت أيديهم من مفاسد في الأرض ظلما وعصيانا وبهذا المكر الخيّر من خير الماكرين تحقّقت النجاة للذين آمنوا وكانوا متقون في كلّ قول وعمل عملوه وهم للحقّ فاعلون.

ولأن خير الماكرين محقّ للحقّ فالماكرون للعباد هم في حقّيقة أمرهم لا يمكرون إلا بأنفسهم وذلك بأسباب العاقبة التي لابدّ وأن تلحقّ بهم (الكافرين والمجرمين والمفسدين في الأرض وسافكي الدماء فيها بغير حقّ، والكائدين والماكرين من شياطين الإنس والجن أجمعين) قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كلّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آَيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ}311. يُفهم من هاتين الآيتين أنَّ أكابر المجرمين هم أشد مكرا وأشد إفسادا في الأرض ومثل هؤلاء هم في كلّ قرية ولهذا القرى التي يُراد لها أن تُدمر بأسباب ما تُقدِّم أيدي سكانها يأمر الله مترفيها فيفسقوا فيها فتُدمَّر تدميرا مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحقّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفي بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا

310 النمل 51 . 53.

311 الأنعام 123، 124.

بَصِيرًا}312، ولذلك تكون النتيجة عودة المكر على رؤوس أصحابه وينجي الله الذين آمنوا من مكرهم كما نجي نوح ومن تبعه من المؤمنين من الطوفان في الفلك المشحون وكما نجي موسى والرّسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم من كلّ كيدا ومكر عظيم، قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحقّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحقّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكلّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقّ اللَّهُ الحقّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكّلوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكّلنَا

312 الإسراء 16، 17.

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآَ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصّلاة وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آَتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}313.

بناء على ما تقدم من آيات عظام نقول الحمد لله أنه خير الماكرين، ولذا جاء أسمه خير الماكرين في مقابل تلك الأفعال التي يقوم بها شر الماكرين في الأرض الذين بأسباب مكرهم تدمر قراهم وبأسباب مكرهم يخسرون ويفوز الذين آمنوا في الدارين فيكونوا هم الوارثون حقّا بما آمنوا وعملوا من الصالحات.

ولذا نقول على المستوى البشري يظهر أشر وأسوى الماكرين وفي مقابل ذلك يكون الله هو خير الماكرين سبحانه نعبده ونحن مؤمنين ولا نشرك به شيئا ومن يتخذ من دونه أربابا فهو من الخاسرين، قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحبّارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}314 وقال تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ

313 يونس 71. 88.

314 التوبة 30، 31.

شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كلّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}315.

ولأن الله عزّ وجلّ هو خير الماكرين فهو لا يظلم أحدا من خلقه ولكن أنفسهم يظلمون ولهذا جعل الذين أجرموا صغار عنده ولهم عذاب شديد بما كانوا يمكرون مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ}316.

ولأنّ المكر عمل شيطاني فهو يُنسج من الأقارب والأباعد على السواء كما نسج أخوة يوسف مكرهم به مصداقا لقوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ}317.

والمكر عادة تُنسج خيوطه في الغياب ليفاجئ بها من نُسجت إليه أو نُسجت من أجله عند الحضور، ولهذا في المكر تكاد المكائد التي فيها مغالبة من يمكر به، ولول فضل الله بخير مكره لهلكت الأرض وهلك العباد وعمَّ الأرض الفاسد، ولكن بحمد خير الماكرين يبطل كلّ مكرٍ وينتصر المؤمنين، ولهذا فالصبر مفتاح الفرج ومزيل الكرب فمن يصبر على الإيمان بالحقّ ينتصر ويفوز، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}318، في هاتين الآيتين الكريمتين مخاطبة

---

315 الرعد 16.

316 الأنعام 124.

317 يوسف 102.

318 النحل 127، 128.

لرسول الله محمّد عليه الصّلاة والسّلام بالصبر فالصبر لا يكون إلا من عند الله تعالى ولهذا لا مخافة ممّا يمكرون فالصبر على الإيمان كفيل بمغالبتهم، ولذلك لا تحزن عليهم يا محمّد ولا تكون في ضيق ممّا يمكرون فالله ناصرك مصداقا لقوله تعالى: {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ ممّا يَمْكُرُونَ}319، فالذين تضق بهم الأحوال هم الأخسرون فاصبر وما صبرك إلا بالله تعالى هو وليك فتوكلّ عليه وثق أنَّ الذين يمكرون ليس لهم إلا السيئات مصداقا لقوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ العزّة فَلِلَّهِ العزّة جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكلّمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أوّلئِكَ هُوَ يَبُورُ}320، بدون شك الذين يمكرون السيئات هم في ضلال بعيد فعمل السيئات كفيل بقلب السحر على الساحر، ولذا فارتكاب السيئات كفيل بتحقّيق المكر لمن يعملها.

إذا فمن كان يريد العزّة فعليه بالإيمان بالله تعالى وطاعته أمر ونهيا وتحريما وتجنبا وابتعادا وأخذا، وعليه بالكلّم الطيب في مرضاته والعمل الصالح الذي به تزداد الرفعة إلى بلوغ المقامات العظام ولا يلتفت إلى ما يعمل الماكرين من سيئات فأوّلئك لهم عذاب شديد يوم لا ينفع مالا ولا بنون {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}321.

قال تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ ربّه كَذَلِكَ

319 النمل 70.

320 فاطر 10.

321 الشعراء 88، 89.

لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حبّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كلّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ}322.

وعليه في المكر إكراه بأساليب ملتوية عن الحقّ والصواب، وفيه تآمر على الأبرياء والأوفياء وفيه الخدعة في الظرف المتوقّع وغير المتوقّع، وفيه التزيين في غير محله وفيه التغرير والتزوير وفيه الإغراء والإغواء وفيه التسفيه وإلحاق الهلاك وفيه الكيد والظلم والسوء.

وعليه؛ فالمكر والكيد لا يلحقّان إلّا من كان من وراء أفعالهما كيدا ومكرا بالعباد، ولهذا فالمكيد الأعظم يكيد كيد الكائدين من النّاس، المكيد هو من يمتلك القوّة التي تغالب أية قوّة، وهو الأعظم في صفاته وأفعاله يَغلِب ولا يُغلَب يَقهَر ولا يُقهَر بيده الخير ولا يلحقّه

322 يوسف 23 ـ 32.

ضررٍ والغاية المطلقة من كيده الإصلاح والأعمار وإحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل.

هذه الصفات الحسنى المطلقة لا تكون إلا لله عزّ وجلّ ولذلك قال تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}323.

قوله تعالى: (وَأَكِيدُ كَيْدًا) آية كريمة ضميرها يعود على المكيد الذي بيده أمر الكيد متى ما شاء وكيفما يشاء، ولأنه المكيد بالمطلق جاء قوله (وَأَكِيدُ كَيْدًا) أمرا مطلقا أي يكيد أي كيد دون تحديده فمهما تنوع الكيد وتعدد الكائدين فهو المكيد.

في هذه الآيات الثلاثة ضمائر ثلاثة هي:

1 ـ الضمير العائد على الكافرين بقوله تعالى: (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا).

2 ـ الضمير العائد على المكيد الأعظم، (وَأَكِيدُ كَيْدًا).

3 ـ الضمير العائد على الشاهد الممهل (النبي محمّد عليه الصّلاة والسّلام) الذي سيشهد العاقبة ماثلة أمّام عينيه أن الكافرين كيدهم مكادا وهم لا يمتلكون القوّة ولا القدرة مصداقا لقوله تعالى: (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا).

ولسائل أن يسأل:

كيف يكون الكافرون مكيدون، ويكون الله مكيدا؟

نقول:

323 الطارق 15 ـ 17.

.كيد الكافرون (كيد).

.كيد المكيد تعالى (كيد الكيد).

.كيد الكافرون تعزيز باطل.

.كيد المكيد عزّ وجلّ مناصرة حقّ.

.كيد الكافرون غايته فسح المجال أمّام من يشرك ويكفر.

.كيد المكيد عزّ وجلّ إبطال غاياتهم بفسح المجال أمّام من يؤمن ويسلم وجهه لله ربُّ العالمين واحدا أحدا لا شريك له بيده الملك وهو على كلّ شيء قدير.

.كيد الكافرون تعويق سبل النجاح.

.كيد المكيد الأعظم إعاقة معوقاتهم ليفسح سبل النجاح.

.كيد الكافرون إفسادي.

.كيد المكيد تعالى إصلاحي.

.كيد الكافرون ظلالا.

.كيد المكيد هداية.

.كيد الكافرون تقليل شأن.

.كيد المكيد تعالى رفعة شأن.

.كيد الكافرون تفريق شمل.

.كيد المكيد تعالى جمع شمل.

ـ كيد الكافرون تحقّيق ألما.

ـ كيد المكيد إزالة ألما.

بناءً على ما تقدم يتضح الفارق بين (الكيد) الذي لا يتم إلا على يد كافرٍ أو مفسدٍ أو ضالٍ وظالمٍ وبين (كيد الكيد) الذي لا يكون إلا على يد القادر المطلق على إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل.

ولذا قلنا:

1 ـ الكيد إفسادي.

2 ـ كيد الكيد إصلاحي.

أي أن الكيد أفعاله قصديه لتحقّيق الألم لمن يسلك سبل النجاح، وكيد الكيد أفعاله قصديه لتحقّيق الطمأنينة لمن يسلك سبل النجاح أو يهدي إليه.

إذا (الكيد) معابة لا يقدم عليه إلا من هو على عيب (على باطل)، و(كيد الكيد) لا يقوم به إلا الحقّ، أو من يتبع الحقّ.

وعليه أتساءل:

من هو المِكيد؟

نقول:

هو من بيده قوّة المغالبة، وهو بالمطلق الله تعالى، وفي دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع هو الإنسان، وفي هذا الأمر وجهان يتضحان:

الوجه الأوّل: مغالبة المطلق هي مغالبة حقّ.

الوجه الثاني: مغالبة النسبي على نهجين:

1 ـ مغالبة مُصلِح في الأرض (مغالبة حقّ) وهذه المغالبة راسخة.

2 ـ مغالبة مُفسِد في الأرض (مغالبة باطل) وهذه المغالبة ليست براسخة، ولهذا فهي تتطلب فاعل وفعل لإبطالها كيدا.

وعودا على الآيات الكريمة السابقة في قوله تعالى: (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا)، نقول:

هناك اختلاف وفارق موضوعي من حيث:

1 ـ أن الكائدين هم الذين يصطنعون مواقف الكيد اصطناعا ترتيبا وإعدادا وإخراجا وتبييتا وتنفيذا (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا) أي بدون وجه حقّ هم ينسجون خيوط التآمر على العباد الذين يسلكون سبل الصلاح والإصلاح والعمل الإعماري ولا يقترفون ذنبا أو يسببون ألما فيكاد لهم كيدا بليَّة دون وجه حقّ، والمكيدون عليهم اللعنة قلوبهم على الخير تشتتا وقلوبه على الشر تمركزا.

2 ـ أنّ المكيد هو الذي يكيد كيد الكائدين فيبطله ويدمغه حتى يزهق، وفي هذا الأمر يتحقّق كيد الكيد فلا تتحقّق غاياته وينجوا من الألم من كان مكادا له بكيد الكائدين، أي أن المكيد يريد للظلم أن تسقط رأيته وللحقّ أن تُرفع، ولذلك نقول:

أنَّ المكيد هو من يبطل الباطل الذي هو كيد كائدين، ومن يسقط كيد الكائدين يزيل ألما ويحقّ حقّا ويزيح ظلما ويطفئ نار فتنة ويسلِّم مصلحا بفك أيدي المفسدين وقبضاتهم من رميه بغير حقّ فينجوا ليستمر الإصلاح والأعمار وينتهي الإفساد وسفك الدماء في الأرض بغير حقّ.

وعليه: ألا يحقّ لنا أن نخلص بنتيجة مفادها أنَّ الكيد فتنة وأنَّ كيد الكيد إطفاء نارها. ولأنّ الأمر بالتمام هو كذلك، ألا يحقّ لنا أنْ نصف من يكون سببا في كيد العباد بأسواء الصفات وأن نصف المكيد للكيد بأحسنها؟

ولأنّ الإجابة لا تكون إلا بنعم إذا المكيد بالمطلق هو صاحبّ الصفة الحسنة بالمطلق والمكيد في دائرة النسبية هو صاحبّ الصفة النسبية، ولهذا لا مجال للمقارنة وعلى المستوى البشري فمن أراد ثوابا وجنةً عمل على كيد الكائدين ومن أراد ظلما ونار جهنَّم ليس له بدا إلا كيد العباد.

وباستقراء النص السابق نتبين مجموعة من القيم السالبة التي تؤسس المكائد عليها منها:

- التضليل.

- الاستغفال.

- الغدر.

- المخادعة.

- التحايل.

- المكر.

- الاستدراج في غير محله.

- التشكيك.

- قلب الحقّائق.

- الغش.
- تبييت لأمرٍ عن سوء نية.
- الكذب والافتراء.

أمّا المترتب على كيد الكائدين مجموعة من الأفعال منها:

- إنزال الضيم.
- التشويه.
- الإسقاط.
- إنهاء الدور أو الوظيفة أو الرسالة.
- الإداء.
- الإذلال.
- التسفيه.
- تقليل الشأن.
- إيقاد نار الفتنة.
- القتل.

ولتبيان أهمية هذه القيم في ارتكاب أفعال الكيد يتم تناول مجموعة من الآيات العظام من القرآن الكريم ذات العلاقة بالتحليل والتفسير استمدادا للقوّة الفكرية والمنطقية والقيمية والفضائلية التي ترشد إلى كشف مكائد الكائدين وكيدها من المكيد المطلق.

قال تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ}324.

قوله تعالى: (فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا) الكيد جاء نكرة بحيث يدل على أي كيد في دائرة الممكن ممّا يجعلك أحيانا متوقعا له ويجعلك أحيانا متفاجئا بأسباب عدم توقعك له، ولهذا يقول يعقوب لابنه يوسف عليهما الصّلاة والسّلام لا تستغرب من إخوتك إن كادوا لك كيدا، وهكذا هم فعلوا ما هو متوقع من قبل يعقوب وإن كان غير متوقعا من قبل يوسف لصغر سنه.

وعليه الكيد: هو العمل الذي يؤسس على المخادعة وسوء النية المبيتة في دائرة غير المتوقّع ولذلك يترتب عليه الاستغراب والمفاجئة وأحيانا نقص التصرف تجاهه ممّا يجعل البعض يقعون بأسبابه في الفخ، وقد لا يُفك عنهم بسهولة ويسر، ولذا يجدون أنفسهم بين أيدي الكائدين حيث لا قدرة ولا قوّة، فتكون المساومة أحيانا في غير موضوعية ومنطق، ويكون الثمن المترتب على ذلك غاليا إن لم يحدث التدخل الذي به يكاد كيد الكائدين وتكون ساعة الفرج بمفاتيح من المكيد المطلق قوّة وقدرة وعزة ونصرا.

ولهذا فالكيد هو فعل وعمل ممن نتوقع غير المتوقّع.

ولأنّ المكيد هو الله تعالى فهو بكيده المتين يكيد كيد الكافرين والمشركين والضالين والمنافقين والحاسدين والظالمين ويجعلهم في أسفل سافلين، مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا

324 يوسف 4، 5.

إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَاما عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ}325، ولأن كيد الكائدين مُكاد من المكيد المطلق فكانت النتيجة المترتبة على كيد الكائدين لإبراهيم سلامة إبراهيم ونجاته من النّار التي كانوا يظنون بأنها القاضية على إبراهيم وعمله الذي هو في مرضاة الله تعالى، ولهذا فالمكيد هو الناصر والنصير لعباده الصالحين من صديقين وأنبياء ورُسُل كرام صلوات الله وسلامه عليهم.

إذا أراد الكفَّار إهلاك إبراهيم فكانت النتيجة إهلاكهم، ولهذا فالمكيد هو نعم المولى ونعم النصير الذي ناصر إبراهيم ونصره على الكافرين والمشركين الذين دسَّوا له الدسائس والمكائد والحمد لله ربِّ المكيد لكيد الكائدين مهما تعدد وتنوع وكثر أصحابه ظلما وبهتانا.

وبنجاة إبراهيم من النّار التي كانت عليه بردا وسلاما بأمرٍ من الله تعالى أصبح إبراهيم في عليين محفوظا من الهلاك وكيد الكائدين، وأصبح الكائدون في أسفل السافلين سفلة في حسرة وألم شديد.

ومع أنَّ الكيد نكرة إلى أن يُعرَّف بنوع العمل أو الفعل أو السلوك، إلا أنَّ الكافرين هم دائما يكيدون كيدا، والكافرون هم

---

325 الأنبياء 62 . 72.

الذين يكفرون بالله تعالى ويكفرون بما نهى عنه وحرَّمه ويكفرون بالحقّ وأصحابه ويكفرون بأنبيائه ورُسُله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم ويكفرون بالعدل وميزانه، ولهذا فهؤلاء دائما هم المكيدون، مصداقا لقوله تعالى: {فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ}326 أي هم المغلوب أمرهم ولذا فهم لا يستطيعون قدرة ولا قوّة وليس لهم مفرا من الهزيمة ومغالبة ما يكيدون به المؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله ربُّ العالمين.

من طبيعة المكيدون من الكفرة والمشركون أنهم يتألمون إذا أصابت المؤمنين حسنة من الحسنات ويفرحون إذا أصابتهم سيئة وفي مقابل ذلك المؤمنون لا يتمنَّون مكروه لمؤمن بالله تعالى ولا لإنسان خُلق في أحسن تقويم، ولهذا فهم لا يُكرِهون أحدا على الإيمان حيث لا إكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي، ولكنهم يعلمون أن المكيدون لا خير فيهم مصداقا لقوله تعالى: {إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}327.

ولهذا فهم صابرون وهم يعلمون حقّا أن كيد الكائدين لا يضرهم شيئا وذلك لعلمهم بإحاطة المهيمن المحيط بما يعملون ويكيدون من ضلال ونكران، مصداقا لقوله تعالى: (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا) أي مهما كاد الكائدون يكادون بكيدٍ من المكيد المطلق.

ولهذا فالذين يسعون إلى كيد العباد في الحياة الدنيا يكادون في الحياة الآخرة أشد ممّا يكيدون به العباد وذلك يوم لا يغني عنهم

326 الطور 42.

327 آل عمران 120.

كيدهم شيئا مصداقا لقوله تعالى: {يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}328.

ولذا فالمكيد تعالى هو المكيد في الحياتين بالمطلق والمكيدون من النّاس ليس لهم كيدا إلا مؤقتا، وليس لهم نتيجة موجبة ولهذا فهم المكادون حيث لا ناصر لهم سوى ما يخبثون ويُبيّتون من سوء نية.

وعليه الكيد يُدبَّر من مدبِّر مسبقا ليحدث الكيد ويقع المكيد في المصيدة، ولهذا الكيد نسيج ممزوج بسوء النية وعمل يدبَّر لإيقاع من يُراد كيده في المصيدة، ولذلك فالكيد من أعمال التآمر الظالمة.

الكيد لا يكون إلا مع من هو على القوّة، أمّا الضعفاء فالمواجهة كافية لإزاحتهم من الطريق وإنهائهم دون تأسف، ولذا عندما لا يستطيع المكيد في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع على المغالبة يميل ويتجه إلى التحايل والمخادعة وإظهار ما لم يُبطن لأجل الالتفاف على من يراد كيده حتى يغدر به.

ولذلك فمن النّاس من لا يحبّ الخير لغيره وأن راءاه في خير تضيق الدنيا برحابة وسعها عليه، ولأن المكيد من النّاس لا يستطيع المغالبة في الحقّ يلتجئ إلى كيد الناجحين والمتميزين والصادقين والمصلحين المسلمين كما التجأ الكافرون والمشركون إلى كيد الأنبياء والرّسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم وكذلك كيد المؤمنون الذين اتبعوهم على الهدى والوحدانية.

ولأن المكيد تعالى واسع الفضل فكان لكيدهم المكيد بالمرصاد مصداقا لقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ

---

328 الطور 46.

يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}329.

لقد ظن أصحاب الفيل بكيدهم أنهم قادرون على تدمير الكعبة وإزاحتها من الوجود كفرا وطغيانا بغير حقّ، فاعدوا عدتهم وأفيالهم ليهجموا على الكعبة ومن فيها من المسلمين، ولكن المكيد العظيم كادهم بالقوّة والقدرة التي لم يمتلكون منها إلا القليل فبقيت الكعبة بقوته تعالى شامخة إلى اليوم وستكون إلى أبد الابدّين قبلة للمسلمين، ولهذا دائما كيد الكافرين في ضلال مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالحقّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}330، فمع أن موسى عليه الصّلاة والسّلام نبيا ورسولا مرسلا بآيات وسلطان مبين إلا أن فرعون وهامان وقارون قد كفروا وقالوا هذا ساحرا كذَّاب، ومع أنَّه قد آتاهم بالدليل إلا أنهم أصروا على أن تُقتل أبناء الذين آمنوا معه وأمروا المفسدين منهم في الأرض بأن يستحيوا نسائهم ولكن المكيد لكيد الكائدين حفظه وحفظ أبناء ونساء المؤمنين من كلّ سوء وشر وألم ولهذا كان كيد الكائدين في ضلال أي في غير محله (إنه كيد الضعفاء).

قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا

329 الفيل 1 . 5.

330 غافر 23 . 25.

وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ}331.

الكيد مكوّن قيمي سالب ممّا يجعل كيده (كيد الكيد) مسببا قيميا موجبا، ولهذا في كلّ كيد مسببات البطلان والفساد والإفساد، ولذا فإن الكيد لا يصمد أمّام الحقّ مهما تعاضد المتعاضدون في سبيله كيدا.

لو كان الكيد قادرا على أن يصمد لصمد كيد فرعون وهامان وقارون لموسى عليه الصّلاة والسّلام الذي بُعِث نبيا ورسولا إلى أن توفاه الله ورفعه إليه باقيا في المقامات العظام.

كلّ المكائد البشرية التي على غير حقّ هي مكائد شيطانية سواء كانت من شياطين الإنس أو الجن وهي ضعيفة لا تخيف المؤمنين الذي أسلموا وجهوهم لله طائعين، ولهذا المؤمنون يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ آَمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}332.

وعليه الكيد قد يكون على أيدٍ منها:

. يد رجل شيطاني.

. يد امرأة شيطانية، قال تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى

---

331 غافر 36، 37.

332 النساء 76.

بُرْهَانَ ربّه كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ}333، كلّ من يقرأ هذه الآيات الكريمة يتعرف على المكيدة التي حاولت أن تكيد بها امرأة العزيز يوسف عليه الصّلاة والسّلام الذي حفظه الله من مكائدها.

ـ يد جن شيطاني.

أمّا كيد الكيد فلا يكون إلا على يد الله تعالى أو الذين أمنوا به واحدا أحدا وأطاعوه بالمطلق عبادا مُصدِّقين صالحين ومصلحين لا مفسدين ولا مبدلين ولا سافكي دماء بغير حقّ.

وعليه؛ فقد اتخذ الملأ في ثمود مواقف متعددة من صالح رسول الله بعد أن أبلغهم أنّه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، منها:

1 ـ الشك الذي هو خلاف اليقين. وأصله اضطراب النفس، ثم استعمل في التردد بين الشيئين سواء استوى طرفاه، أو ترجح أحدهما على الآخر334، وموقف الشك أصاب العقول من قبل ولازال يصيبها إلى الآن، ولعل لنا أن نقول أن الشك مصدره التنازع بين الملموس والمحسوس، فالإنسان لا يفتأ الانتقال في هذه الحياة بين ماديتها وروحيتها بين مادية الحاجات، وروحية العقائد، لذلك فالشك

333 يوسف 23 ـ 28.

334 – الفروق اللغوية، ج 1، ص 209.

هو موقف، ولكن يجب أن يكون موقفا موجبا وذلك بان يكون وسيلة للوصول إلى الحقّيقة واليقين لا أن يكون أداة للكفر والنفي بدون ركائز حقّيقة لذلك الرفض.

وقد شك الملأ في صالح مع كونه من قبل عندهم من المرجوين أي الذين يُرجى من أفعالهم الخير والصلاح فقالوا له بنص ما أخبرنا المولى عزّ وجلّ: {وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}335.

فالشك هو أن يبقى الإنسان متوقفا بين النفي والإثبات والمريب هو الذي يظن به السوء، فقوله: (وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ) يعني به أنه لم يترجح في اعتقادهم صحة قوله وقوله: مُرِيبٍ يعني أنه ترجح في اعتقادهم فساد قوله وهذا مبالغة في تزييف كلّامه336.

إنّ شك ثمود في صالح لم يكن له مرتكز حقّيقي يقوم عليه بل هو وهم التكذيب والإنكار ليس إلّا، بل الأوّلى ألا يكون الشك وقد اعترفوا أنّ صالحا كان مرجوا عندهم من قبل.

2 . التكذيب وهو ادعاء الكذب على المقولة أو الفعل، بمعنى أن التكذيب يحصل في الحوار، وكذلك يحصل في المشاهدة.

هنا نتساءل:

هل كذّبت ثمود صالح رسول الله؟

أم كذّبت آيات الله؟

أم كذّبت إنذار صالح؟

---

335 – هود 62.

336 – تفسير الرازي، ج 8، ص 432.

نقول:

لقد كذّبت ثمود بكلّ ذلك، فقد كذب أوّل ما كذبت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ).

وسبب تكذيبهم صالحا أنهم رأوا في بشريته مانعا للتصديق برسالته فَقَالُوا مصداقا لقوله تعالى: {أَبَشَرًا مِنَّا وَأحدا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ}337.

وكأنّهم كانوا ينتظرون رسولا من غير جنسهم، والمسالة هنا تستحقّ أن نتوقف معها قليلا، فهذا المبرر التكذيبي ورد في أكثر من رسالة فقد قيل من قبل لنوح عليه الصّلاة والسّلام: {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا}338.

أنّنا نعتقد أنّ في هذا الادعاء بقية من كبر إبليس على آدم، فقد كان يرى في بشريته دونية تجعله يترفع عن السجود له طاعة لأمر الله كما يخبرنا عن ذلك العلاّم الخبير: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}339.

هذه البقية كانت ترى في بشرية الأنبياء مانعا لتكليفهم برسالة الله عزّ وجلّ، فلم ينظروا إلى القيم التي تحملها دعواتهم الإصلاحية، بل كانوا يركزون النظر في أفعالهم البشرية التي تتطابق مع أفعال هؤلاء المكذبين أو المدعوين للتكذيب بما جاء به الرّسول، مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ

---

337 - القمر 24-25.

338 - هود 27.

339 - الأعرف 12.

وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكلّ ممّا تَأْكلّون مِنْهُ وَيَشْرَبُ ممّا تَشْرَبُونَ}340.

عليه فإن هذا المبرر كان مبررا تشم فيه رائحة تعالي إبليس عليه اللعنة على البشرية.

وبعد ذلك فثمود كذبوا بآيات الله، فقد كذبوا بالناقة التي أرسلها الله حجّة معجزة لصالح صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوّلونَ وَآَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا}341.

كذلك كذبت ثمود بالوعد الذي أوعدهم إياه رسولهم صالح صلّى الله عليه وسلّم كما يخبرنا عنهم الحقّ جلّ وعلا: {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ}342.

أمّا التكذيب فكان لأسباب منها بشرية صالح كانت من أسباب تكذيبهم، ثم استحبّابهم الكفر (وَأمّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحبّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)، ثم بعد ذلك الطغيان مصداقا لقوله تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبّهمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}343.

فهل كذبت كلّ ثمود ما جاء به صالح صلّى الله عليه وسلّم؟

---

340 – المؤمنون 33.

341 – الإسراء 59.

342 – هود 65.

343 – الشمس 11-15.

لقد ورد سياق التكذيب لكلّ ثمود (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ)، ولكن هذا التعميم من أساليب العربية المعروفة التي تسمى التغليب، وفيه دلالة على أن الذين كذبوا كانوا أعم وأكثر من الذين صدقوا، فقد صّدق قلة من المستضعفين برسالة صالح.

الكيد وهو ما كاده المفسدون من ثمود بصالح وأهله، واخبرنا الله عزّ وجلّ عن تفصيل كيدهم فقال: (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ)، أي؛ قال بعضهم لبعض في أثناء المشاورة في أمر صالح، وتَقَاسَمُواْ بالله (لَنُبَيّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ) البيات مباغتة العدو مفاجأته بالإيقاع به ليلا وهو غافل. وأراد واقتله صلّى الله عليه وسلّم وأهله ليلا وهم غافلون.

(ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ) أي لولي صالح. والمراد به طالب ثأره من ذوي قرابته إذا قتل. والمعنى على ذلك قالوا متقاسمين بالله ليبيتنه قوم منا ثم لنقولن جميعنا لوليه (مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ) أي ما حضرنا هلاكهم على أنّ (مُهْلِكَ) مصدر كمرجع أو مكان هلاكهم على أنه للمكان أو زمان هلاكهم على أنه للزمان. والمراد نفي شهود الهلاك الواقع فيه. واختاروا نفي شهود مهلك أهله على نفي قتلهم إياهم قصدا للمبالغة كأنهم قالوا ما شهدنا ذلك فضلا عن أن نتولى إهلاكهم. ويعلم من ذلك نفي قتلهم صالحا عليه الصّلاة والسّلام أيضا لأن من لم يقتل اتباعه كيف يقتله، وفي الكلّام حذف أي ما شهدنا مهلك أهله ومهلكه344.

344 – تفسير الآلوسي، ج 14، ص 495.

من

صفات النبي صالح

1. رسول:

لما كانت أمم الأرض في القرون الأوّلى على شكلّ شعوب وقبائل متفرقة، منعزلة عن بعضها في نواحي الأرض، وكانت هذه الشعوب والقبائل بحاجة إلى منبه ينبهها، ومنذر ينذرها، ومصلح يهذبها بما يطهرها من الدنس والظلم والضلال، فقد اقتضت حكمة الله أن يرسل إلى الأمم والشعوب في قراهم وبواديهم وحواضرهم المنعزلة رسلا مبشرين ومنذرين، لئلا يكون لهم حجّة بالجهل والغفلة، وكان هؤلاء الرّسل يحملون مهمة واحدة، ذات أسس ومبادئ واحدة، فيمثلون إرادة مرسلهم بها، ويبلغون كتبه ووحيه، ويؤدون رسالته.

إنّ أوّل وظيفة نلاحظها من وظائف أي رسول من رسل الله عليهم الصّلاة والسّلام هي وظيفة تبليغ رسالات الله لخلقه، وهذا التبليغ يتطلب أسلوبا واعيا ومتقنا في كيفية التعامل مع مختلف المعتقدات والأفكار التي يحملها الخلق، وكيفية تذويبها وحلها وإدخال بدلا عنها دعوة الله تبارك وتعالى، فالرّسول في قومه معلم ومصلح، يقوم بوظيفة إنسانية تربوية أخلاقية وتعليمية من أجل الرفعة بمكارم الخلاق، ومن بين هذه الأساليب القول اللين، لأجل إتباع القدوة الحسنة.

يقول الله تعالى: {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ ربّه قَالُوا إِنَّا

بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}345. وقال تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}346 الآيات الأوّلى الكريمة تطرح فكر قوم صالح عليه الصّلاة والسّلام "وقد فرضوا كونه من المرسلين بحرف (إنْ) الدّال على الشكّ في حصول الشّرط، أي إن كنتَ من الرّسل عن الله فالمراد بالمرسلين من صَدق عليهم هذا اللّقب. وهؤلاء لجهلهم بحقّيقة تصرّف الله تعالى وحكمته، يحسبون أنّ تصرّفات الله كتصرّفات الخلق، فإذا أرسل رسولا ولم يصدّقْه المرسَل إليهم غَضِب الله واندَفع إلى إنزال العقاب إليهم، ولا يعلمون أنّ الله يُمهل الظّالمين ثمّ يأخذهم متى شاء"347.

أمّا قوله تعالى (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) أي إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ من الله ربكم، أرسلني إليكم، لطفا بكم ورحمة، فتلقوا رحمته بالقبول، وقابلوها بالإذعان، و(أَمِينٌ) تعرفون ذلك مني، وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بي، وبما جئت به348.

وعليه: كانت الحكمة من إرسال الرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم هي تحقّيق مصلحة خلقه في أرضه في مرضاته تعالى فهو بهم رءوف رحيم ورزاق كريم عظيم،

---

345 – الأعراف 75 – 77.

346 – الشعراء 141 – 144.

347 – تفسير التحرير والتنوير، ج 5، ص 364.

348 – تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 596.

ومن الحكمة في إرسال الرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم للخصوص والعموم والكافة هو للهداية والرشاد للحقّ أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإصلاح وإعمار في الأرض، ولذلك كان إرساله لرسُله تترى بحيث كلّما ابتعد النّاس أو بعضا منهم عن الجادة بعث فيهم ولهم رسولا مبشرا وداعيا وهاديا لإتباع الحقّ ومنذرا من أجل مستقبل أفضل، وساعيا في الخيرات قولا وعملا وفعلا، قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرّسل أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ}349.

والرّسول في اللغة: هو الذي أمره المرسل بأداء الرسالة بالتسليم أو بالقبض. وفي الشريعة: إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام.

قال الكلّي، والفراء: كلّ رسول نبي، من غير عكس. وقالت المعتزلة: لا فرق بينهما، فإنه تعالى خاطب محمّدا مرة بالنبي، وبالرّسول مرة أخرى350.

والنبي: من أوحي إليه وحيا خاصا من الله بتوسط ملك أو بإلهام في قلبه، أو بالرؤيا الصالحة.

وقد ختمت النبوّة وانقطع الوحي بخاتم الأنبياء محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فالرّسول أخص منه لانّ الرّسول هو من أوحي إليه بالرسالة، وأمر بتبليغها351.

الرّسول هو إنسان حرٌّ ذكر بالغ فطن أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه للعباد سواء أكان له كتاب أم لا.

---

349 - المائدة 19.

2-التعريفات للجرجاني، ج 1، ص 36.

351 351 - معجم لغة الفقهاء، ج 2، ص 78.

فخرج الملائكة والجن فإنّ الله تعالى لم يرسل إلينا ملكا ولا جنيا، وخرج العبد لأنّ الرّسول لا يكون إلا حرا، وخرج الأنثى والخنثى والصبي، وخرج الأبله والبليد والمتنبئ وهو من يدعي النبوّة وهو كذاب، وخرج أيضا من هذا التعريف النبي لأنّه قال: "أمره بتبليغه" فالنبي هو إنسان حر بالغ فطن أوحى الله إليه بشرع وإن لم يؤمر بتبليغه للخلق

، فالرّسول أخص من النبي والنبي أعم، فكلّ رسول نبي وليس كلّ نبي رسولا، فبعض النبي رسول وبعض النبي ليس برسول إذا لم يؤمر بالتبليغ[352].

إن الرّسول صالح عليه الصّلاة والسّلام خاطب قومه بأمور منها:

قوله: َ(تُتْرَكُونَ فِيمَا هاهنا ءامِنِينَ) أي أتظنون أنكم تتركون في دياركم آمنين وتطمعون في ذلك وأن لا دار للمجازاة.

وقوله: (فِيمَا هاهنا ءامِنِينَ)، في الذي استقر في هذا المكان من النعيم، ثم فسره بقوله: (فِي جنات وَعُيُونٍ)، وهذا أيضا إجمال ثم تفصيل، فإن قيل: لِمَ قال: (وَنَخْلٍ) بعد قوله: (فِي جنات)، والجنّة تتناول النخل جوابه من وجهين:

الأوّل: أنّه خص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيها على فضله على سائر الأشجار.

والثاني: أن يراد بالجنات غيرها من الشجر، لأنّ اللفظ يصلح لذلك، ثم يعطف عليها النخل، والطلع هو الذي يطلع من النخلة كنصل السيف في جوفه شماريخ، والهضيم اللطيف أيضا من قولهم:

---

352 تهذيب شرح السنوسية أم البراهين، ج 1، ص 107.

كشح هضيم، وقيل" الهضيم اللين النضيج وكأنّه قال: ونخل قد أرطب ثمره.

ثانيها: قوله تعالى: (وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتا فارهين)، والفراهة الكيس والنشاط، فقوله: (فارهين) حال من الناحيتين.

واعلم أن ظاهر هذه الآيات يدل على أن الغالب على قوم هود هو اللذات الحالية، وهي طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر، والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية، وهي طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة.

وثالثها: قوله تعالى: (وَلاَ تُطِيعُواْ أَمْرَ المسرفين)، وهذا إشارة إلى أنه يجب الاكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف، ولا يجوز التوسع في طلبها والاستكثار من لذاتها وشهواتها، فإن قيل ما فائدة قوله: (وَلاَ يُصْلِحُونَ) جوابه: فائدته بيان أن فسادهم فساد خالص ليس معه شيء من الصلاح، كما يكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح353.

والرّسول: هو من بعثه الله – عزّ وجلّ- إلى المخالفين ليبين لهم الدين والنبي: هو المخبر عن الله – عزّ وجلّ- فكلّ من أوحى إليه الله، فهو نبي بُعث إلى أهل الدين يحتاجون إلى النبي يأمرهم وينهاهم ويذكرهم لذا قال سبحانه وتعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}354.

---

353 تفسير الرازي، ج 11، ص 496.

354 الحشر 7.

لَقَدْ جَاءَكُمْ أيها المسلمون عمومًا والعرب خصوصا.

الرّسول هو: من أوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه.

وأمّا النبي فهو: من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه.

هذا التعريف المشهور عند أهل العلم، ويذكره المفسرون عند قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}355.

فالرّسول: هو الرجل المبعوث من الله إلى النّاس بشريعة.

والنبي: مَن أوحَى الله إليه بإصلاح أمر قوم بحملهم على شريعة سابقةٍ أو بإرشادهم إلى ما هو مستقر في الشّرائع كلّها فالنبي أعمّ من الرّسول، وهو التحقّيق.

وقد يوحى إلى النبي وحي خاص في بعض القضايا، لكن الغالب أنه يُبعث بشريعة سابقة، كأنبياء بني إسرائيل، أمّا الرّسول فإنه يُبعث بشريعة مستقلّة.

والمراد بتبليغه هنا: الجهاد والإلزام، أي: أُمر أن يُلزم النّاس بإتباعه، ويجاهدهم على ذلك، خلاف النبي فإنه يؤمر بالتبليغ، بمعنى: تعليم النّاس شرع من قبله وإفتائهم فيه. وهذا مأمور به غير الأنبياء، حتى العلماء.

فالتبليغ الذي معناه التعليم والإفتاء، وبيان الحلال والحرام والحقّ من الباطل، هذا مأمور به كلّ من عنده علم، إنما المراد بالتبليغ هنا:

---

355 الحج 52.

التبليغ الخاص الذي هو الإلزام، والجهاد على ذلك. والنبي أيضا يجاهد. لكن يجاهد على شرع من قبله. (مِنْ أَنْفُسِكُمْ) أي: من جنسكم من العرب، تعرفون لسانه، ويخاطبكم بما تعرفون، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}356، فهذا من نعمة الله أن جعل هذا الرّسول عربيًّا يتكلّم بلغتنا، ولم يجعله أعجميا لا نفهم ما يقول، ولهذا قال: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}357.

وما جاء به الرّسول هو:

الدعوة إلى التوحيد والدعوة إلى إفراد الله بما يستحقّه من لأسماء والصفات والرّبوبية والألوهية وترك الشرك وأهله، الدليل على ذلك قوله: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ}358، أي؛ عظِّمه بالتوحيد.

2. مصلح:

المصلح هو الذي لا يَقدم على عملٍ إلا وفيه صلاح للعباد، ولذلك فالمصلح قوله حقّ وفعله حقّ، وهو الذي لا يظلم أحدا، وهو الذي يعمل في الأرض من اجل صلاحها ولا يفسد فيها ولا يسفك الدماء بغير حقّ.

356 إبراهيم 4.

357 فصلت 44.

358 المدثر 1 – 3.

المصلحون كغيرهم من النّاس قد يتعرضون إلى صد وتكذيب كحال النبي صالح عليه الصّلاة والسّلام، إذ يقول تعالى: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ ربّه قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبّونَ النَّاصِحِينَ}359.

هذا التكذيب والصد لا يعود أثره السّالب إلا على فاعليها ممّا يجعل المصلحين هم دائما مصلحون.

إذا المصلح هو من يكون موّفقا في حياته ومماّته ويوم بعثه فيكون لمن بعده أسوة حسنة لمن يريد اتعاظا.

العمل الصالح هو الذي يكون في مرضاة الله تعالى، والعمل غير الصالح هو العمل الفاسد الذي لا يُرضي الله عزّ وجلّ، فعقر الناقة كان إيذانا بالخروج عن مر الله تعالى، فهذا الفعل هو عمل غير صالح يترتب عليه بعد ذلك العقوبة، يقول تعالى: {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ}360.

والصلاح ما ليس بفساد وهو لا يكون إلا على الهداية والطاعة التامة لله ربُّ العالمين. والمصلح هو المصلح في ذاته من ذات الله تعالى، فهو الذي خُلق في أحسن تقويم وكان من المستخلفين في

359 - الأعراف 75 – 79.

360 - الأعراف 77، 78.

الأرض ليعمل صالحا يرضاه الخالق، فالمصلح هو من يَصلُح للحياتين ويرث فيهما خيرا كثير، قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}361.

ولأنّ صالح من الأنبياء والمرسلين الكرام صلّى الله عليهم وسلّم فهو بدون شك من الصالحين الذين هُم رفيعي الدرجات في مرضاة الله وطاعته وحُسن خَلقه وخُلقه، قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}362.

ولأنّ كلّ الأنبياء من الصالحين (كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ) فنحن لا نميّز بين احدٍ من رُسُله وقالوا سمعنا وأطعنا، إنهم الأنبياء والرّسل الصابرين الطائعين الصالحين الذين أدخلهم الله في واسع رحمته مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ

361- البقرة 25.

362- الأنعام 83 . 86.

الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}363.

المصلِح هو من يُسهم في إصلاح لمفاسد الآخرين، والمصلح هو من لا يؤمن إلا بما هو خير وفي مرضاة الله وهو الذي لا يؤمن أن يكون على غير ذلك قولا وعملا، ولهذا يتوجَّه بالعمل الصالح للآخرين ليُسهِمَ في إصلاح أحوالهم لأنه في ذاته مصلحا والله تعالى جعله على الصلاح، ولهذا، لم يكن هدفه من إصلاح الآخرين أو الإصلاح من أجلهم ليكون صالحا، فالصلاح بالنسبة له لا يعد مطلبا يرجوه بل الصلاح هو صفة له ويتصف به قولا وعملا وفعلا وسلوكا، ولذا؛ فهو لا يعمل إلا صالحا، قال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}364، وعندما يكون أهل الأرض (سكانها) يصلحون أحوالهم ولا يفسدون فيها ولا يسفكون الدماء بغير حقّ يتصفون بصفة الإصلاح الذي هو من الإعمار والبناء وسيادة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة بين أهلها وسكانها.

وعليه فالمصلح هو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والآمر هو من بيده امتلاك الأمر واستصداره والقدرة على تنفيذه ومعاقبة من لم يستمع أو ينتهي أو يجتنب أو يتوقف ويمتنع أو يَقدِم دون تردد.

ولأن أمر الآمر تعالى نافذ إذا لا مرد لأمره فالمنافقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الآمر به أن يوصل ويفسدون في الأرض فأوّلئك هم الخاسرون مصداقا لقوله تعالى:

363- الأنبياء 85. 88.

364- هود 117.

{الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أوّلئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}365.

ولأنّه الآمر عزّ وجلّ فأمره لابدّ وان يكون مفعولا، قال تعالى: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا}366.

ولذا فإن تساءل أحد:

ما هو المفعول في الآية السابقة؟

إنَّه الأمر.

وأمر من الذي كان مفعولا؟

أمر الله تعالى.

إذا من هو الآمر؟

هو الله سبحانه أنه الآمر تعالى.

أمّا الأمر فهو كلّ ما يتعلق بالمخلوق فعلى المستوى البشري الأمر غير محدد يمكن أن يكون أمر زواج ويمكن أن يكون أمر طلاق ويمكن أن يكون أمر مشاركة وتعاون وإعمار وإصلاح في الأرض ويمكن أن يكون أمر إفساد وسفك دما فيها بغير حقّ ويمكن أن يكون الأمر سياسة داخلية أو سياسة خارجية ويمكن أن يكون أمر سلم أو أمر حرب ويمكن أن يكون أمر قتال وجهاد وغيره كثير ولذلك فأمر الآمر يتعدد ويتنوع فقد يكون الأمر هو الفتح الذي به يدخل المسلمين الأمصار بعد أن تتم دعوة أهلها للهداية أو أن يكون الأمر اتفاق تتم

---

365 البقرة 27.

366 النساء 47.

به المعاهدات والمواثيق التي تنص على تبادل المنافع والتعاون إلى حين الهداية وهكذا، قال تعالى: {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ}367.

ولأنّه الآمر الأعظم فقد أمر بالقسط الذي يسود به العدل بين النّاس فيما هم فيه يختلفون وكي لا يظلم أحدا أحدا، قال تعالى: {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كلّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ}368.

ومع أنَّه الآمر بالمطلق وهو ربُّ العالمين إلا أن البعض من النّاس يضلون السبيل ويجنحون إلى الكفر والشرك والفساد في الأرض فالذين عقروا الناقة وعتوا في الأرض مفسدين فأوّلئك الكفرة لم يفلتوا من أمر الآمر، قال تعالى: {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ ربِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}369.

ومع أنَّه الآمر تعالى وأمره يقين إلا أن البعض من البشر تهيئا لهم أنهم قادرون على قلب الأمور عن مواضعها ولهذا كان المنافقون مقلَّبين للأمور ولكن أمر الآمر نافذ ولو كرها الكافرون والمنافقون والمجرمون وبعد أن جاء الحقّ مؤيدا ومناصرا للنبي عليه الصّلاة والسّلام عرفوا أنهم مهما قلَّبوا له ولقومه من الأمور فهم على يقين بالحقّ الذي جاءهم به الحقّ، قال تعالى: {لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الحقّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ}370.

---

367 المائدة 52.

368 الأعراف 29.

369 الأعراف 77.

370 التوبة 48.

وعندما يصدر الآمر أمره فلا راد له فقد أصدر أمره بالغرق لقوم نوح الذين سخروا منه وكفروا بما دعاهم إليه من دين وهداية ولكن ضعاف القلوب والإيمان ظنوا أنهم إن التجئوا إلى الجبل سيعصمهم من الغرق كما فعل ابنه الذي ليس من أهله ولأن أمره تعالى نافذ فلم يعصمه الجبل من الغرق ولهذا كان من الغارقين، قال تعالى: {قَالَ سَآَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ}371.

ولأنه الآمر وأمره مؤسس على قوله (كن) لذا فإن أراد لشيء أن يكون لابدّ أن يكون في المكان والزمان والعمر الذي يشاءه، فعندما أراد أن يكون لإبراهيم الولد مع انه شيخ كبير كان له الولد بالأمر كن برغم أن زوجه عجوز، قال تعالى: {قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}372.

ولأنه الآمر فقد أمر بعبادته واحدا أحدا حيث لا شريك له في الملك والأمر سبحانه أنّه الله الواحد القهّار، وأوّلو الألباب هم الذين أدركوا أمره فأمنوا أمّا أوّلئك الضعفاء فهم في حاجة لمن يرشدهم إلى

371 هود 43.

372 هود 72 ـ 76.

الحقّ، قال تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}373.

ولأنّه الآمر فأمره على أوجه:

. أمرُ يتعلق بحادثة معينة أو شخص معينا فيكون الأمر مقتصرا عليه ويمكن أن يتم الاقتداء بالأمر الذي جاء بذلك الشأن كأمر يونس في بطن الحوت وأمر أهل الكهف وأمر الغراب الذي بحث في الأرض ليواري سوءة أخيه وأمر سليمان والهدهد وأمر القرى التي آمن سكانها والقرى التي سكانها كفروا وأشركوا وعصوا وأمر نوح والطوفان وأمر قارون وفرعون وأمر الأمم السابقة وغيرهم كثير.

. أمرُ قد صدر والعمل به لا ينقطع كالتكاثر والصّلاة والصوم والحج والزكاة الجهاد والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

. أمرُ دائما يتجدد ولا ينقطع بين السماء والأرض وإنْ انقطع مؤقتا على جزءٍ منها كالسحاب والرياح والأمطار.

. أمرُ لا يقتصر على أحدٍ بذاته ويلحقّ الذين آمنوا وأخلصوا دينهم لله واحدا أحدا كالابتلاءات التي تصيب البعض.

. أمرُ يعم وحاله لا يستقر كالمرض والشفاء.

. أمرُ للخصوص كالعقم والعقر وهو الأمر الدائم لمن يشاء.

. أمرُ يعم ولا يخص كالحياة والموت والبعث.

. أمرُ يمكن توقُّعه مثل درجات الحرارة وسقوط الأمطار وهبوب الرياح والعواصف وغيرها كثير.

---

373 يوسف 40.

. أمر قد وقع وانتهى وهو أمر اصطفاء الأنبياء والرّسل الكرام عليهم الصّلاة والسّلام.

. أمر لا يقتصر على المنزِل عليه وملزم لمن آمن به وهو الدعوة والتبشير بما جاء به محمّد عليه الصّلاة والسّلام (الرسالة الخاتمة).

. أمرُ لا يقتصر على دين أو شعب أو أمة بل هو عام (كفار ومشركين ومؤمنين) وهو مواصلة الأرحام طاعة لأمر الآمر.

. أمرُ نعلمه ولا نعلم كيفيته وحيثياته ولا حتى صفاته كأمر الروح التي هي بيد ربِّ، قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}374.

. أمرُ سيقع وهو غير المعلوم (أمر الغيب).

ولأنه الذي أمر بمواصلة الأرحام فهو الذي يرى في مواصلتهم رحمة مصداقا لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ}375.

الآمر عزّ وجلّ قد صدر شيء من أمره وهو كلّ أمر بيِّن وشيء لم يصدره وهو علم الغيب فما صدر من أمر ليس لنا بدا إلا الطاعة والذي سيصدره متى ما يشاء فنحن له طائعين ولا تغيير لما يشاءه الله عزّ وجلّ، ومع أنَّه الصادر لأوامره ونهيه فهو الذي أمر ويأمر وهو الذي يترك الالتزام بالأمر من عدمه بيد الذين صدر لهم الأمر ولهذا جعل الحساب مؤجلا ثوابا أو عقابا، فلا استعجال في أمره والفرصة بين أيدي خلقه متاحة وهو الغفور لمن يستغفر ويكفِّر عن سيئاته

374 الإسراء 85.

375 الرعد 21.

وهو الرّحمن الرّحيم، قال تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}376.

ولأنّه الآمر فمن أطاع أمره اهتدى إلى السبيل الحقّ وهو من المسلّمين وجوههم وأمرهم إليه كالملائكة الذين سجدوا لآدم طاعة لأمر الآمر عزّ وجلّ، وإن عصى كما عصى إبليس فكانت عليه اللعنة وهو في أسفل السافلين، قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ ربّه أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}377.

وكثير من الذين عتوا عن أمر الآمر تعالى قد أُخذوا بما أتوا به من كفر وشرك وفسق ونفاق وظلم وضلال كالذين أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، قال تعالى: {فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ}378، وقال تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا}379.

ولأنّه الآمر فهو المنِزلُ للأمر على من يشاءه متى ما شاءه ومع ذلك جعل لليلة القدر خصوصية تتنزّل الملائكة والروح فيها ويتنزّل الأمر فيها بإذنه على مختلف أنواعه وأشكاله وثماره ونعمه وأحكامه،

---

376 النحل 1، 2.

377 الكهف 50.

378 الذاريات 44.

379 الطلاق 8، 9.

قال تعالى: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ ربّهمْ مِنْ كلّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}380.

ولأنّه الآمر فهو الذي أمر قوم موسى بذبح البقرة مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}381.

ولأنّه الآمر فهو الذي أمر عباده بأن يؤدوا الأمّانات إلى أهلها وهو الذي أمر بالحكم العدل بين النّاس وفقا للمواعظ التي أمر بها، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمّانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}382، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}383.

ولأنّه الآمر بالمطلق فلا أمر مطلق إلا له تعالى، قال تعالى: {يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كلّهُ لِلَّهِ}384.

ولأنّه الآمر قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسول وَأُوّلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرّسول إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}385.

---

380 القدر 4، 5.

381 البقرة 67.

382 النساء 58.

383 النحل 90، 91.

384 آل عمران 145.

إذا طاعة الرّسول طاعة للآمر.

طاعة أوّلي الأمر في غير معصية لله هي طاعة للآمر.

إعادة ما يتم الاختلاف عليه إلى الله والرّسول هو طاعة للآمر الذي أمر بذلك.

ولأنّه الآمر فهو مُدبر الأمر (أي أمر) قال تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}386.

وعليه فلمن الأمر؟

للذي بيده الأمر (الآمر).

ومن هو الآمر؟

هو الله الواحد القهّار الذي بيده الأمر جميعا، قال تعالى: {بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا}387.

إذا الذي بيده الأمر هو مُدبره بالمطلق ولا مدبر معه للأمر سبحانه أنّه الله، قال تعالى: {لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ}388. وقال تعالى: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}389.

---

385 النساء 59.

386 يونس 31.

387 الرعد 31.

388 الروم 4.

389 السجدة 5.

وعلى الخليفة أن يتبيّن كلّ أمر يتعلق بأمره في الحياة سواء أكان مع نفسه أو مع محيطه من الأقارب والأباعد وسواء أكان مع الآخرين على المستوى الإنساني وأن يرسم سياساته وفقا لِما أمر الله تعالى ليكون خير خليفة في الأرض وخير وارث في الدارين.

أمّا الناهي فهو من له صفة النهي عن مسببات الانحراف الذي يؤدّي بصاحبّه إلى المهالك. ذلك لأنّ الناهي هو الذي يعلم ما يترتب على ارتكاب الأفعال التي تؤدّي إلى المهالك قبل أن تُفعل فينهى عنها حيطة. وهو المبيِّن لِما هو حرام ولما هو حلالا وما يقع بينهما من معطيات تؤدّي إليهما فينهى عن المؤدي السالب ويحث ويحرض على المؤدي الموجب إنه الله.

ومن ثمّ؛ فالناهي المطلق هو علّام الغيوب يعلم بكلّ أمر ويبيِّن كلّ أمر وما يترتب عليه من موجبات أو سلبيات ويترك حرية القرار والاختيار لمن خلقهم في أحسن تقويم ليقرروا بإرادة كي يتحمّلوا ما يترتب على ما يرتكبون ليكونوا من المستخلفين في الأرض والوارثين أم لا يكونون.

وفي اللغة "النَّهْيُ خلاف الأَمر نَهاه يَنْهاه نَهْيا فانْتَهى وتناهى كَفَّ؛ والنِّهايةُ كالغاية حيث يَنْتَهِي إليه الشيء وهو النِّهاء"390

ولأنّ الناهي هو الله تعالى فقد نهى أوّل ما نهى رسوله الكريم محمّد عليه الصّلاة والسّلام عمّا دعوه إليه الكفرة والمشركين الذين اتخذوا من دونه أرباب بأن يشاركهم عبادة الأوثان فطلب منه أن يقول لهم إنَّ الله قد نهاني عن عبادتها وعليكم أن تنتهوا فإن تنتهوا فهو خير لكم، ويقوله لهم أنا رسول الله يوحى إليَّ فما تدعون إليه هو من دونه تعالى

390 لسان العرب، ج 15، ص 343.

فهو الخالق الأعظم والواحد الأحد فإن اتبعت أهواؤكم إذا قد ضللت فكيف أكون وأنا من المهتدين الذين إلى سبيله يدعون ولا يُشركون، قال تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}391، وقال تعالى: { قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}392.

وعليه من الآيتين السابقتين من الذي نهى الرّسول محمّد عليه الصّلاة والسّلام؟

ـ الله تعالى.

وبأيّ صفة من صفاته الحسنى قد نهاه؟

ـ بصفة الناهي.

إذا لا ناهي بالمطلق إلا الناهي المطلق عزّ وجلّ.

ولأنّه الناهي عزّ وجلّ فقد نهى عن كلّ ما من شأنه أن يُذهب العقل ويُسيء للأخلاق ويسيء بحسن التصرف ويؤدّي إلى الشقاق وإيقاد نار الفتنة ويُدخل الشيطان في الأعمال التي تذكي العداوة والبغضاء بأسباب متعددة منها شرب الخمر ولعب الميسر الذي يصد العباد عن ذكر الله وذلك بافتتانهم بلعبه وانشغالهم به عن ذكر الله وعن أداء العبادات التي منها الصّلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فمن ينتهي فقد فاز ومن لم ينته فقد ضل وما ربك بظلام للعبيد، قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ

391 الأنعام 56.

392 غافر 66.

وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصّلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}393.

الناهي غايته من الانتهاء هو التكفير عن الكبائر فالذي دخل في دائرة الكبائر ثم انتهى طاعة لله الناهي عن الكبائر يكفّر عنه سيئاته ويُدخله مدخلا كريما مصداقا لقوله تعالى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا}394.

الناهي ينهى كي لا تكون الفتن والشقاق والعداوة والبغضاء والاقتتال بين العباد، ولذا جاء نهيه للذين نقضوا مواثيق عهدهم من المشركين بالقتال لا بالنصيحة والرأي فهم مشركون وناقضوا عهد وموثق فهؤلاء هم أئمة الكفر الذين لا إيمان لهم ولهذا قتالهم حقّ وهو الذي قد يكون المسبب في انتهائهم عما سبق نهيهم عنه مع الذين آمنوا، قال تعالى: {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرّسول وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أوّل مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحقّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}395.

ويقال أنَّ من بين أئمة الكفر: "أبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبو سفيان، وسهيل بن عمرو، وهم الذين همُّوا بإخراج النبي والذين أمنوا"396.

393 المائدة 91.

394 النساء 31.

395 التوبة 12، 13.

396 تفسير الطبري، ج 14، ص 154.

الناهي تعالى هو الذي قال في كتابه الحكيم: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرّسول لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}397، وقال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}398.

إذا طاعة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وأمره طاعة لله تعالى، ونهي الرّسول هو نهيا من عند الله تعالى، فنهي الرّسول من نهي الناهي الأعظم عزّ وجلّ، ولذا فالتناهي بين المؤمنين من أجل إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل هو طاعة لأمر الناهي تعالى، فالذين آمنوا بالحقّ مع محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هم متناهون ولهذا فهم لا يتماثلون مع اليهود الذين لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه مصداقا لقوله تعالى: {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}399.

الناهي هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}400.

ولأنّه الناهي الأعظم جعل العبادات يومية وأسبوعية وسنوية وليلية ونهارية وفجريه ومغربية أي لم يقصرها على وقت من أوقات اليوم بل جعلها مبثوثة فيه لتعم اليوم بكامله فالصّلاة خمسة مرات فرضا وتتبعها نوافل من ورائها حِكم هو يعلمها ونحن نعظِّمها ولذا فممّارسة العبادات طاعة لله تعالى تنهى عن الفحشاء والمنكر بذكر الله ولذكر

397 آل عمران 132.

398 الحشر 7.

399 المائدة 79.

400 النحل 90.

الله أكبر، قال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصّلاة إِنَّ الصّلاة تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}401.

ولأنّه الناهي فهو الناهي لذوي العقول الذين يتذكرون ويتدبرون ويتّقون ربّهم فيما هم عليه قائمون وله فاعلون فهم الذين يحمدون الله على ما آتاهم من نعم ورحمة والذين يتدبرون ويتفكرون ويتذكرون وهؤلاء هم أوّلو النهى الذين قال عنهم تعالى في كتابه الحكيم: {كلّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِأوّلي النُّهَى}402، وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِأوّلي النُّهَى}403.

والخليفة في الأرض هو الذي يقف عند كلّ حدٍ حدَّه له الناهي وأن لا يتجاوزه فإن تجاوزه خرج من دائرة المستخلفين في الأرض وإن وقف عند حدِّهِ الذي حُدِّدَ له وانتهى عنده كان من المستخلفين فيها، وعليه أن يتبع ما نهى عنه الرّسول الكريم محمّد عليه الصّلاة والسّلام فنهيه من نهي الناهي، وإن يقبل التناهي من الذين هم لربّهم طائعون وأن ينهى غيره من الذين يمرون على ما نهى الله عنه مر الغافلين وعليه أن يُذكِّرَ وينهى من أجل الحقّ وإحقّاقه والباطل وزهقه ويتقي الله تعالى ربّه في كلّ تذكيرٍ وأمر ونهيٍ.

اللهم الناهي اجعلنا منتهين عمَّا نهيت وطائعين لِما أمرت، اللهم إنك نهيت عن الكفر والشرك بك فبك أمنَّا، اللهم الناهي قلت وقوله

401 العنكبوت 45.

402 طه 54.

403 طه 128.

الحقّ: (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصّلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) اللهم فاشهد أنَّا منتهين وللشيطان وأعماله لاعنين طاعة لك ولرسولك الكريم ولما أمرت ونهيت، (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزّة عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

3 . مرحوم:

مرحوم اسم دائم بفعل دائم، فعندما يُمد حرف الواو بقراءة في اتصال كأنّه لا ينقطع، يتبين للقراء العطاء الدائم من الاسم الرّحيم الدائم، أي يتبين لهم أنَّ الأفعال تُحمل في هذه الكلّمة، ما يجعل الرّحمة قيمة والمرحوم فاعل لهذه القيمة، والنبي صالح صلّى الله عليه وسلّم مرحوم، إذ يقول تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}404 "وكأن صالحا قد ارتضاهم حكما فقال: أخبروني إذا كنت أنا على بينة من ربي ويقين بأنّه أرسلني وأيّدني، وأنا إن خدعت النّاس جميعا فلن أخدع نفسي، فهل أترك ما أكرمني به ربي وأنزل إليَّ منهجا

404 - هود 63 – 66.

أدعوكم إليه؟ هل أترك ذلك وأستمع لكلّامكم؟ هل أترك يقيني بأنه أرسلني بهذه الرسالة وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً وهي النبوّة؟ "405.

ولأنّ الرّحيم هو القوي المطلق، لذا؛ فهو الشديد المطلق، ولهذا؛ فهو الرّحيم على الرحماء فيما بينهم والشديد على الأشداء فيما بينهم، والرّحيم هو دائما قوي في مقابل ضعيف، وهو الذي يمتلك القوّة التي بها يشتد الكرب على المكروب أو بها يُفرج عنه، {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}406 نلاحظ من هذه الآية الكريمة وجود خائف ومخيف، والخائف في حاجة ماسة لرحمة من مخيفه، ولأن مصدر القوّة في هذه الآية هو الله فكان بالخائفين منه رءوف رحيم، وذلك لاعترافهم بقوته وإعلانهم عن مخافته بعد معرفتهم بما ألمّ من عقاب بالذين سبقوهم بالمعصية، ولهذا ترتب على الخوف تأجيل العقوبة وإتاحة الفرصة للإنسان ليتذكر ويُفكر حتى يأتيه اليقين رأفة به ورحمة.

إذا كلّ رحيم قادر على أن يقوم بأفعال الرّحمة مباشرة وبدون إنابة، ولذا لا يمكن أن تكون أفعال الرّحيم خالية من الرّحمة، ولهذا كلّ أثرٍ من رحيم هو أثر رحمة، وبما أن الأمر كذلك إذا بطبيعة الحال تكون الرّحمة صفة للرحيم. وبما أنّ الرّحمة صفة، إذن الاتصاف بها ممكنا، وبما أنه ممكن فالاقتداء بأفعالها كما يود لها أن تكون يجعل الإنسان خليفة.

---

405 – تفسير الشعراوي، ج 1، ص 4428.

406- النحل 45. 47.

ولارتباط الرّحمة بالرّحيم، نلاحظ أينما وُجِدَ رحيم وجدت الرّحمة، وأينما غاب رحيم غابت الرّحمة. ولأن الله هو الرّحمن الرّحيم الذي لا يغيب فإن رحمته لن تنقطع، حيث قال تعالى: {عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كلّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرّسول النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أوّلئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}407.

ولأنّ العذاب عام والرّحمة خاصة، لقد جاءت قضايا العذاب جامعة مانعة، جامعة للذين يحقّ عليهم العذاب، وتستثني الذين يقومون بأفعال الرّحمة. أمّا قضايا الرّحمة فهي قضايا جامعة لا مانعة، جامعة لكلّ من يقوم بأفعال الرّحمة ومستوعبة لكلّ من يُكفِّر عن سيئاته متى ما يشاء.

وأمّا مسألة الخصوص والعموم في الرّحمة، فإنّ رحمته تعالى التي وسعت كلّ شيء فقد دخل في عمومها المؤمن والكافر في الحياة الدنيا، لأن الله سبحانه وتعالى يرزق الفريقين برحمته، ويلطف بهم برحمته، وينظر كيف يفعلون، وأمّا الآخرة فرحمته تعالى مترتبة على شكر الإنسان لرحمة الدنيا، وعليه فإن الرّحمة تكون على العموم في الدنيا، وللخصوص في الآخرة، ولذا فإنّ العذاب والرّحمة لخصوص العموم من كلّا الفريقين.

407 - الأعراف 156، 157.

إذا الرّحمة أمل ينبغي أن يسعى الإنسان إلى بلوغها ولا ينبغي له أن ييئس، فاليأس هو انقطاع الصلة بين الرّحمة ومن هو في حاجة إليها وبين الرّحيم الذي بيده أمر القيام بالفعل، والأمل هو الصلة التي بها يتم إشباع الحاجة التي هي في نفس الخليفة الراغب في مرضات من استخلفه في الأرض.

ولذا؛ فالرّحمة والأمل أمران مترابطان مثل ترابط المثير والاستجابة، فلولا الأمل ما تحقّقت الرّحمة، ولولا الرّحمة ما تحقّق الأمل. وعليه الرّحمة في ذاتها مُعطية بلا فعل، والأمل في ذاته أيضا معطية بدون فعل، ولهذا كان وراء كلّ رحمة رحيم ووراء كلّ أمل مرحوم.

وتتعدد أفعال الرّحمة بتعدد ما يُقدَّم من أعمال حِسان، {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}408؛ فلننظر إلى هذه الآية الكريمة والكيفية التي تتعدد الرّحمة فيها:

ألا تُعد صلاة الله على الخليفة رحمة.

ألا تُعد صلاة الله وملائكته على الخليفة رحمة.

ألا يُعد الإخراج من الظلمة رحمة.

ألا يُعد دخول النور رحمة.

ألا تُعد رحمته بالمؤمنين رحمة.

ألا يُعد وجود الرّحمة في ذاته رحمة.

ألا يُعد اسم الرّحيم الفاعل للرحمة رحمة.

---

408 الأحزاب 43.

بناء على هذه المعطيات خُلق الإنسان ضعيفا، ولأن الأمر كذلك فهو بحاجة لقوي وبيده الرّحمة وقادر على فعلها متى ما تعلق الضعيف به وجده رحمن رحيم كريم عفو قادر على نقله من الضعف إلى القوّة والقدرة.

وبطبيعة الحال بما أنّ هناك رحيم، يكون هناك من هو في حاجة لأنّ يُرحم، وبما أنّ الإنسان خُلق ضعيفا من حيث غرائزه ومشاعره وحواسه تجاه ما يُشبع الشهوات، إذا هو بحاجة لرحيم يجود عليه من واسع رحمته. ولهذا فالرّحيم لا يمكن أن يكون ضعيفا، ولا يكون منّاعا للخير ولا معتدٍ أثيم، ولا يمكن أن يكون خصما، فمن يدخل في خصام مع النّاس يفقد خاصية من خاصيات الاستخلاف في الأرض، ولذا؛ فإنّ الله سبحانه وتعالى رحيم يحبّ الرّحمة والرحماء، وقد أمر عباده بأن يكونوا رحماء ليّني الجانب عطوفين، وهذه الرّحمة التي تسكن قلب المؤمن إنما هي من الرّحيم المطلق الذي وهبه إيّاها، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}409؛ فهذه رحمة من الله بك يا محمّد وبهم فلو كنت جافي المعاملة قاسي القلب، لتفرقوا من حولك، فتجاوز عن خطئهم، واطلب المغفرة لهم، واستشرهم في الأمر متعرفا آراءهم بما يحبّون وبما لا يحبّون، فإذا عقدت عزمك على أمر بعد المشاورة فامض فيه متوكلّا على الله، لأن الله رحيم يحبّ الرحماء.

---

409 آل عمران 159

وبناء على ذلك ارتبطت الرأفة والرّحمة باسمه {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}410 جاءت في هذه الآية الكريمة الرأفة مطلقة مثلما الرّحمة جاءت مطلقة لكلّ النّاس بدون استثناء، فالله عزّ وجلّ لا يمكن أن يستثني أحد من خليفته، بل الاستثناء يأتي إرادي من البعض من النّاس، الذين فُتِّحت لهم أبواب الرّحمة ولم يدخلوا من أبوابها. إذن الله بعنايته رحيم بالنّاس.

فالكلّمة رحيم: اسم دائم بفعل دائم، فعندما يُمد حرف الياء بقراءة في اتصال كأنه لا ينقطع، يتبين للقراء العطاء الدائم من الاسم الرّحيم الدائم، أي يتبين لهم أنَّ الأفعال تُحمل في هذه الكلّمة، ما يجعل الرّحمة قيمة والرّحيم فاعل لهذه القيمة، والخليفة هو الذي يجعل من أقواله أفعال، {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}411 ولهذا فالعمل الناجح هو الفعل الناجح {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}412. فالخليفة هو الذي يقتدي بالعمل الصالح، أمّا أوّلئك الذين يقولون ما لا يفعلون، أو يفعلون الباطل فهؤلاء هم من البشر الذين لم تتجسد في أفعالهم أعمال الخير التي ترضي الله ورسوله والمؤمنون.

وعليه الخليفة من حيث الوجود الحي لا فرق فيها بين الكائنات، أمّا الخليفة من حيث الاقتداء بمن استخلفهم فهم أوّلئك الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ويقولون سبحانك ما خلقت هذا باطلا. إنها الخلافة العاقلة، التي تتذكر حتى تتعظ، وتُفكر حتى تؤمن.

---

410 . البقرة 143.

411 الأحقّاف 14.

412 . فصلت 46.

إذن الخليفة هو الذي تتجسد الرّحمة في أقواله وأفعاله، حتى يكون رحيما على نفسه وعلى الذين تربطه بهم علاقات الأبوة والأمومة والأخوة وذي القربى والجيرة حتى تسود الرّحمة بينهم { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا}413 فمحمّد صلّى الله عليه وسلّم والذين معه هم الذين يؤمنون بمن استخلفهم وقبلوا أن يكونوا خلفاء بحملهم الرسالة (رسالة الخليفة) أمّا الذين استخلفوا ولم يقبلوا بأن يكونوا الخليفة فهم أوّلئك الذين كفروا جحودا ونكرانا لفضل من استخلفهم في الأرض. هؤلاء هم الذين أعطاهم المستخلف العقل فكفروا بما أعطي لهم، وهم الذين عرض عليهم الأمّانة وقبلوها ثم بعد ذلك تخلوا عن حملها، وهم الذين أنعم الله عليهم بنعم لا تحصى ولم يُقدِّروها حقّ قدرها هؤلاء هم المعنيون بالكفرة الذين لا يمكن أن يكونوا الخليفة.

الخليفة هو الرّحيم الذي يلين قلبه ويرق لقول الحقّ وفعل الخير، ومساعدة المحتاج، ورعاية اليتامى، ومناصرة المغلوب ظلما، ورفع الضيم عن المضام.

وبما أنّ من أسماء الله تعالى وصفاته الرّحيم، إذن بطبيعة الحال من يخلفه يجب أن يكون رحيما، حتى تُستخلف الرّحمة بين النّاس، لتعم بينهم ويتوادون بأعمال الخير. ولهذا كانت عواطفنا ترق بحالنا حتى نرق على غيرنا بإحسان، ويعطف الصغير على الكبير مثلما يعطف الكبير على الصغير وإلا هل هناك من يخلف شيء ولا يترك فيه شيئا من صفاته، ولهذا جميع الكائنات تخلف بعضها البعض بصفاتها وخصائصها، وعلم الجينات يثبت ذلك بكلّ وضوح.

---

413 الفتح 29.

أمّا الاستخلاف فهو بفعل فاعل لأسباب وأغراض مستقبلية يعلمها من أوجد الخليفة وسيلة لتحقّيقها، وهذا الأمر يتطلب طرح السؤال: لماذا جعل الله في الأرض خليفة؟

الإجابة على هذا السؤال، هي: لغاية هوّ يعلمها (يعرفها) ومن ضمن هذه الإجابة ليُعمِّر الأرض، ولهذا، إن لم يفعل ذلك لن يكون مناسبا للمكان الذي وُضِع خليفة فيه. ولأنّ الاختيار من الخالق عزّ وجلّ فهو بطبيعة الحال يكون مناسبا الإعمار بإرادة. ولأنّ فعل الإعمار تركه الله للمستخلفين فعل إراديا، فكان البعض بإرادته الحرة يُسهم في إعمار الأرض، والبعض لا يُسهم في إعمارها، والبعض الآخر يُسهم في خرابها. والسبب إن الحياة الدنيا تُحفّ بين الحين والحين بالغرور الذي يجعل البعض ممن يراد له أن يكون خليفة متناسيا لأسباب استخلافه في الأرض، حتى يظن أنه بذاته قادر، ما يجعله من المعرّضين للفشل في أداء المهام التي من أجلها أُستخلف {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}414. ولذلك كان الاستخلاف لغاية، وكان لله الفضل على من يلتزم بأسباب استخلافه، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ}415 ولهذا من شروط الاستخلاف العمل. ولكن أي عمل؟ إنّه العمل الصالح بإرادة. {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}416 ولذلك فإنّ العمل غير الصالح هو دليل عدم القبول بأمر الاستخلاف في الأرض. ولو لم

414 . البقرة 11.

415 . النور 55.

416 فصلت 46.

يجعل الله تعالى أمر العمل بإرادة، لكان الجميع مستخلفين فيها بالقوّة، وفي مقابل ذلك لو يؤاخذ الله تعالى الخليفة بما يفعل السفهاء ما ترك على ظهرها من دابة {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ}417. وبما أنّ الله تعالى ترك الخليفة على أمر الإرادة فيما يتعلق به من شؤون، وأجَّل أفعال العقاب لمعظم الأفعال إلى اليوم الآخر، إذن يريد الله عزّ وجلّ أن يسود التسامح صفة بين المستخلفين، وبما أنَّ الأمر كذلك فلماذا لا يسود التسامح بين النّاس فيما لا أمر قاطعا للقصاص؟

وهكذا يُغرس التسامح بيننا قيمة، ويغفر بعضنا لبعض الخطايا اقتداء بمن استخلفنا على الأرض {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا}418 وبما أنّ الله غفور رحيم إذن بطبيعة الحال يجب أن يكون للخليفة صفتين من صفتي الغفور الرّحيم. وإلا كيف يكون خليفة ولا يقتدي بمن استخلفه في الأرض.

والرّحيم اسم لله تعالى، ولأن اسمه الرّحيم، ومن صفته الرّحمة، إذن لا يمكن أن يَقنُط فاعل خير أو مؤمن من رحمته. {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}419. ولهذا التمسك بالأفعال الحسان هو الدليل على ممّارسة الخليفة لدوره الطبيعي، أمّا الذين لم يَقدِموا على أداء الأفعال الحسان فهم المنحرفون عن نهج الخليفة على الأرض. ولذا أحسِن يُحسَن إليك، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}420

417 فاطر 45.

418 النساء 110.

419 الرّحمن 60، 61.

420 فصلت 46.

التمسك بالقيم والفضائل الإنسانية والعمل بها له جزاء حسنُ من قِبل الذين يُقدّم لهم كلّما قدَّروه، ومن ورائه جزاء أعظم من الرّحمن الرّحيم، وفي مقابل ذلك إنزال الضرر بمن لا يعمل صالحا، وذلك بالعقاب في الحياة الدنيا متى وقع بين أيدي النّاس الذين وقع عليهم منه ضرا يستوجب عقابا أو قصاصا عاجلا، والضر الأكبر يلاحقّ الضر الأصغر حتى يدعمه يوم القيامة إن لم يقع العفو بأسباب تجب ما قبلها.

وبما أنّ الله هو الرّحمن الرّحيم، إذن الرّحمة آتية لا محالة. وبما أنّها آتية لا محالة لكلّ من يتقدم لها، إذن فلماذا القنوط؟ ولماذا لا تُفتح صدور البعض لاستقبالها واحتضانها؟ وعليه فمن يريد أن يَعُمَّ برحمته الواسعة فعليه بالإيمان، الإيمان بأنه المستخلف بصفات كرام فلا يسيء إليها حتى لا يسيء لنفسه وللآخرين. وعندما يكون كذلك تكون الرّحمة من نصيبه، ولهذا فهي ضمان لكلّ مؤمن، وأمل لكلّ إنسان ضامر لفعل الخير.

يقول الله تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}421 كلّمتي غفور ورحيم تدل على أنه الفاعل لذلك على أرض الواقع والقادر في أي حين على فعل المغفرة والرّحمة، ولهذا جاءت كلّمة الرّحيم مستمرة بأفعالها التي هي شواهد دالة على إظهار الحقّيقة كما هي سواء كانت ذات أثرٍ سالبٍ أو أثرٍ موجبٍ. وقصة سيدنا الخضر مع سيدنا موسى عليهما الصّلاة والسّلام دليل شاهد على تجسد الرّحمة في الأفعال

421 . الأنعام 54.

{قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كلّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا ربّهما خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}422 ولننظر لرحمة الله على أفعال السيد الخضر عليه الصّلاة والسّلام حتى كان بأفعاله رحيما بما هو أتي:

1 . خرق السفينة رحمة: من أجل المساكين الذين يعملون في البحر، ولو لم يعيبها الرجل الصالح الأكثر علما من سيدنا موسى عليهما الصّلاة والسّلام لكانت تحت حوزة الملك (قاطع الطريق برجاله المأجورين) ليأخذ كلّ شيءٍ غصبا.

إذن الرّحمة جاءت مرتين:

أ . خرق السفينة رحمة حتى لا تفلت من أيدي المساكين العاملين في البحر وهي مصدر معيشتهم. وبمقارنة خرقها بتلفها نهائيا يكون الخرق رحمة وذلك لأنها أصبحت قابلة للإصلاح وليست قابلة للتلف.

422 . الكهف من 70 إلى 82.

ب . إقدام الرجل الصالح على فعل الخرق إقدام رحمة. فلولاه ما سَلِمت من الوقوع في أيدي رجال الملك ولأخذت إلى يوم يبعثون من المساكين العاملين في البحر الذين هم يقتاتون على ما يجنونه على ظهرها.

2 . قتل الغلام رحمة: من أجل الأبوين المؤمنين حتى لا يرهقهما طغيانا وكفرا فكانت الرّحمة عليهما بالتخلص ممن لو بقي حيّا لكان سببا في إرهاقهما طغيانا وكفرا وجاء البديل خير على الوالدين، ولدُ صالحُ، خير زكاة وأقرب رُحمة.

من هذا الأمر جاءت الرّحمة مرتين:

أ . قتل الغلام في ذاته رحمة على الأبوين، باعتباره تخلص من أسباب تؤدّي إلى الطغيان والكفر.

ب . الولد الصالح جاء بديلا للولد الطالح وهذه رحمة من رحمن رحيم.

3 . بناء الجدار رحمة: من أجل الغلامين اليتيمين أبناء الرجل الصالح الذي ترك لهما كنزُ تحت الجدار حتى إذا بلغا أشدهما (بلغ سن حُسن التصرف) استخرجا كنزهما رحمة لهما من رحمن رحيم.

يستقرأ من وراء بناء الجدار:

أ . فعل حفظ الكنز كان رحمة وذلك حتى لا يضيع في غير محله.

ب . استخراج الكنز من قِبل الغلامين اليتيمين بعد أن يبلغا أشدهما كان رحمة لهما ورحمة عليهما.

ج . أن الأمر الذي جعل الوالد صالحا هو الذي بأسبابه كانت الرّحمة متصلة مع أبنائه.

وعليه: يمكن استنباط الآتي ممّا قص علينا في قصة سيدنا موسى والخضر عليهما الصّلاة والسّلام من الآيات السابقة الذكر:

1 . الاعتماد على الصبر في استقراء الأمور ومعالجتها كلّما ألمت بالإنسان {فاصبر كما صبر أوّلوا العزم من الرّسل ولا تستعجل}423. ولأن الله وحده هو الذي يصطفي الرّسل والأنبياء من عباده ليجعلهم قدوة ومثالا للخليفة الذي يود له أن يكون في الأرض، لذا كانت الرّحمة حيث قصّ الله علينا من قصص أوّلي العزم حتى يقتدي بأقوالهم وأفعالهم كلّ من يريد أن يكون خليفة لله على الأرض. وهذا لا يعني أن يكونوا بالتمام مثل الرّسل والأنبياء، فالرّسل والأنبياء الذين لا يمكن أن يكون غيرهم مثلهم، بل أن غيرهم بإمكانه أن يقتدي بهم قولا وفعلا وسلوكا، وهذه رحمة من الله تعالى على الخليفة.

فكلّمة الخليفة لا تعني أن يحل المستخلف محل من أسخلفه، بل تعني أنّ يقوم بما يأمر أو يرغب أو يُفضل القيام به. ولهذا بطبيعة الحال لا يمكن أن يحل بني الإنسان محل الله تعالى في هذا الأمر استغفر الله ربّ العالمين. فالبشر حتى وإن اجتمعوا لن يخلقوا ذبابا {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ}424. والعلاقة الاستخلافية بين الرّسل والأنبياء وبين من بُعثوا لهم هي علاقة سلف وخلف، وعلاقة قدوة حسنة، ولهذا لا يمكن أن

423 . الأحقّاف 35.

424 . الحج 73.

يكون الخلف نسخة طبق الأصل من السلف (نتيجة للفروق الفردية) ولذا قال تعالى: (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصّلاة) إذن لو كان الخلف نسخة من سلف لكان المؤمنون نسخة من الرّسل وهذا الأمر ليس هينا، إلا على الصالحين. ما جعل الخلف المشار إليهم في الآية السابقة هم الذين أضاعوا الصّلاة بدل أن يستمروا بها ويحافظوا عليها كما هي عليه عند السلف الصالح.

2 ـ الرّحمة الكبرى على الغلامين (أصحاب الكنز) أنّ رحمة ربي كانت عليهما مباشرة وذلك لأن الله تعالى هو الذي أراد أن يبلغ الغلامين أشدهما ولم يكن السيد الخضر الذي يود ذلك (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ). هذه المشيئة هي الرّحمة من الله الرّحمن الرّحيم، فسبح باسم ربك العظيم (سبحان الله العظم).

علاقة قوية تربط قيمة الرّحمة بأفعال الإحسان، ولا تقصرها على دينٍ أو جنسٍ معينٍ، بل تربط ذلك بمن يقوم بأفعال الإحسان. فعل رحمة من الخليفة يُعد إحسانا يلاقيه فعل الإحسان من الرّحمن الرّحيم، فقد جاء عند الترمذي من حديث ابن مسعود حيث قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم (من لا يرحم النّاس لا يرحمه الله). أفعال الإحسان قد تنال الرضاء من البشر، ولكنها لا تنال الجزاء منهم، فالجزاء بالنسبة لأفعالها لم يكن في الحياة الدنيا، ففي الحياة الدنيا يمكن أن يتم نيل الاعتراف والتقدير على ما يتم تقديمه من أفعال حسان، ولكن الأجر الكبير والأوفر سيتم نيله من الرّحمن الرّحيم، وهذه هيّ الرّحمة فالحمد لله ربِّ العالمين، {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا

وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}425 يقول فضيلة الشيخ محمّد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى: "الأرض هي مكان الخليفة وهو الإنسان، الذي إذا أحسن قربت منه الرّحمة"426 ولذلك كلّما اقترب الإحسان من الرّحمة اقتربت الرّحمة من المحسن. والمحسن هو المقدِم على ممّارسة وأداء أفعال الخير (الإحسان).

يقول ابن القيم رحمه الله: "هناك ثلاثة دلالات من قوله تعالى: (إنَّ رحمة الله قريب من المحسنين).

الدلالة الأوّلى: دلالة بمنطوقه، عن قرب الرّحمة من أهل الإحسان.

الدلالة الثانية دلالة بتعليله وإيمائه، على أنّ هذا القرب مستحقّ بالإحسان، فهو السبب في قرب الرّحمة منهم.

والدلالة الثالثة: دلالة بمفهومه، على بُعد الرّحمة من غير المحسنين.

الرّحيم دائما قوي في مقابل ضعيف، وهو الذي يمتلك القوّة التي بها يشتد الكرب على المكروب أو بها يُفرج عنه، {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}427 نلحظ من هذه الآية الكريمة وجود خائف ومخيف، والخائف في حاجة ماسة لرحمة من مخيفه، ولأنّ مصدر القوّة في هذه الآية هو الله فكان بالخائفين منه رءوف رحيم، وذلك لاعترافهم بقوته وإعلانهم عن مخافته بعد معرفتهم بما ألم من عقاب بالذين سبقوهم بالمعصية، ولهذا ترتب على الخوف تأجيل

---

425 . الأعراف 56.

426 تفسير الشعراوي المجلد السابع 4180.

427 . النحل 45 .47.

العقوبة وإتاحة الفرصة للإنسان ليتذكر ويُفكر حتى يأتيه اليقين رأفة به ورحمة.

قال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}428 عندما يكون المسلمون هم الغالبون (المنتصرون) فإن جنح عدوهم للسلم (إن مال إليهم بسلم) فلا عيب أن يميلوا هم معه إلى كلّ ما من شأنه أن ينهي الحرب بينهم. وبطبيعة الحال لا يجنح للسلم إلا مغلوب بالقوّة، فعندما تشتعل نار الحرب يميل الضعيف إلى عقد المصالحات أو المعاهدات مع عدوه الأقوى. ولهذا نلاحظ أنّ زمن المفاوضات بين الأقوياء يطول، وبين الضعفاء يقصر، وبين القوي والضعيف يكون بين أمرين:

الأمر الأوّل: أنّ القوي يعمل على عدم إطالة زمن التفاوض، بما أنّه منتصر والفرصة مناسبة لإملاء شروطه.

والأمر الثاني: أنّ الضعيف يعمل على إطالة زمن التفاوض لأجل أن يغتنم الوقت ويعد العدة من جديد.

وعليه من يريد أن يكون الخليفة عليه أن يستمد صفة الرّحمة من الرّحمن ويستمد فعلها من الرّحيم الذي أوجب الجنوح للسلم كلّما مال الخصم أو العدو إلى إبرام صلح أو عقد مسالمة. أمّا الاستكبار فلا يؤدّي بصاحبّه إلا للهلاك، {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة أوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قوّة وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا

428 الأنفال 61.

يُنْصَرُونَ}429 الله هو القوّة بذاته فمن يحاول أن يستكبر على القوّة فلابدّ أن يُهزم، ولو لم يكن رحيم لكان العقاب في حينه على كلّ فعل، ولأنه كذلك يؤجل العقاب عن معظم الذنوب حتى يكون للإنسان الزمن والفرص الكافية للتبيُّن من أجل التكفير عن السيئات.

جاء اسم الرّحمن مصدر لكلّ رحمة، وجاء اسم الرّحيم قائم بأفعال الرّحمة، ولهذا فمن اسم الرّحيم يستمد فعل الرّحمة، {فانظر إلى أثار رحمت الله}430 يتضح من هذه الآية الكريمة، إنّ للرحمة أثر، والأثر لا يمكن أن يكون إلا بفعل من تركه، فلو لم يكن هناك فاعل ما كان هناك أثر قابل للتقصي والمعرفة. فإذا نظرنا للرياح والسحبّ، نتوقع سقوط المطر، وإذا سقط المطر، أنبت عشبا، ما يجعل كلّ من الرياح والسحبّ والمطر ونبات العشب أثار من رحمة رحيم. وإلا هل هناك غيره قادر على القيام بهذه الأفعال نيابة عنه! {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}431 من الآية السابقة عرفنا إنَّ البلد الميت أثر، وسقوط المطر عليها أثر، والنبات المثمر أثر، وهذه الآثار جميعها تشاهد من قبل كلّ ذي بصر، ولكن الأثر الأعظم هو الذي يلحظ ويدرك ولا تراه الأبصار إنّه (أحياء موت البلد) الذي يتماثل مع أفعال الرّحيم في إحياء الموتى. ولذا فبالملاحظة ندرك ونقارن بين الظروف التي كان عليها البلد ميتا وبين الظروف التي غيرته إلى حياة.

---

429 . فصلت 15.

430 . الروم 50.

431 الأعراف 57.

وعليه لو لم يكن إمكانية إحياء الموتى حقّيقة، ما آمن المؤمنون بيوم البعث الذي لا يمكن أن يكون إلا بقوّة إحياء الموتى.

إذن كلّ رحيم قادر على أن يقوم بأفعال الرّحمة مباشرة وبدون إنابة، ولذا لا يمكن أن تكون أفعال الرّحيم خالية من الرّحمة، ولهذا كلّ أثرٍ من رحيم هو أثر رحمة. وبما أن الأمر كذلك إذن بطبيعة الحال تكون الرّحمة صفة للرحيم. وبما أنّ الرّحمة صفة، إذن الاتصاف بها ممكنا، وبما أنه ممكن فالاقتداء بأفعالها كما يود لها أن تكون يجعل الإنسان خليفة بها وخليفة عليه.

ولارتباط الرّحمة بالرّحيم، نلحظ أينما وُجِدَ رحيم وجدت الرّحمة، وأينما غاب رحيم غابت الرّحمة. ولأنّ الله هو الرّحمن الرّحيم فإن رحمته لن تنقطع، ولهذا فالعذاب يخص والرّحمة تعم {قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}432. ولأن العذاب عام والرّحمة خاصة، جاءت قضايا العذاب جامعة مانعة، جامعة للذين يحقّ عليهم العذاب، وتستثني الذين يقومون بأفعال الرّحمة. أمّا قضايا الرّحمة فهي قضايا جامعة لا مانعة، جامعة لكلّ من هم يقومون بأفعال الرّحمة (أفعال الخير) ومستوعبة لكلّ من يُكفِّر عن سيئاته متى ما يشاء.

وعليه لكلّ من العذاب والرّحمة أفعال مترتبة على أفعال، ولكلّ من العذاب والرّحمة فاعل، ولذلك لا يمكن أن يكون العذاب أو الرّحمة إلا بفاعل. ولهذا فإن فاعل الرّحمة هو الرّحيم الذي تتصف أفعاله بها، وفاعل العذاب هو المنتقم الذي تتصف أفعاله بها، وفي هذا وذاك فإن الله واحد هو الرّحمن الرّحيم وهو المنتقم من الذين يجرمون ما

432 . الأعراف 156.

يجعل انتقامه منهم رحمة على المؤمنين {فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حقّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}433.

وقد يتساءل البعض: كيف تترتب الأفعال على الأفعال؟

على سبيل المثال: لو لم يقترف المنحرف جريمة ما صدر بشأنه فعل عقابي، ولذا فالعقاب فعل مترتب على الفعل الانحرافي. ولو لم يكن يونس عليه الصّلاة والسّلام من المسبحين للبث في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون، وهكذا دائما تترتب الأفعال تحت ظروف السبب والمسبب، والعلة والمعلول.

الرّحمة قيمة علائقية، بها تلين القلوب وتقترب من بعضها بعضا من أجل ما يُفيد وينفع ذوي العلاقة سواء كانوا أفراد أسرة أو عشيرة أو رفاق عمل أو جيرة أو أصحاب مصلحة أو مواطنو دولة. فبدون الرّحمة لا يمكن أن تتكون العلاقات بين النّاس، وإذا انقطعت الرّحمة انقطعت العلاقات وإذا سادت بينهم سادت العلاقات. فعلى مستوى الأسرة لا يمكن أن يحدث التفكك والرّحمة سائدة بين الوالدين والأبناء وبين الأخوة جميعا، ما يجعل الرّحمة شرطا رئيسا للُّحمة والوحدة وتبادل المحبّة بين النّاس.

حبّ الخالق لعباده رحمة، وحبّ العباد لخالقهم رحمة. هذا الأمر هو الذي يجعل من الرّحمة بين النّاس مركز لكفتي ميزان، التي لا تتمركز وتعتدل إلا بالمساواة بين الكفتين.

وعليه، إن الرّحمن هو مصدر الرّحمة، وأن الرّحمة هي المسبب في تكوين العلاقات وقوّة روابطها، وأن الرّحيم هو الذي به تتم أفعال

433 . الروم 47.

الرّحمة. ولهذا جاء قوله تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرّحمن الرّحيم}434 بطبيعة الحال لو لم يكن الله واحدا ما كان رحمن ورحيم، وما كانت هناك رحمة، ولهذا وحدانية الله تعالى هي الرّحمة الكبرى، فالحمد لله ربِّ العالمين.

وقد يتساءل البعض: لماذا الرّحمة؟

الرّحمة ليست حاجة كما يظن البعض، بل الرّحمة مشبع حاجة، ولو لم تكن مشبعة للحاجة ما كنّا جميعا نسعى لنيلها. الحاجة هي الراحة والسكينة والطمأنة، وبما أن هذه حاجات، إذن هناك أسباب تكمن ورائها، والسبب الرئيس وراء هذه الحاجات هو الألم، الذي كلّما ألمّ بالإنسان كان في حاجة للراحة والسكينة، وهذه لا يمكن أن تتحقّق بدون رحمة ولهذا فالرّحمة جاءت لإشباع الحاجة. ولأن الإنسان خُلق ضعيفا فهو مخلوق ليسعى حتى يتمكن من الإشباع الذي يمده بالقوّة، وإلا سيظل دائما في حاجة، {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}435 التخفيف دائما للأعباء والآلام عمن لا يستطيع وذلك لمحدودية مقدرته ودرجة تحمُّله.

وبما أنَّ الإنسان خُلق ضعيفا، إذن لا يمكن أن يكون خليفة الله تعالى، فالله تعالى القوي المتعال لا يخلفه أحد، ولهذا كان المستخلف منه في الأرض وليس الخالف له فيها أو عليها. فالله عزّ وجلّ يؤلِم ولا يتألم، ويرحم ولا يُرحم، ويقدر ولا يقدر عليه، ولذا لا يخلفه أحد، ولكن بقوته جعل الخلائف من بعده قوّة مستخلفة في الأرض، والخليفة لا يكون في حالة ضعف إلا إذا تأملنا في قوّة الخالق المطلق

434. البقرة 163.

435. النساء 28.

فلا مجال للمقارنة، ويكون الإنسان ضعيفا إذا ما غلبت عليه الشهوة في غير محلها، ولهذا فهو في حاجة لأن يُرحم. ولذلك يقول تعالى: {وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}436 الألم واحد وكلّ من يحس يتألم، سواء بأثر لفظي (كلّمة إهانة) أو بأثر مادي (ضربة) وسواء كان مؤمنا أو كافرا فالألم هو الألم لا فرق فيه. الفرق فيما يترتب عليه، فالمؤمنون في الآية السابقة يرجون ثواب (رحمة) من الله، وهذا ما لا يرجونه الكافرون. وما يماثل هذه الآية قوله تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ}437 يقال إنها جاءت لتبيان المعنى الدال على ما أصاب المسلمين يوم أحد من جراح وآلام، وهو بالتمام ما أصاب الكفرة يوم بدر، وتلك الأيام نداولها بين النّاس، فعلى المؤمنين أن يقبلوا بيوم لنا ويوم علينا إلى أن يتحقّق لهم النصر بإذن الله فلا يقنطوا من رحمة الله فهي آتية لا محالة {وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ}438

إذن الرّحمة أمل ينبغي أن يسعى الخليفة إلى بلوغه. ولا ينبغي له أن ييئس، فاليأس هو انقطاع الصلة بين الرّحمة ومن هو في حاجة إليها وبين الرّحيم الذي بيده أمر القيام بالفعل، والأمل هو الصلة التي بها يتم إشباع الحاجة التي هي في نفس الخليفة الراغب في مرضات من استخلفه في الأرض.

الرّحمة والأمل أمران مترابطان مثل ترابط المثير والاستجابة، فلولا الأمل ما تحقّقت الرّحمة، ولولا الرّحمة ما تحقّق الأمل. وعليه الرّحمة في

436 . النساء 104.

437 . آل عمران 140.

438 الحجر 56.

ذاتها مُعطية بلا فعل، والأمل في ذاته أيضا معطية بدون فعل، ولهذا كان وراء كلّ رحمة رحيم ووراء كلّ أمل مرحوم.

بناء على ما تقدم فإن أثر الألم يقع في دائرة الممكن (السالب والموجب) في ساعة الإنجاب يكون الألم سيدا فيها، ومع أنَّه ألم إلا أنه المنتظر بفارغ الصبر، حيث من بعده ولادة، التي بها تكون الفرحة وتنتشر بين ذوي العلاقات، وكذلك يوم الختان فرحة في ساعة ألم، وهكذا يكون الزواج فرحة في ساعة ألم. وفي مقابل ذلك يكون الموت راحة من ألم (شفاء دائم من داء) وحتى إن أزداد الألم في يومه ليحسبه البعض ساعة ألم في يوم حُزن، يكون البعث من بعده فرحة في يوم الفرحة. ولذا {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}439. وبمراجعة ما سبق نُلحظ أن كلّ شيء رحمة فالحمد لله الرّحمن الرّحيم.

وهكذا تكون العلاقة بين المرض والمصاب به، ألم يجعله في حاجة للشفاء، الذي لا يمكن أن يكون بدون علاج المرض، وسيظل الألم إلى أن تزال أسبابه، ما يجعل المريض في حاجة لمقابلة الطبيب المتخصص حتى يكتشف الأسباب والعلل ويصف الدواء المقاوم للأسباب والعلل، وسيظل الألم إلى أن تزول الأسباب، وقد يتبين للطبيب أن المريض في حاجة ماسة لإجراء عملية جراحية، التي عندما يعرف المريض أن من بعدها سيشفي فيأذن بالإقدام عليها مع معرفته التامة بما يترتب عليها من ألم قد يضاف إلى آلامه السابقة، ما يجعل إجراء العملية ساعة ألم في يوم فرحة نجاحها.

---

439 . الروم 44.

وفي مقابل ذلك فرحة الظالمين بفوزهم على المظلومين هو يوم فرحة في يوم ألم. فاليوم الذي يفرح فيه الفائز ظلما يتألم فيه المظلوم مهزوما، إلا أن المترتب على الفعلين سيكون معكوسهما بالتمام في اليوم الذي لا ينقطع (اليوم الآخر) فالظالم سيظل في يوم ألم (العقاب) والمظلوم سيظل في يوم فرحة (الإثابة) أمّام عدالة الرّحمن الرّحيم مصداقا لقوله تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}440.

وعند ما يجد الإنسان نفسه إراديا بين اختياري فرحة وألم، فقد يقبل بتقديم ساعة الألم على ساعة الفرحة، فالفتاة في عُرسها تجد نفسها بين أن تفارق أسرتها مؤقتا وبين أن تتزوج، فهي بطبيعة الحال ستُقدِم يوم الألم (يوم الانفصال النسبي) الذي قد يحس به الوالدين والأخوة أو قد يحس به البعض منهم مثلما هي تحس بألم الرحيل عنهم، لتعيش أيام فرحة من بعده. وهكذا بعد الزواج إن كان فاشلا سيظل ألم إلى أن تأتي ساعة الفراق التي هي ألم لعلاج مشكلّة. هذا الألم يتماثل من حيث تقريب المعنى من ألم إجراء العملية الجراحية للمريض التي من بعدها تأتي أيام الفرج فرحة.

تتعدد أفعال الرّحمة بتعدد ما يُقدّم من أعمال حِسان، {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}441 فلننظر إلى هذه الآية الكريمة والكيفية التي تتعدد الرّحمة فيها:

آلا تُعد صلاة الله على الخليفة رحمة.

---

440 . آل عمران 182.

441 أ الأحزاب 43.

آلا تُعد صلاة الملائكة على الخليفة رحمة.

آلا يُعد الإخراج من النّار رحمة.

آلا يُعد دخول النور رحمة.

آلا تُعد رحمته بالمؤمنين رحمة.

آلا يُعد وجود الرّحمة في ذاته رحمة.

آلا يُعد اسم الرّحيم الفاعل للرحمة رحمة.

بناء على هذه المعطيات خُلق الإنسان ضعيفا، ولأن الأمر كذلك فهو في حاجة لقوي وبيده الرّحمة وقادر على فعلها متى ما تعلق الضعيف به وجده رحمن رحيم كريم عفو فله الحمد والشكر.

ولأن رحمة الله واسعة فهي لم تقتصر على فئة دون فئة، بل أبوابها مُفتَّحة لكلّ من يريد الدخول فيها، {لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}442 فلننظر إلى هذه الآية حتى نستبين، آلا تُعد رحمة الله قد جاءت مطلقة دون أي استثناء، ومطلقة لأن تغفر الذنوب جميعا. آلا تُعد هذه الآية جامعة لكلّ الرّحمة، وفاتحة أبوابها لكلّ النّاس. ويقول {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ}443. بهذه الآيات يتم التأكيد على أن الرّحمة عامة، وقضاياها جامعة لا مانعة. أمّا أنّ الله بالمؤمنين رءوف رحيم فهذه تدل على التخصيص باعتبار أن الرّحمة سبقت إلى البعض

442 الزمر 53.

443 . العنكبوت 63.

الذي آمن وبالتالي كانت المترتبة على الأفعال الإيمانية مصداقا لقوله: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}444.

الرّحيم هو الله دائم الرّحمة، في الدنيا والآخرة، فهو رحيم على كلّ من يؤمن به ولا يشرك، فالرسالات السماوية نزلت من الرّحمن الرّحيم على الرّسل رحمة للعباد. وإنَّ نجاة نوح عليه الصّلاة والسّلام ومن كان معه من قومه في الفلك المشحون كانت رحمة عليهم {قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم}445. وكذلك كانت نجاة يونس عليه الصّلاة والسّلام رحمة {فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يُبعثون}446 وكانت نجاة لوط عليه الصّلاة والسّلام رحمة من رحيم {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}447.

الرّحيم هو الذي بعزّته تصبح الأقوال والأفعال آيات شواهد دالة على المقدرة في الدارين، ولذا فالرّحيم هو دائم الوجود، والعطاء، والرّحيم بمد الياء كما سبق أن بيّنا تحمل في مضمونها مدلولات البقاء والاستمرارية المتصلة، ولأنه رحيم جعل في الأرض خليفة، على حالة تعاقب واستمرارية من الخلائف في الحياة الدنيا. ولهذا فإن الله هو الرّحيم، والخلائف هم الرحماء فيما بينهم. ومع أنَّهم رُحماء إلا أن الله

444 . الأحزاب 43.

445 . الشعراء 117 . 122.

446 . الصافات 144.

447 الصافات 131 . 135.

هو أرحم الراحمين {وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}448 وكذلك قوله {اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}449.

الرّحمة قيمة مترتبة على فعل سابق، {قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرّسول النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ}450 العذاب فعل مترتب على أفعال سابقة وإلا هل هناك من يُعذَّب دون أن يرتكب الخطايا! وفي مقابل ذلك هل هناك من يجازى (يُرحم) إن لم يقم بالأفعال الحسان! ولهذا كتبت الرّحمة لتبقى وكتب العذاب ليزال بالتصحيح والتكفير.

والعلاقة القوية هي التي تربط بين ارتكاب الفعل والتكفير عنه، {مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}451في هذه الآية نلحظ الأفعال تترتب على الأفعال كما تترتب العلل والأسباب التي تظهرها. ما جعل الفعل السوء يترتب على مغريات سلبية وسابقة عليه، ومع أنَّها لم تُذكر في هذه الآية إلا أنها تستنبط منها، ولأنها أسباب وعلل سيئة ترتب عليها فعل سوء. ولأنه فعل سوء جاءت التوبة فعل مترتب عليه، ومع أنَّ التوبة فعل موجب إلا أنّها لا تأتي إلا من بعد فعل سالب وهذا دليل الرّحمة الواسعة، ولهذا لو لم يكن الفعل السوء سابق ما جاءت الرّحمة لاحقّة لتصحيحه وإصلاحه، ولذلك جاء فعل الإصلاح مترتبا على فعل

448 . المؤمنون 118.

449 يوسف 64.

450 . الأعراف 156،157.

451 . الأنعام 54.

التوبة، المتضمنة في واسع رحمته، التي رتبت فعل المغفرة على فعل الإصلاح.

ومع أنَّ المغفرة دائمة بديمومة الرّحمة، إلا أنها لا تتحقّق إلا بإرادة، إرادة من يرغبها، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ}452 معصية الله تعالى فعل سالب، ومعصية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فعل سالب مترتب على معصية الله، وكذلك تعدّي الحدود فعل سالب مترتب على فعل سالب، إدخال المتعدي بالأفعال السالبة إلى النّار جاء فعل موجب. ولذا في هذه الآية ترتب الفعل الموجب على ثلاثة أفعال سالبة، وهذه رحمة. وعليه ليس دائما العقاب سالبا، فالعقاب في أساسه لاستهداف أو تحقّيق موجب، ولذلك كان الفعل الموجب بالنسبة لمن هم في رحمة الله أنّ المتعدي حدود الله يجب أن يدخل النّار، أمّا الفعل السالب بالنسبة لهم أن المتعدي لحدود الله يدخل معهم الجنّة، ولهذا قلنا إنَّ دخول المتعدين حدود الله إلى النّار فعل موجب مترتب على أفعال سالبة.

جاء اسم الرّحيم فاعل للرحمة المستمدة من اسم الرّحمن، ولهذا فإنّ الرّحمة كنز من الخير الوافر، فمن أراد أن يخرج من الكنز ما يشاء فليفعل متى ما يشاء وكيفما يشاء، ومن لم يرد، فلا إكراه في الدين قد تبيَّن الرشد من الغي، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}453. ولذا فمن يرد أن يكون الخليفة للرحيم فعليه بأفعال الخير الكثيرة، لا أن يكون مانعا لها، {مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ

452 . النساء 14.

453 . فصلت 46.

أَثِيمٍ}454هذا المعتدي لم تتوفر فيه اشتراطات الخليفة، ولأنه كذلك فهو المخلف وليس المستخلف.

وبطبيعة الحال بما أن هناك رحيم، يكون هناك من هو في حاجة لأن يُرحم، وبما أنّ الإنسان خُلق ضعيفا من حيث غرائزه ومشاعره وحواسه تجاه ما يُشبع الشهوات، إذن هو في حاجة لرحيم يجود عليه من واسع رحمته. ولهذا فالرّحيم لا يمكن أن يكون ضعيفا، ولا يكون منَّاعا للخير معتدٍ أثيم.

وعليه فالرّحيم قوي، ومن يُرد أن يكتسب هذه الخاصية ليصبح خليفة فعليه أن يتخلّص من أسباب الضعف والوهن، حتى يمتلك مقاليد الأمور التي تمكنه من أن يكون رحيما.

الرّحيم لا يمكن أن يكون خصما، ولذا من يدخل في خصام مع النّاس يفقد خاصية من خاصيات الاستخلاف في الأرض. ومع أنَّ الله جعل في الأرض خليفة إلا أنَّ الخليفة مهما امتلك من معطيات الرّحمة واتصف بأفعال الرّحيم، فهو في ذاته محتاج لرحيم ليحفظه من كلّ سوء، ولهذا قال تعالى {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}455.

الرّحمة، إضافة خير على من يستحقّه، ولذا زيادة الخيرات بين النّاس رحمة، ومن يعمل على ذلك تتجسد صفة الرّحيم في أفعاله وسلوكه. ومن لا يعمل على ذلك يُعد من الذين يفتقدون لخاصية من خاصيات الخليفة. ولذا فإن أفعال الخيرات الحِسان هي أفعال رحمة، وصفات من رحمن رحيم {أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا

454 أ القلم 12.

455 . يوسف 64.

سَابِقُونَ}456. وقوله تعالى: {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ}457. من الآيتين السابقتين يتضح ازدياد الرّحمة بالتسابق على أعمال الخيرات، والإسراع لأداء أفعالها الحِسان، وجاءت الخيرات مطلقة لتعم كلّ فعل من ورائه رحمة.

ولهذا يتضمن كلّ اسم من أسماء الله الحسنى، أرواح فاعلة، لإحداث الاستجابة، ولذلك كلّما دعوت بقلب سليم اسم من أسمائه الحسنى جاءتك الاستجابة التي بها تتغير الأحوال من سالب لموجب، أو من سيءٍ لحسن، أو من حسن لأحسن منه فالحمد لله ربِّ العالمين.

الرّحيم هو العطوف على كلّ من هو في حاجة لرحمته، ممّا جعل لكلّ طلب استجابة قابلة للاستدعاء عند الكرب وفي كلّ وجوب، وكذلك عند الضرورة {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}458. من يدع الله لا يخيب له رجاء، ومن يستجيب لله لا يضل طريق الصواب. لذا جاء خلق الخليفة ليعمر الأرض، وجاء الإيمان بالخالق فعل خير مترتب على فعل الخلق والاستخلاف في الأرض، ممّا يجعل الاستجابة في حالة مبادلة. فالاستجابة بالإيمان بالخالق ترتب عليها استجابة الخالق لعباده الداعين له {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَلَوْ بَسَطَ

456 المؤمنون 61.

457 آل عمران 114.

458 البقرة 186.

اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}459.

ومن رحمة الرّحيم بخلقه أنه أحسن بلطفه كلّ شيء بدأه وأتقن صنع كلّ شيء أنشأه، ودبرت الأحكام بحكمته، وصرف المحكومات بمشيئته، فأظهر في الغيب والشهادة لطيف قدرته، وعمّ في العاجل والآجل خلقه بنعمه التي أسبغها على خلقه ظاهرة وباطنة، ونشر على مَن أحبّ منهم فضله، وبسط لجميعهم عدله، وأنعم عليهم بتعريفهم إياه، سبحانه وتعالى، وأحسن إليهم باجتبائه إياهم إليه، وأفضل عليهم بتيسير كلّامه لهم، ومنّ عليهم ببعثه رسولا من أنفسهم إليهم يهديهم إلى سواء السبيل، وقد كانت دعوة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام رحمة لذريته أن يبعث الله فيه رسولا حيث قال تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}460 فقد دعا الله الرّحيم أن يبعث في ذريته رسولا منهم يقرأ عليهم آيات ويعلّمهم ما يوحى إليه به من كتاب وعلم نافع وشريعة محكمة، ويطهرهم من ذميم الأخلاق، إنك أنت الرّحيم بعبادك فيما تفعل وما تأمر به وما تنهى عنه، وما فعل ذلك إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وما دعا به ربّه إلا رحمة وشفقة وقد ثبت أنه استجيب له كما جاء في حديث رسول الله عليه الصّلاة والسّلام: "إني عند الله في أم الكتاب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسوف أنبئكم بتأويل ذلك، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرجت منها

---

459 الشورى 26، 27.

460- البقرة 129

نور أضاءت له قصور الشام"[461] فهو رحمة مهداة من الرّحيم يدعو إلى سبيل ربّه وهو سبيل الخير والصلاح والرّحمة بما أوتي من الحكمة ما يكمل به نفوسهم من المعارف الحقّة والأحكام والموعظة الحسنة التي تهدي إلى الصراط المستقيم، فكلّ كلّمة فيها عظة للإنسان أو تدعوه إلى مكرمة أو تنهاه عن قبيح فهي رحمة له ورحمة به، والتزكية بحسب قوتهم العملية هي تطهيرهم من دنس الشرك وأنواع المعاصي، وهذا رأفة وشفقة من الرّحيم على عباده في إجابة الدعاء من أجل رحمتهم وتراحمهم.

فان الله المقدس في ذاته، المنزه عن سمات النقص في صفاته، لم يخلق الخلق عبثا ولم يتركهم هملا، حيث أنزل لهم الرّحمة التي يرحمهم بها ويتراحمون فيما بينهم بها، فقد أودع في كلّ مخلوقاته من بديع صنعه ولطيف آياته ومن الحكم والعبر والرأفة والشفقة والعطف ما لا يدع مجالا لأن يشك عاقل في رحمة الرّحيم، بما وهب الخلق من هذه المشاعر وأثاب من يفعلها ويعمل بها. لقد غرس الرّحيم رحمته في قلوب خلقه وهذا معنى أنه أنزل عليهم رحمته كما قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: "إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة".[462]

فهذه الرّحمة التي خلقها الله لعباده وجعلها في نفوسهم في الدنيا هي التي يتغافرون ويرحم بعضهم بعضا، ويكون بينهم العفو والمغفرة فيما بدر من أحدهم للآخر، وكذلك يستعمل الله هذه الرّحمة فيهم

---

461 مسند الشاميين للطبراني، ج 5، ص 11

462 صحيح مسلم، ج 13، ص 311

فيرحمهم بها سوى رحمته التي وسعت كلّ شيء وهي التي من صفة ذاته ولم يزل موصوفا بها، فهي التي يرحمهم بها زائدا على الرّحمة التي خلقها لهم، ومن رحمته أيضا أن الله سبحانه وتعالى لأنه رحيم خصص ملائكة للاستغفار لمن في الأرض حيث قال تعالى: {كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}463 إن السموات مع عظمهن وتماسكهن يكدن أن يتشققن من فوقهن، خشية من الله ورهبة وخوفا، وتأثرا بعظمته وجلاله، والملائكة ينزهون الله عما لا يليق به، مثنين عليه بما هو أهله، ومع هذه العظمة وهذا الجلال المهيب، فإن الله تعالى لأنه رحيم بالعباد فقد أوعز إلى الملائكة بأن يسألوا الله المغفرة والرّحمة لأهل الأرض علما منه أن كثيرا من أهل الأرض لا يستغفرون، فأذن للملائكة أن تستغفر لهم حتى لا يهلك الصالحون، وكذلك يرحمهم بأن يرزقهم جنته وقربّه ووصاله، وبرحمته يأمر الملائكة بالاستغفار لبني آدم مع كثرة عصيانهم، وللكافرين الذين يرتكبون الشرك والذنوب العظام بأن لا يقطع رزقهم ولا صحتهم ويمتعهم من الدنيا وإن كان يريد أن يعذبهم في الآخرة، فهو وحده صاحبّ المغفرة الشاملة والرّحمة الواسعة. وهذه الرحمات التي أمسكها عنده، جعل ملائكته مستغفرين لمن في الأرض، لأنّ استغفارهم لهم دال على أن في نفوسهم الرّحمة لأهل الأرض بما فطرهم الرّحيم عليه. فالله سبحانه وتعالى هو الرّحيم المطلق بما رحم به جميع خلقه دون استثناء في الحياة الدنيا، من مؤمن وفاجر، ومسلم وكافر، وأمّا في الآخرة فأمرهم إلى الله الرّحيم، يحكم

463 الشورى 3- 5

بينهم ويحاسب كلّ واحد على عمله، ولذلك فقد جعل الرّحمة في قلوب عباده المؤمنين، وجعلهم خلفاء يرحمون ويأمرون النّاس بالتراحم، فالخليفة الذي أراده الرّحيم لإعمار أرضه هو رحيم بالإضافة، يرحم نفسه من أن يودي بها إلى التهلكة، ويرحم الآخرين ويأمرهم بالرّحمة، فقد جاء في الحديث: "أرسلت ابنة النبي صلّى الله عليه وسلّم إليه إن ابنا لي قبض فأتنا فأرسل يقرئ السلام ويقول إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكلّ عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الصبي ونفسه تتقعقع قال: حسبته أنه قال كأنها شن ففاضت عيناه فقال سعد يا رسول الله ما هذا فقال: "هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنّما يرحم الله من عباده الرحماء"464 أنّ رحمة الله تختص بمن اتصف بالرّحمة ويدخل في ذلك من فيه أدنى رحمة، والراحمون يرحمهم الرّحيم، لذلك وجب على الخليفة أن يكون رحيما ويتحلى بصفات الرّحيم ليكون رحيما بالإضافة، فيفعل ذلك ويحمل النّاس على التراحم، ذلك أنّ الله سبحانه وتعالى على الرغم من الحدود والشرائع والنواهي والمحرمات التي وضعها للناس، فهو يتجاوز عنهم بالرّحمة والمغفرة، لأنّه رحيم وقد ورد ذلك في مواضع كثيرة في القرآن الكريم فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}465 فمن رحمته أنه أباح للناس كلّ حلال خلقه لهم في

---

464 صحيح البخاري، ج 5، ص 31

465 البقرة 172- 173

الأرض، ونهاهم من أن يتبعوا خطوات الشيطان، فإنْ فعلوا ذلك اهتدوا ورحموا، وإن أبوا فإنه خص المؤمنين بهدايته وبيّن لهم الحلال والحرام، فقد أبيح لكم أن تأكلّوا من لذيذ الطعام الطيب وهذا من الرّحمة، وكذلك تحريم الخبيث من الرّحمة أيضا، فاشكروا الله على ما أوّلاكم من نعمة التمكين من الطيبات وإباحتها، ومن نعمة الطاعة والامتثال لأمره لتتم عبادتكم له حتى يتم رحمته لكم. وإنما المحرم عليكم الميتة التي لم تذبح من الحيوان، ومن الدم المسفوح، ومثله في التحريم لحم الخنزير، وما ذكر على ذبحه اسم غير الله من الوثن ونحوه، على أن من اضطر إلى تناول شيء من هذه المحظورات لجوعٍ لا يجد ما يدفعه غيرها أو لإكراه على أكلّه فلا بأس عليه، وليتجنب طلب هذه المحرمات والرغبة فيها، ولا يتجاوز ما يسد الجوع. على أنّ من دعته الضرورة إلى أكلّ شيء من هذه المحرمات غير طالب اللذة بالأكلّ، وغير متجاوز قدر الضرورة، فلا حرج عليه لأنّ الله تعالى هو أعلم بحاله وحال اضطراره، لذلك فهو غفور رحيم. ولأنّه رحيم فلا يؤاخذه على ذلك، لأنّه سبحانه وتعالى، غفور لعباده يغفر لهم ما يقعون فيه من أخطاء لا يصرون عليها، رحيم بهم حين منعهم ممّا يضرهم، وأباح لهم ما يحفظ حياتهم، ولا تقف رحمة الرّحيم عند حدّ الإقدام على ما نهى عنه الله تعالى من الطعام والشراب، ولكنّه تعالى يتجاوز عن كثير ممّا يرتكبه العباد بحقّه تعالى ويرحمهم إذا أخلصوا النية في التوبة والرجوع إلى الله تعالى، فقد ذكر الله تعالى الذين تخلفوا عن رسول الله عليه الصّلاة والسّلام في غزوة تبوك حيث قال تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحبّتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ

اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم}466 لقد تفضل الله سبحانه على نبيه، وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار، الذين خرجوا معه إلى الجهاد في وقت الشدة فثبتهم وصانهم عن التخلف، من بعد ما اشتد الضيق بفريق منهم، حتى كادت قلوبهم تميل إلى التخلف عن الجهاد، ثم غفر اللَّه لهم هذا الهم الذي خطر بنفوسهم، إنّه سبحانه كثير الرأفة بهم، عظيم الرّحمة. وتفضل سبحانه بالعفو عن الرجال الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج في غزوة تبوك – لا عن نفاق منهم – وكان أمرهم مرجأ إلى أن يبين اللَّه حكمه فيهم، فلما كانت توبتهم خالصة، وندمهم شديدا، حتى شعروا بأنّ الأرض قد ضاقت عليهم على رحبّها وسعتها، وضاقت عليهم نفوسهم هما وحزنا، وعلموا أنه لا ملجأ من غضب اللَّه إلا باستغفاره والرجوع إليه، حينئذ هداهم الله إلى التوبة، وعفا عنهم، ليظلوا عليها، إن الله كثير القبول لتوبة التائبين، عظيم الرّحمة بعباده.

إنّ الرّحيم بالإضافة يعلم مدى رحمة الله به، وحجم هذه الرّحمة التي أنعم بها عليه وعلى عباده، لذلك فهو دائم الرّحمة للآخرين بوسائل كثيرة ممّا وهبه الرّحيم المطلق من أنواع الرّحمة ممّا أسبغ عليهم من نعم الدنيا وما وعدهم به من الرّحمة في ما ينعم عليهم في الآخرة، فالنعم الدنيوية إنما تكون نعمة وسعادة متى ما استعملها على ما يجب وكما يجب، ويجري بها على الوجه الذي لأجله خُلق، وذلك أن الله جعل الدنيا عارية ليتناول منها قدر ما يتوصل به إلى النعم الدائمة والسعادة الحقّيقية والرّحمة الدائمة من الرّحيم المطلق. فشرع الرّحيم، في كلّ منها حكما بيَّن فيه كيف يجب أن يتناول ويتصرف فيها، لكن النّاس في تناولها فريقين: فريق يتناوله على الوجه الذي جعله الله لهم

466 التوبة 118

فانتفعوا به حسب ما أمر الرّحيم من التراحم بين الخلق في وجوه الخير لعباد الله من كفالة اليتيم والأرامل وبسط الوجه للفقراء والمساكين وما إلى ذلك من أبواب الرّحمة التي يتبعها الرّحيم بالإضافة ومن هم جديرون بأن يكونوا خلفاء، فصار ذلك لهم نعمة وسعادة وهم الموصوفون بقوله تعالى: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصّلاة وَآَتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}467 فهؤلاء الذين استحقّوا أن يكونوا خلفاء الرّحيم بما اتصفوا به من سمات الرّحمة النسبة وهم الذين وعدهم الرّحيم أن يجزيهم أحسن ما عملوا، لأنّه عندما مكّن مُكّن سلطانهم في الأرض حافظوا على حسن صلتهم بالله وبالنّاس بالتواد والتراحم والعطف، وكذلك في أداء حقّ الرّحيم عليم من العبادات، فيؤدون الصّلاة على أتم وجوهها، وحقّ الرّحمة التي زرعها في قلوبهم، فيعطون زكاة أموالهم لمستَحقّيها، ويأمرون بكلّ ما فيه خير، وينهون عن كلّ ما فيه شر، وهذا من أعظم أبواب الرّحمة، لأن الرّحيم مكن لخليفته في الأرض من أجل إقامة العدل، وعدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة، فأيّ رحمة للعباد من الخليفة أعظم من رحمة العدل والمساواة وإعطاء الحقّوق إلى أهلها، ولذلك فالرّحيم المطلق مكن للرحيم بالإضافة في الأرض وبسط له في الدنيا من أجل بسط الرّحمة ونشرها، فالخليفة ومن سار على نهجه في التراحم والأمر بالمعرف والنهي عن المنكر، وإتباع الإحسان فقد قال الله تعالى فيهم: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ}468 فهؤلاء الذين اتبعوا أوامر الله الرّحيم فيما شاءه من خير لعباده، والتزموا بأنهم يرحمون

---

467 الحج 41

468 النحل 30

الآخرين هم خلفاء الله في أرضه، لأنهم كانوا يسعون إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة للناس جميعا، فكانوا بذلك من المحسنين. واللّٰه الرّحيم سبحانه يكافئ المحسنين بحياة طيبة في هذه الحياة الدنيا، ويكافئهم في الآخرة بما هو خير وأحسن ممّا نالوه في الدنيا، ولنعم الدار التي يقيم فيها المتقون في الآخرة، فهم مرحومون من الرّحيم بما كانوا يرحمون. لأنهم التزموا الأوامر والنواهي بما ينشر الرّحمة بين النّاس، فكان ذلك في قلوبهم من الإيمان والصدق والإخلاص في النية، فالطاعة بالمال والبدن ولين الجانب وبسط الوجه والقيام بحوائج النّاس، هو من أبواب الرّحمة التي أمر بها الرّحيم.

وأمّا الفريق الثاني الذي أنعم الله عليه بنعمة المال والأمن والولد وزينة الحياة الدنيا، ولم يصرف ذلك في الوجه الذي أمر به الرّحيم، وكانوا غليظي القلوب وقد نزعوا من أنفسهم الرّحمة والعطف على الآخرين، وصرفوا ذلك بغير الوجه الذي يرضى الرّحيم عنه، وركنوا إلى ذلك، فصار لهم نقمة وشقاوة، فتعذبوا بها عاجلا وآجلا وهم الموصوفون بقوله تعالى: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}469 إن الذين لا ترق قلوبهم، ويحرصون على ما في أيديهم، ولا ينفقون في سبيل الله ابتغاء مرضاته، ولا يرحمون الآخرين، فإن الله ما أعطاهم هذا إلا ليكابدوا في سبيله المتاعب والمشقات، لحفظه في الحياة الدنيا، دون أن يؤجروا على ذلك، ويدركهم الموت، فيعذبون بسببها في الآخرة.

469 التوبة 55

إنّ الرّحيم المطلق الذي استخلف الإنسان في الأرض، أمره أن يتصف بصفات الرّحيم حتى يستحقّ أن يكون خليفة، وقد أمر النبي عليه الصّلاة والسّلام وهو سيد الخلفاء والمشرع لهم أن يكون الإنسان رحيما في أفعاله وأقواله وتصرفاته فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:" مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"470 ففي هذا تعظيم لحقّوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه، وأن يرحم بعضهم بعضا لحلاوة الإيمان لا لشيء آخر، وبالتواد التواصل الجالب للمحبّة كالتهادي وبالتعاطف إعانة بعضهم بعضا في قضاء حاجات من له حاجة. وكذلك يظهر من خلال هذا التراحم أنه يدل على أن الخليفة وهو المؤمن، يسره ما يسر أخاه، ويريد لأخيه المؤمن ما يريده لنفسه من الخير، وهذا كلّه إنما يأتي من كمال سلامة الصدر من الغل والغش والحسد، فإنّ الحسد يقتضي أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد في خير، أو يساويه فيه لأنه يحبّ أن يمتاز على النّاس بفضائله، وينفرد بها عنهم، والخليفة بأخلاقه ورحمته تقتضي تصرفاته وأفعاله وأقواله خلاف ذلك، وهو أن يشرك الجميع فيما أعطاه الله من الخير من غير أن ينقص عليه منه شيء وهو تمام التراحم، والخليفة من تمام صفات الرّحمة التي يكمن في قلبه وجوارحه أنه مؤمن، ولولا الإيمان لم يكن رحيما، لذلك فإن الله تعالى قال: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}471 فهو من أهل الإيمان الذين يتواصون فيما بينهم بالصبر وبالرّحمة، فالخليفة ومن كان على أخلاقه، أوصى

---

470 صحيح مسلم، ج 12، ص 468

471 البلد 17

بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله وعن المعاصي وفي المصائب يتواصون بالمرحمة فيما بينهم، أي أوصى بعضهم بعضا بالرّحمة على عباد الله أو بموجبات رحمته تعالى من الخيرات، والرّحمة هي الشفقة لمن يستحقّها من العباد يتيما أو فقيرا، والأمر بالتواصي بالصبر إشارة إلى التعظيم لأمر الله، وكذلك وتواصوا بالمرحمة إشارة إلى الشفقة على خلق الله والى التكميل بعد الكمال فان الإيمان كمال في نفسه وكذا الصبر والمرحمة وغيرهما من الأعمال الصالحة والتواصي من باب تكميل الرّحمة، فعلى سبيل المثال، إنّ الإطعام خصوصا وقت شدة الحاجة أفضل أنواع العفة، والإيمان أجلّ أنواع الحكمة وهو الإيمان العلمي العملي، والصبر على الشدائد من أعظم أنواع الشجاعة، والتراحم والتعاطف من أفضل أنواع العدالة.

ومن رحمة الرّحيم ما أوحى الله تعالى إلى أم موسى عليه الصّلاة والسّلام، حين أوحى إليها أن تقذف ابنها في التابوت وتلقيه في اليم، فتابعه الرّحيم برحمته منذ ولادته بالعناية والرعاية والرّحمة حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}472 ومن رحمة الله تعالى أن تفضل عليه بهذه الرعاية الإلهية وهو طفل رضيع لا يعرف أي شيء ولا يعرف ماذا يطلب أو ماذا يريد، ولكن الرّحيم الذي قدر كلّ شيء له حكمته فيمن يرعى، ولمن

472 طه 37- 41

يرحم، وإن كانت الرّحمة الدنيوية عامة لجميع الخلق، إنما هناك خصوص لهذه الرّحمة لبعض عباد الرّحيم، وهذا تذكير لموسى عليه الصّلاة والسّلام بما قد منّ عليه وعلى والدته في طفولته، فقد سبق أن تفضل عليه بمنة أخرى دون سؤال منه قبل أن يعرف الكلّام، حين ألهم أمه إلهاما كريما ما الذي يجب أن تفعله حفاظا على حياته.

لقد ألْهمها الرّحيم أن تضع هذا الطفل الرضيع في التابوت، وأن تلقي به في النيل، لينجيه من فعل فرعون الذي كان يقتل كلّ طفل ذكر ولد في ذلك العام لا يشفع له شفيع، وكان من رحمته أن سخر الماء أن يلقي ذلك التابوت الذي يحمل هذا الطفل في شاطئ قصر فرعون وشاءت إرادة الرّحيم أن يأخذ فرعون هذا التابوت الذي يحمل هذا الطفل، وفرعون هو عدو للرحيم المطلق وعدو للرحيم بالإضافة، ولكن الله أحبّ هذا الطفل حبّ رحمة وولاية، ليحبّه كلّ من يراه، ولتربّى تربية كريمة ملحوظا برعاية الرّحيم وعنايته وحفظه، ومن تمام الرّحمة وسابق العناية به، حين مشت أخته ترقب أمره، فلما صار في قصر فرعون، ورأتهم يبحثون له عن مُرْضِع دلَّتهم على أمه، وبهذا فقد ردّه إليها لتفرح بحياته وعودته، ولتكف عن الحزن والبكاء، وكذلك من رحمة الرّحيم به عليه الصّلاة والسّلام، فقد أسبغ الله تعالى على موسى عليه الصّلاة والسّلام وعلى أمه من الأمن والطمأنينة ما يحفظه بها وما تقر عين أمه وذلك من النعم العظام عليه لما فيه من وجوه الرّحمة، ولما كبر وقتل خطأ رجلا من قوم فرعون نجّاه من الغم الذي لحقّ به، وخلصه من شرورهم، فذهب إلى مدين ومكثت فيها سنين عدة، ثم عاد من مدين في الموعد الذي قدره الله العليم الرّحيم حيث اصطفاه للوحي وحمل الرسالة، فمن تمام رحمة الرّحيم بموسى أن:" عمدت أم موسى إلى التابوت فقذفته في النيل، فانطلق الماء بالتابوت

حتى توارى عنها، فجاء الشيطان فنّدمها وأنساها ما كان الله عزّ وجلّ ألهمها إذ جعلته في التنور، فجعل الله عليه النّار بردا وسلاما، وندمت حين جعلته في التابوت وقالت: لو ذبح ابني بين يدي كنت أكفنه وأدفنه في التراب، وكان أحبّ إلي وأسلى لهمي من أن ألقيه في البحر، فيأكلّه دواب البحر وحيتانه، ثم ذكرها الله ما أنساها الشيطان فقالت: إن الذي خلصه من النّار سيحفظه في اليم، فاحتمل النيل التابوت حتى تعلق بشجرة ممّا يلي فرعون، فبينا فرعون في مجلسه إذ أقبل النيل بالتابوت تضربّه الأمواج، فقال فرعون: إن هذا لشيء في البحر قد تعلق بالشجرة، ترفعه الأمواج وتضعه، ائتوني به. فابتذروه بالسفن من كلّ جانب، حتى وضعوه بين يده، فعالجوا فتح التابوت فلم يقدروا عليه، وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نورا لم يره غيرها، للذي أراد الله أن يكرمها، فعالجته ففتحت التابوت، فإذا هي بصبي صغير في مهده، فإذا نور بين عينيه، وقد جعل الله رزقه في البحر في إبهامه، وإذا إبهامه في فيه، يمصه لبنا، وألقى الله لموسى المحبّة في قلب آسية، فلم يبق منها عضو ولا شعر ولا بشر إلا وقع فيه الاستبشار، فذلك قوله: "وألقيت عليك محبّة مني، وأحبّه فرعون وعطف عليه"473.

إنّ رحمة الرّحيم واسعة، لذلك وجب عل كلّ عبد مؤمن أن يطلب الرّحمة من الرّحيم، ذلك أن رحمة الله خير من الدنيا وما فيها وما عليها، وأل من يطلب الرّحيم المطلق هو الرّحيم 474بالإضافة، لأنه من أوّلي الألباب وأصحاب الرأي وذلك لقوله تعالى: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

473 – مختصر تاريخ دمشق 7،428

الْوَهَّابُ}475 ولأنهم علماء عاقلون يعرفون معنى رحمة الرّحيم يقولون: ربنا لا تجعل قلوبنا تنحرف عن الحقّ بعد إذ أرشدتنا إليه، وامنحنا اللهم رحمة من عندك بالتوفيق والتثبيت إنك أنت المانع المعطي، فهو متفضل بما ينعم به على عباده من غير أن يجب عليه شيء، فالراسخون في العلم، يطلبون من الرّحيم، رحمة التثبيت على الإيمان بعدم إزاغة قلوبهم عن الحقّ والهدى، وكذلك طلب التوفيق للدين الصحيح والإيمان بأن يهب لهم رحمة من عنده يكون فيها التوفيق والتثبيت لما هم عليه من الإيمان، وأن يهب لهم تجاوزا عما بدر منهم بطريق الخطأ، فهو يهب المغفرة والرّحمة، ولكونه وهابا فهو رحيم، والهبة من الرّحيم هي العطية الخالية عن الأعواض والأغراض، والوهاب في صفة الله تعالى أنه يعطي كلّ أحد على قدر استحقّاقه وزيادة، وهذه هي من رحمة الرّحيم، حيث الله تعالى يعطي الحسنة بعشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء فقد قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حبّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كلّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حبّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}476 فالرّحيم المطلق أمر الرّحيم بالإضافة بأن يرحم الآخرين ويأمرهم بالرّحمة، وذلك من أجل سعادة الإنسان وأن يساعد الغني الضعيف، وأن ينصر العزيز من كان ذليلا، وان يغني الغني من يجده فقيرا، وقد وعد الرّحيم من يأخذ في هذه الوجه من الخير أن يرحمه رحمة مضاعفة، لذلك فقد ضرب لهم المثل في ذلك الذين يسعون في الخيرات لنشر رحمة الرّحيم، لن يكونوا أرحم من الله تعالى، فحال الذين يبذلون أموالهم في طاعة الله ووجوه الخير، وينالون على ذلك

475- آل عمران 8

476 – البقرة 261

ثواب الله المضاعف أضعافا كثيرة، كحال من يبذر حبّة في الأرض طيبة فتنبت منها شجيرة فيها سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة، وهذا تصوير لكثرة ما يعطيه الله من جزاء على الإنفاق في الدنيا، والله يضاعف عطاءه لمن يشاء فهو واسع الفضل والرّحمة وهو الغني الحميد.

إن الله سبحانه وتعالى رحيم يحبّ الرّحمة والرحماء، فقد أمر الخليفة بأن يكون رحيما لين الجانب عطوفا دمث الأخلاق، يملأ العين مهابة والقلوب محبّة من رحمته على الآخرين، وهذه الرّحمة التي تسكن قلب الخليفة إنما هي من الرّحيم المطلق الذي وهبه إيّاها، لتحنو عليه القلوب، وتجله العقول، فتتبع المعروف الذي يأمر به، والإحسان الذي يدعو إليه بالحكمة والرّحمة والتعاطف والتآزر فقد قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}477 فهذه رحمة من الله بك وبهم أن جعلك لهم لين الجانب بما أودع في قلبك من الرّحمة، ولم تغلظ في القول بسبب خطئهم، ولو كنت جافي المعاملة قاسى القلب، لتفرقوا من حولك، فتجاوز عن خطئهم، واطلب المغفرة لهم، واستشرهم في الأمر متعرفا آراءهم بما يحبّون وبما لا يحبّون، فإذا عقدت عزمك على أمر بعد المشاورة فامض فيه متوكلّا على الله، لأنّ الله رحيم يحبّ الرحماء.

477 آل عمران 159

4- مستغفر:

قال الله تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}478.

طلب المغفرة من الله تعالى على ما يتهيأ للمؤمن من أفكار أو لِما قام به من عمل لا يليق بمن آمن بالله تعالى، أو لِما ارتكبه من ذنب ثم استدرك نفسه بالالتجاء والعودة إلى الله بدلا من الاستمرار أو البقاء على ما يُحيّده عن إيمانه به تعالى.

قال تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كلّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ}479، في هذه الآية الكريمة جاء الاستغفار سابقا على التوبة وهكذا دائما التوبة تلاحقّ الاستغفار وهو يرتبط بها. وقال: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}480. ترشد هذه الآية الكريمة إلى أن صالحا صلّى الله عليه وسلّم قد أرسل إلى ثمود، ليحرضهم على عبادة الله واحد أحد، أمّا قوله (أنشأكم في الأرض واستعمركم فيها) تأكيد على أن أصل خلق الإنسان من تراب، والأرض هي الأصل وهي مصدر الرزق والعيش، ولهذا فالاستخلاف فيها لأجل إعمارها بالبناء والعيش من

478 هود 61 – 62.

479 - هود 3.

480 هود 61.

خيراتها الوافرة التي تتطلب من الخليفة أن لا يغض بصره عن مكامن الخيرات فيها ويعمل ليتطوّر ويشبع حاجاته طوال عمره حتى النهاية. والاستغفار هو ذكر الله دائما بالوحدانية والقدرة المطلقة وتذكُّر عن غفلة أو انقياد للشهوة على حساب التمسك بالحقّ. والتوبة هي: عودة إلى الله بالتصديق دون شك فيما يقول. ولهذا جاء الاستغفار مقدما للتوبة، أي أن الاستغفار إذانا بإعلان التوبة.

وقال تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}481، كما سبق أن بينا في الآيات السابقة، جاء الاستغفار أوّلا ثم التوبة ثانية والاستغفار والتوبة يُقدِّمان طاعة لرحيم ودود لتكون الإجابة المغفرة.

التوبة في الشرع ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط فيه والعزيمة على ترك المعاودة وتدارك ما أمكن أن يتدارك من الأعمال بالإعادة فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كمل شرائط التوبة، وتاب إلى الله وتذكر ما يقتضي الإنابة، والتزم بأمره إقداما على ما يجب وانتهاء عما لا يجب الإقدام عليه.

والتوبة تصحيح أخطاء والتمسك بالصواب المرضِي لله تعالى، فالتوبة حقّ وواجب على المؤمنين جميعا، مصداقا لقوله تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}482.

ولأنّ الكمال لله وحده، فالإنسان مع أنه خلق في أحسن تقويم إلا أنّه لم يكن كاملا، ولذا فهو مُعرَّض لأن يقع في الأخطاء، ولأنّه

481 هود 90.

482 النور 31.

يتذكر ويتفكر فهو قادر على أن يصحح أخطاءه كلّما تداركها بالإيمان.

قال: {أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}483، أي؛ من عمل خطيئة وهو لا يعلم بعاقبة الأمور المترتبة عليها نتيجة جهله بمعرفة الحقّيقة ثم عاد عن ارتكاب الخطيئة إلى التمسك بما هو صواب وحقّ فإن الله غفور رحيم. فالله عظيم ليس لديه حاجة لأن يخاصم العباد، ولذا فالمغفرة خاصية لله تعالى، ولأنها خاصية إذن بطبيعة الحال سيكون غفورا لمن يكفر بالذنوب والخطايا ويتوب إليه عزّ وجلّ.

قال تعالى: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى}484. الغفَّار هو القادر على التجاوز عن الأخطاء، وغفران الذنوب والخطايا، وهو الذي يمتلك أمر المغفرة لمن تاب وآمن وعمل عملا صالحا يرضاه. وقوله تعالى: (وإنّي لغفار) تعود على ذات الله الذي بيده الأمر فيغفر لمن يشاء ويعاقب من يشاء بيده الخير وهو الرّحمن الرّحيم. وهذه الآية تدل على أن أمر مغفرة الذنوب والخطايا بيد الله وحده ولا أحد غيره قادر على أن يغفر ذنبا أو خطيئة، ولذا فمن أراد أن يُغفر له فعليه بالتوجه إليه وأن يتوب أوّلا ثم يؤمن ثم يعمل عملا صالحا حتى يهتدي وينال المغفرة من الله تعالى. وعليه لا مغفرة إلا بتوبة وإيمانٍ وعملٍ صالحٍ وهدايةٍ، وبدون هذه مجتمعة فلا مغفرة، فالمغفرة ليست أمرا هينا بل هي مطلبا يسعى المؤمن لنيله من الغفار الحقّ؛ ومن يظن أنه بإمكانه الحصول عليها متى ما يشاء فنقول

483 الأنعام، 54.

484 طه 82.

له هذه قد لا تَهِب لك، فعليك من بعد التوبة بالإيمان والعمل الصالح والهداية وإلا لن تنال من أمر المغفرة شيئا.

وقال عزّ وجلّ: {وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}485 الذين عملوا السيئات هم الذين تابوا من بعد أن ارتكبوها، ولذا؛ فإنّ التوبة هي عودة منحرف عن انحرافه أي العودة إلى التمسك بما أمر به الله تعالى والابتعاد عمَّا نهى عنه. يتضح من هذه الآية الكريمة أن أمر المغفرة مترتب على ما يسبقها من أعمال إيمانية.

قال تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ}486. لهذه الآية عمومية مطلقة بأن الله يتوب على من يشاء متى ما يشاء بعد أن يتوب العبد عن أفعال السوء التي ارتكبها بجهالة، والذين يتوبون من قريب هم الذين لم يبلغ الأمر بهم للشرك به، أي ما دون الشرك حيث باب التوبة مفتوح، وهذا الأمر يتعلق بإعطاء الفرص للمؤمن المدرِك لأمر ربّه قبل فوات الأوان عليه بالموت أو ارتكاب المعصية الكبرى والشرك.

(إنّما التوبة على الله) تتضمن ضمانا تامّا ومؤكدا بأن الله سيغفر للذين يعملون السوء عن جهالة وليس عن وعي ويقين وبيّنة مع الإصرار، بل لأنهم جهلاء بما سيترتب عليها من عقاب وغضب من الله ممّا يجعلهم يقدمون عليها ويرتكبونها، ومن بعد أن يعوا ويعرفوا حقّيقة الأمر يتوبون ويكفّرون عن سيئاتهم ويؤمنون ويهتدون إلى الحقّ ويبتعدون عن الباطل بعدها حقّا يجدون الله غفارا ودودا رحيما.

485 الأعراف 153.

486 النساء 17.

5- ناصح:

يقول الله تبارك وتعالى: {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}487، هذه الآيات الكريمة يتبين من خلالها تحقّق العذاب على قوم صالح عليه الصّلاة والسّلام، وكأن سيدنا صالح قال ذلك ليتذكروا كيف أبلغهم رسالات الله ومنهجه ونصح لهم وتحنن عليهم أن يلتزموا بمنهج الله، لكنّهم لم يستمعوا للنصح. ولم يحبّوا الناصحين؛ لأنّ الناصح يريد أن يُخرج المنصوح عما ألفه من الشر، وعندما ينصحه أحد يغضب عليه488.

والنصح: تحري: فعل أو قول فيه صلاح صاحبه. قال تعالى: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}489، وقال تعالى: {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}490، أمّا النصح فكان مع النبي صالح عليه الصّلاة والسّلام في قوله تعالى: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}491.

فكان ناصحا لامته وكلّ نبي هو ناصح لامته، ذلك أنّ النبي يرى ما لا يراه غيره من النّاس، فإدراكهم العقلي لا يتجاوز في كثير من الأحيان خطوات أقدامهم، وعند الحديث عن النصح نجدهم يقولون

487 الأعراف 77- 79.

488 تفسير الشعراوي، ج 1، ص 2944.

489 الأعراف 77- 79.

490 الأعراف 21.

491 الأعراف 79.

وهو من قولهم: نصحت له الود. أي: أخلصته، وناصح العسل: خاصله، أو من قولهم: نصحت الجلد: خطته، والناصح: الخياط، والنصاح: الخيط، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}492؛ فمن أحد هذين؛ أمّا الإخلاص؛ وأمّا الإحكام، ويقال: نصوح ونصاح نحو ذهوب وذهاب493.

ومعاجم اللغة أيضا تسلك المسلك نفسه بالقول (نصح) نَصَحَ الشيءُ خَلَصَ والناصحُ الخالص من العسل وغيره وكلّ شيءٍ خَلَصَ فقد نَصَحَ والنُّصْح نقيض الغِشّ مشتق منه نَصَحه وله نُصْحا ونَصِيحة ونَصاحة ونِصاحة ونَصاحِيةً ونَصْحا وهو باللام أَفصح قال الله تعالى وأَنْصَحُ لكم ويقال نَصَحْتُ له نَصيحتي نُصوحا أَي أَخْلَصْتُ وصَدَقْتُ والاسم النصيحة والنصيحُ الناصح وقوم نُصَحاء وفي الحديث إِن الدِّينَ النصيحةُ لله ولرسوله ولكتابه ولأَئمة المسلمين وعامّتهم قال ابن الأَثير النصيحة كلّمة يعبر بها عن جملة هي إِرادة الخير للمنصوح له فليس يمكن أَن يعبر عن هذا المعنى بكلّمة واحدة تجمع معناها غيرها وأَصل النُّصْحِ الخلوص ومعنى النصيحة لله صحة الاعتقاد في واحديته وإِخلاص النية في عبادته والنصيحة لكتاب الله هو التصديق به والعمل بما فيه ونصيحة رسوله التصديق بنبوّته ورسالته والانقياد لما أَمر به ونهى عنه ونصيحة الأَئمة أَن يطيعهم في الحقّ ولا يرى الخروج عليهم إِذا جاروا ونصيحة عامّة المسلمين إِرشادهم إِلى

492 التحريم 8.

493 مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ج 3، ص 461.

المصالح وفي شرح هذا الحديث نظرٌ وذلك في قوله نصيحة الأَئمة أَن يطيعهم في الحقّ ولا يرى الخروج عليهم إِذا جاروا فأَيّ فائدة في تقييد لفظه بقوله يطيعهم في الحقّ مع إِطلاق قوله ولا يرى الخروج عليهم إِذا جاروا؟ وإِذا منعه الخروج إِذا جاروا لزم أَن يطيعهم في غير الحقّ وتَنَصَّح أَي تَشَبَّه بالنُّصَحاء واسْتَنْصَحه عَدَّه نصيحا ورجل ناصحُ الجَيْب نَقِيُّ الصدر ناصح القلب لا غش فيه كقولهم طاهر الثوب وكلّه على المثل قال النابغة أَبْلِغِ الحرثَ بنَ هِنْدٍ بأَني ناصِحُ الجَيْبِ بازِلٌ للثوابِ وقومٌ نُصَّح ونُصَّاحٌ والتَّنَصُّح كثرة النُّصْحِ ومنه قول أَكْثَمَ بن صَيْفِيّ إِياكم وكثرةَ التَّنَصُّح فإِنه يورث التُّهَمَة والتوبة النَّصُوح الخالصة وقيل هي أَن لا يرجع العبد إِلى ما تاب عنه قال الله عز وجل توبةً نَصُوحا قال الفراء قرأَ أَهل المدينة نَصُوحا بفتح النون وذكر عن عاصم نُصُوحا بضم النون وقال الفراء كأَنّ الذين قرأُوا نُصُوحا أَرادوا المصدر مثل القُعود والذين قرأُوا نَصُوحا جعلوه من صفة التوبة والمعنى أَن يُحَدّث نفسه إِذا تاب من ذلك الذنب أَن لا يعود إِليه أَبدا وفي حديث أُبيّ سأَلت النبي صلّى الله عليه وسلم عن التوبة النصوح فقال هي الخالصة التي لا يُعاوَدُ بعدها الذنبُ494.

النصح أو النصيحة: هي بذل النصح للغير والنصح معناه: أن الشخص يحبّ لأخيه الخير ويدعوه إليه ويبينه له ويرغبه فيه وقد جعل النبي صلّى الله عليه وسلّم الدين النصيحة وقد بايع رسول الله بعض صحابته على النصح لكلّ مسلم وهي من حقّوق المسلمين فيما بينهم قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ

494 لسان العرب، ج 2، ص 615.

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}495، وقوله تعالى: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}496.

والأمّانة من صفات الأنبياء والمرسلين الذين ائتمنهم الله على رسالته إلى خلقه، والذين هم أمناء على ما يعود بالنفع على أمتهم، وحريصون على هدايتهم وإرشادهم.

قال تعالى: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}497، قبل أن ندخل في الحديث عن صفة الناصح للنبي صالح عليه الصّلاة والسّلام نذكر حديث الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم الذي يطرح فيه دور الناصح، قال الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا"498. هذه هي رسالة الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام ألا وهي الأخذ بيد النّاس نحو النجاة، والنجاة لا تتحقّق حين تمس الدعوة شغاف قلوب النّاس وتتركهم دون أن تغيّر ما بهم من:

- كفر بالله تعالى.

---

495 الحجرات 10.

496 الأعراف 62.

497 الأعراف 79.

498 الحديث أخرج ه البخاري في الصحيح، ج 3، ص 182.

- شرك بالله تعالى.

- انحراف عن طريق الفضيلة.

بل لابدّ أن يحصل التغيير وتظهر ثمار الدعوة بكلّ الوسائل سواء أكانت:

- بالترغيب.

- أم بالترهيب.

وان لم يحصل التغيير بعد استخدام كلّ الوسائل تسقط كلّ الحجج التي يحاول أي واحد أن يلتمسها يوم القيامة، فالأدلة والبراهين جاءت واضحة مثل الشمس في كبد النهار، إذ يقول تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حقّتْ كلّمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}499.

والإسلام لم يترك النصيحة دون أن يضع لها آدابا حتى تحقّق مبتغاها وأهمها:

-أن تكون في السر ما لم يجاهر بها صاحبّها.

- وأن تكون بالأسلوب المناسب وفي اللحظة المناسبة.

- وأن تكون بنية الإصلاح والتغيير إلى ما هو أحسن.

---

499 الزمر 71، 72.

وأن تكون خالصة لوجه الله تعالى، وأن يتجرد الناصح من حوله وقوته إلى حول الله وقوته. وعدم رعايته هذه الآداب قد يولد في نفس المنصوح نوعا من العزّة بالإثم، ويحاول التعبير عنها في شكلّ مراء أو جدل ليبرر به ما هو عليه من خطأ، ولا يقبل النصيحة.

والنصح يكون محل ثقة ذلك أنّ الاستشارة تقصده لأنّه محل الثقة، فالواجب على العاقل السالك أن يعلم أنّ المشاورة تفشي الأسرار فلا يستشير إلا اللبيب الناصح الودود الفاضل في دينه وإرشاد المشير المستشير قضاء حقّ النعمة في الرأي والمشورة لا تخلو من البركة إذا كانت مع مثل من وصفنا نعته

وأمّا النصيحة للمسلمين فبأن يحبّ لهم ما يحبّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويشفق عليهم، ويرحم صغيرهم، ويوقر كبيرهم، ويحزن لحزنهم، ويفرح لفرحهم، وإن ضره ذلك في دنياه كرخص أسعارهم، وإن كان فيه فوات ربح ما يبيع من تجارة، وكذلك جميع ما يضرهم عامة، ويحب صلاحهم وألفتهم ودوام النعم عليهم، ونصرتهم على عدوهم.

ودفع كلّ أذى ومكروه عنهم.

وقال ابن الصلاح: النصيحة كلّمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلا.

بيان النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم فالنصيحة لله توحيده ووصفه بصفات الكمال والجلال، وتنزيهه عما يضادها ويخالفها ويجتنب معاصيه، ويقوم بطاعته ومحابته بوصف الإخلاص والحبّ فيه.

والنصيحة لكتابه الإيمان به، وتعظيمه وتنزيهه، وتلاوته حقّ تلاوته، والوقوف مع أوامره ونواهيه، وتفهم علومه وأمثاله وتدبر آياته، والدعاء إليه، وذب تحريف الضالين وطعن الملحدين عنه500.

وأمّا الناصح فغرضُه بذلك إزالة عيب أخيه المؤمن واجتنابه له وبذلك وصف الله تعالى رسوله صلّى الله عليه وسلّم فقال: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}501، ووصف بذلك أصحابه فقال: {محمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}502، ووصف المؤمنين بالصبر والتواصي بالمرحمة، يقول تعالى: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}503.

6- صالح:

الصالح هو من توفرت فيه معطيات الصلاح ليكون نافعا ومفيدا لِما يَقدِمَ عليه من عمل، وهو من يُصلح أحوال المفسدين وفسادهم في الأرض دون كلّل ولا ملل، ولذا لا مُصلح بالمطلق إلا الله تعالى أمّا المستخلفين فيها فهم في دائرة الممكن هم المصلحون فيها بالإضافة،

500 غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، ج 1، ص 63

501 التوبة 28 1.

502 الفتح 29.

503 البلد 17.

قال تعالى: {يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فوزا عَظِيمًا إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}504.

وعليه لقد انطبق اسم صالح مع صفة الإصلاح؛ فهو صالح في اسمه وهو صالح في صفاته وهو صالح في أفعاله، ولذا فهو غير منقوص من حيث ما فيه إصلاح، ولهذا بُعث صالح ليصلح أحوال قومه ليكونوا مصلحين في الأرض كما يشاء الله أن يكون بني آدم مستخلفين فيها بالإصلاح والإعمار، ولهذا جاء صالح مصلحا وصالحا وناصحا ومرشدا لقومه، قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آَمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}505.

7 . أمين:

يقول تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}506.

نصح النبي صالح صلّى الله عليه وسلّم قومه، بما نصح به هود ونوح قومهما من قبله، فقد أمرهم بتقوى الله وصارحهم بصدقه معهم،

---

504 الأحزاب 71، 72.

505 الشعراء 144 . 152.

506 الشعراء 142 – 145.

وبتعففه عن تعاطي الأجر على نصحه لهم. فهو مرسل من الله لقومه بما فيه الخير والسعادة، حفيظ على هذه الرسالة كما تلقاها عن الله.

والأمين هو من يؤتمن جانبه، وهو الذي يتقي الله ويخشاه في كلّ أمر يقدم عليه، إنَّه المؤمن بالحقّ قولا وعملا خالصا لله وحده، وهو الموثوق فيه من قبل الآخرين الذين تربطه بهم علاقات موضوعية.

والأمين هو محل الأمّانة وأمين تعنى ممّا تعني:

- الحريص.

- المتقي لله تعالى.

- المتمكن من حُسن الأداء.

- الآمن.

ولذا؛ فكلّ هذه المعاني جاءت في الآية الكريمة السابقة الله عليه وسلّم، فهو الحريص، والمتقي لله تعالى.

الأمين الذي يؤتمن جانبه ويوثق في قوله وفعله وعمله وسلوكه، وهو المخلص لمن ائتمنه، فلا يخالف ولا يخون ولا يزوِّر الكلّم عن مواضعه والحقّائق عن حُجحها، وهو الذي إن عاهد وفي.

الأمين هو الصادق والمصدق الذي تودع لديه الأمّانات وتسلم على يديه بالمحافظة عليها فلا تضيع ولا تُزوَّر ولا يزيد ولا ينقص منها شيئا.

والأمّانة قد تكون من الله تعالى كما هو حال الأنبياء والرّسل الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ وجعل بين أيديهم أمّانات منه للعباد تستوجب الإيمان والطاعة والتبشير والإنذار والتحريض والأخذ بما جاء

فيها قولا وعملا، والانتهاء عمَّا نهت عنه وتجنب ما أنكرته وتحريم ما حرَّمته.

ولأنّ كلّ أمّانة تستوجب أن يكون أحد أمينا عليها، والرسالات السماوية أمّانات فقد اصطفي الله تعالى لها الصدِّقين رُسُلا حافظين ومبشرين ومنذرين وفاعلين بها بين العباد الخيرات الحسان، قال تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}507.

بأسباب انتشار الكذب اتصف البعض به؛ فكانوا من الكاذبين كما كان قوم نوح عليه الصّلاة والسّلام الذين كذَّبوا الحقّ الذي جاءهم به مُرسلا من الله تعالى، ولأنهم كاذبون لم يقولوا على الحقّ إلا افتراء، فلو كان نوح مدعيا بما أتاهم به أنه من بنات أفكاره جاز لهم تكذيبه، ولكن نوحا عليه الصّلاة والسّلام لم يقل إلا الحقّ، وهو أنه مُرسل لهم من الله تعالى ليطيعوه ولا يشركوا به شيئا ويتقوه، ولذلك نوح لم يتاجر بالرسالة التي أؤتمن عليها بل أجره على الله ربُّ العالمين، أي أن نوح لم يطلب مقابل منهم سوى الإيمان بالله ربا واحدا أحدا.

ثمود قوم صالح:

قبيلة سكنت منطقة تمتد من الجبال إلى السهول، وتدل الآيات القرآنية على أنهم شغلوا هذه المساحة مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ

507 الشعراء 105 . 111.

سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}508.

هذا من حيث ملامح الموقع الذي كانت ثمود تسكنه، وهناك أمور أخرى تبينها الآيات القرآنية عن هذه القبيلة، منها:

- زمنهم
- تكوينهم
- قدراتهم
- عقيدتهم

زمن ظهور ثمود قوّة متكاملة منسجمة مهيأة للتبليغ بالرسالة كان على وجه التحديد بعد عاد كما يخبرنا عنهم العليم الخبير: (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ).

ما الذي يعنيه جعلهم خلفاء؟

شغلت لفظة (خليفة) حيزا معرفيا كبيرا في الفكر العربي سواء أكان ذلك على الصعيد الشرعي أم التاريخي في تشكلّ يدعو إلى تساؤلٍ عن كثير من الجوانب الفكرية والمعرفية التي ترددت بين ثنايا كتب التاريخ حول حقّيقة المفهوم.

وبداية حديثنا عن الخليفة في اللغة، يقول ابن منظور في لسان العرب "اسْتَخْلَفَ فلانا من فلان جعله مكانه وخَلَفَ فلان فلانا إذا كان خَلِيفَتَه يقال خَلَفه في قومه خِلافةً وفي التنزيل العزيز: {وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ

---

508 - الأعراف 74.

الْمُفْسِدِينَ}509، وخَلَفْتُه أَيضا إذا جئت بعده ويقال خَلَّفْتُ فلانا أُخَلِّفُه تَخْلِيفا واسْتَخْلَفْتُه أَنا جَعَلتُه خَلِيفَتِي واسْتَخْلفه جعله خليفة، والخَلِيفةُ الذي يُسْتخْلَفُ ممن قبله والجمع خلائف"510، وفي لغة الفقهاء أن الخليفة: "من يخلف غيره ويقوم مقامه"511.

ورد لفظ (خليفة) في النص القرآني في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}512، وهذا كان ضمن سياق الآيات العظيمة التي كانت تمثل البداية الأوّلى للبشرية، فسماع هذه الآية يحيل إلى تشكلّات مختلفة كانت تؤشر بداية البشرية ومن بين هذه التشكلّات هي الخلافة، فقد وردت ضمن سياق قصة رسمت البداية الأوّلى في كلّ تفاصيلها، ومن بين هذه التفاصيل كانت الخلافة، وسياق الخطاب القرآني في هذه القصة اتسم بالتشريف لآدم عليه السلام، فهذا المخلوق شرّفه الله تعالى وعرضه للملائكة بطريقة ارتسمت فيها عظمة الله تعالى وقدرته وعلّمه أن خلق ما في الأرض كانت لأجله فتَهَيَّأتْ نفسه لسماع قصة إيجاد منشأ النّاس الذين خُلقت الأرض لأجلهم، ليُحيط بما في ذلك من دلائل القدرة مع عظيم المنة وهي منة الخلق التي نشأت عنها فضائل جمة ومِنَّة التفضيل ومنة خلافة الله في الأرض513.

---

509 الأعراف، 142.

510 لسان العرب، ج 9، ص 82.

511 معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 200.

512 البقرة 30.

513 التحرير والتنوير، ج 1، ص 205.

ويلاحظ أن لفظة الخليفة في النص القرآني وردت بصيغة التنكير التي تحمل دلالة الإطلاق المنفتح غير متحقّق على اسم شخص بعينه، ولهذا كانت البداية لورود اسم الخليفة بداية لتشكلّ نمط معرفي للصورة التي يكون عليها النسق المراد تحقّيقه في الأرض.

وهنا تكمن الأصول والمعايير والتوافقات التي تتحد في ضوء اختيار رباني، وهكذا كان الخليفة آدم عليه الصّلاة والسّلام.

فهنا في هذا السياق تجيء قصة استخلاف آدم في الأرض، ومنحه مقاليدها، على عهد من الله وشرط، وإعطائه المعرفة التي يعالج بها هذه الخلافة، كما أنها تمهد للحديث عن استخلاف بني إسرائيل في الأرض بعهد من الله؛ ثم أعطى مقاليدها للأمة المسلمة الوافية بعهد الله فتتسق القصة مع الجو الذي تساق فيه كلّ الاتساق514، إذ يقول تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}515. ويلاحظ في الآية الكريمة أنّ صيغة الخطاب وان قصد بها بني إسرائيل إلا أنّها تشمل عموم المؤمنين بالله وملائكته ورسله.

وإيحاءات لفظة (خليفة) ترسم أبعادا مهمة لما سيتحقّق في الأرض بعد خلق آدم عليه الصّلاة والسّلام، فمهمته لم تكن يسيرة وفق ما تمليه عليه لفظة (خليفة). كما أنّ الخلافة التي أرادها الله تبارك وتعالى لم تتوقف عنده بل استمرت وذلك من خلال الرّسل الذين بعثهم الله تعالى إلى أمم في أمّاكن وأزمان مختلفة، إذ يقول تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كلّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا

---

514 في ظلال القرآن، ج 1، ص 27.

515 - البقرة 40.

وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}516، واستمر هذا النسق إلى مبعث نبينا محمّد عليه الصّلاة والسّلام، فبمبعثه انقطعت الرسالات والنبوات فكان خاتما لها. أمّا من حيث الخلافة فهي تسير كما نعتقد وفق صيغة مطابقة لاستمرار الرّسل، وذلك في قوله تعالى (تَتْرَى) فهذه اللفظة ترسم صورة التتابع المتحقّق للرسل، لكن هذا التحقّق ينتهي بخاتم الرّسل والأنبياء نبينا محمّد عليه الصّلاة والسّلام، أمّا الخلافة فلا تنتهي إلا بنهاية الحياة.

ولم يكن أمر الخلافة مرتبط بـ(آدم) صلّى الله عليه وسلّم فقد وردت في سياقات أخرى في النص القرآني، من ذلك قوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}517 وقوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}518.

فالله عزّ وجلّ جعل ثمود خلفاء في الأرض ليصلحوا حيث كان فيهم مؤهلات الاستخلاف من التهيؤ الذي يتولد لدى الإنسان يعتمد على سلسلة العلاقات المترابطة بين أشياء مادية وقضايا عقلية وانفعالات عاطفية ومسائل روحانية، وبتلاقح بعض منها مع البعض الآخر يتولد نوع معين من التهيؤ في اتجاه معين قابل للخروج إلى

516 – المؤمنون 44.

517 – ص 26.

518 – النور 55.

مرحلة الاستعداد لممّارسة الفعل، ولذا، لا يمكن أن يكون أحادي المصدر، إذ أنّ التهيؤ الإنساني لا يتكون إلا من عنصرين على الأقل ممّا ذكرنا، حيث أنّ مكونات التهيؤ هي:

1- مادية وهي الأداة.

2- عقلية وهي سلسلة الأفكار.

3- نفسية وهي انفعالات العواطف.

ولا يمكن أن تستكمل متممّات التهيؤ للإنسان إلا بوجود التهيؤ المادي، ذلك أنه الأداة المنفذة لقرار الإرادة، وبتآلف التهيؤ المادي مع تهيؤ آخر ممّا ذكرنا يكون الإنسان وصل إلى حالة التهيؤ التام في اتجاه معين، وكذلك لما لديهم من استعداد الذي هو تجميع القوّة وتأهبها للمواجهة والعمل مع اخذ الحيطة من الوقوع في الفشل أو الغفلة، ولا يكون إلا من أجل أهداف قابلة للتحقّيق. ويعُرف بأنه "كون الشيء بالقوّة القريبة أو البعيدة إلى الفعل"519.

والاستعداد تجميع قوّة وتحديد قدرة وتسخير وسيلة لأداء فعل وإنجاز هدف وتحقّيق غرض وبلوغ غاية.

وهكذا فقد كان لدى ثمود استعداد لأن يكونوا خلفاء بما امتلكوا من القوّة ووسائل التصرف فيها، فقد أشار القرآن الكريم إلى عدد من منجزاتهم التي تدل دلالة قوية على القوى منها:

519 التعريفات، ج 1، ص 5.

- كانوا قادرين على تسخير الطبيعة من اجل تحقّيق الأهداف المعاشية الفاخرة، فالنص القرآني وصف حياة ثمود بالرفاهية: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ}520.

- قوّة وقدرة على البناء، فقد وصف الله عزّ وجلّ بيوتهم بالقصور مصداق لقوله تعالى: (تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا)

- قوّة التصرف بالجبال والاستفادة من مواردها، فقد ذكر القران عنهم أنهم كانوا يجوبون الصخر بالواد كما يخبرنا العليم الخبير: {وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}521.

- قوّة النحت بالصخور فقد كانوا ينحتون الجبال، (تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا).

- قوّة زراعية، حيث استطاعوا التصرف بالسهول فزرعوها بأنواع من الزر وع والنخيل مصداقا لقوله تعالى: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ}522.

عليه: فقد كانوا من أصحاب القوّة الجسدية والمادية والاقتصادية وكذلك الفكرية، إذ لو لم يكن لديهم من الفكر شيء لما تسنى لهم تسخير هذه الموارد الطبيعية لخدمة معايشهم.

ونعتقد أنّ الزمن بين عاد وثمود لم يكن بعيدا لأن سياق الذكر في القرآن الكريم دائما ما يربط بين عاد وثمود، كما في الآيات الكريمة:

520 - الشعراء 149.

521 - الفج ر 9.

522 - الشعراء 146-148.

- {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ}523، وبعدها مباشرة في سياق ذكر الأقوام ترد ثمود: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا}524.

- {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}525.

وكثير من الآيات التي تربط بين عاد وثمود ربطا له دلالته.

هنا نتساءل:

ما هي دلالة الجمع؟

نقول إن الدلالة تشير إلى ارتباط أو أكثر بين عاد وثمود من حيث:

- الزمن

- الآل

نقول: من حيث الزمن فإنّ الآيات تبين لنا القرب الشديد بين زمني عاد وثمود، ويوحي الترتيب المتكرر لتقدم عاد على ثمود، أمّا الآية التي نجد فيها تقدم ثمود على عاد فإنه تشير من جانب أو آخر إلى نوع من المعاصرة للقبيلتين في زمن واحد، أو إن ثمود كانت قريبة الزمن من عاد بحث عاصرت ولو قليل من نهايتها.

---

523 - الأعراف 65.

524 - الأعراف 73.

525 - فصلت 13.

أمّا من حيث الآل آل: يؤل أوّلا، وآل الشيء للشيء رجع إليه. والآل الأصل الذي يؤل الدم إليه، وعليه الآل أداة ربط لعلاقات دم تربط الفروع الأصول.

ونحن إذ نعرض لمفهوم الآل ولعلاقة عاد وثمود، وقوّة الارتباط بينها في نصوص القرآن الكريم نريد الإشارة إلى إيحاء الارتباط النسبي الذي توحي به قوّة الارتباط بين القبيلتين، ولعل ذلك راجع إلى رابط نسبي بين الاثنين.

تكوين قبيلة ثمود

يشير النص الكريم إلى كون مجتمع ثمود كغيره من المجتمعات مجتمعا طبقيا يقوم على تفاضل طبقات أفراده تبعا لموجبات التفاضل الطبقي السائد آنذاك وعلى النحو الآتي:

الملأ:

أشار الله عزّ وجلّ إلى أنّ الطبقة المسيطرة، أو الطبقة العليا في التقسيم الطبقي هم الملأ مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ ربّه قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ}526.

والملأ هم: "أَشْرافُ القوم ووجُوهُهم ورؤَساؤهم ومُقَدَّمُوهم الذين يُرْجَع إِلى قولهم"527.

فهذا الملأ يمثل كبراء ثمود وقد امتازوا بعدد من السمات منها:

526 – الأعرف 75.

527 – لسان العرب، ج 1، ص 158.

من أصحاب الاستكبار: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ}528، واسْتَكْبَر الشيءَ رآه كبيرا وعَظُمَ عنده529، والاستكبار طلب الكبر من غير استحقّاق530.

ويلاحظ الاستكبار واضح في ملأ ثمود من خلال موقفهم من الرّسول صالح من حيث:

1- الشك به {وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}531.

2-نعته بالمسحور {قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ}532.

3- نعته بالكذاب الأشر، {أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ}533.

3- تطيرهم به {قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ}534.

4 - الكفر، {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}535.

5 - عتوهم، {وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ}536.

---

528 الأعراف 57.

529 - لسان العرب، ج 5، ص 125.

530 - الفروق اللغوية، ج 1، ص 32.

531 هود 62.

532 {قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} [الشعراء: 153]

533 القمر 25.

534 النمل 47.

535 الأعراف 76.

536 الأعراف 77.

وسنفصل ذلك في الحديث عن صالح صلّى الله عليه وسلّم بين قومه.

ب. من أهل المكر والغدر

يذكر الله عزّ وجلّ عن بعض ملأ صالح أنهم مكروا به وبأهل الإيمان فقال عز من قائل: {قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}537.

ج. غلبة المادية

تدل الآيات أنّ هذا الملأ عجب ممّا يقول صالح من الرسالة ومبادئ الإصلاح التي جاء لإرسائها في ثمود، فقد عجبوا متسائلين منكرين كما يخبر الله عنهم: {قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}538.

وهذا من أهم مظاهر ماديتهم البادية رسوخ عقيدة الإشراك المتوارثة فيهم، دون فقه حقّيقي لهذه العقيدة إنما هو ميراث يتوارثونه بينهم، وهذا في الحقّيقة يمثل هروبا من الغيبية والروحية إلى المظاهر المادية، حيث يرى من يؤمن بها صعوبة كبير في الإيمان بإله واحد لا يراه.

---

537 - النمل 49-51.

538 - هود 62.

الأرهط التسعة:

اختار عدد من علماء اللغة القول عن: (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ).

أنّ إضافة تسعة إلى رهط ههنا باعتبار أن رهطا لكونه اسم جمع للقليل في حكم أشخاص ونحوه من جموع القلة وهي يضاف إليها العدد كتسعة أشخاص وتسع أنفس وهذا معنى قولهم: إن وقوع رهط تمييزا لتسعة باعتبار المعنى فكأنه قيل تسعة أشخاص، وقيل أيّ تسعة أنفس. وتأنيث العدد لأنّ المذكور في النظم الكريم (رَهْطٍ) وهو مذكر فليس ذاك من غير الفصيح كقوله ثلاثة أنفس وثلاث ذود.

أمّا ما قيل عن تفسيره بأنّ المقصود تسعة رجال ففيه الغفلة عمّا أشرنا إليه، ثم إنّه ليس المراد أنّ الرهط بمعنى الشخص، أو بمعنى النفس، بل أنّ التسعة من الأشخاص أو من الأنفس هي الرهط فليس المعدود بالتسعة ما دل عليه الرهط من الجماعة ليكون هناك تسع جماعة لا تسعة أفراد.

والأقرب أن يكون المراد تسعة جمع إذ الظاهر من الرهط الجماعة، ثم يحتمل أنّهم كانوا قبائل، ويحتمل أنهم دخلوا تحت العدد لاختلاف صفاتهم وأحوالهم لا لاختلاف النسب، وقيل: كان هؤلاء التسعة رؤساء مع كلّ واحد منهم رهط[539].

وهكذا، عرفنا من اللغة أن المقصود تسع جماعات لا يتجاوز الواحد منها العشرة من الإفراد، فالعدد التقريبي لهذه الجماعة المفسدة

539 – تفسير الألوسي، ج 14، ص 494.

يتراوح بين العشرة والتسعين، ولعل من المفيد التوقف مع نوع فعل هؤلاء أكثر من التوقف مع عددهم.

لقد وصف الله عزّ وجلّ هؤلاء وصفا دقيقا لا يماثل في قوّة الدلالة أي وصف بشري لهم فقال عز من قائل: (يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ).

فالفعل هو الإفساد الخالص من الإصلاح بالمطلق وهذا باد جلي من خلال بنية السياق القرآني الذي التوكيد والنفي في آن واحد للدلالة على قطعية الفعل وطبيعته فهم يفسدون فعلا متحقّقا مؤكدا، ثم هم لا يصلحون نفيا قاطعا لعمل الإصلاح منهم، والنفي أخلص فعل الإفساد الذي كانوا يتعاطونه.

الأمر الآخر لهذا الرهط هو طبيعة فعل الإفساد، فقد ورد ذكر فعلهم بصيغة المضارع المستمر الدال على الحاضر والمستقبل، فالإشارة هنا تدل على ديمومة الفعل.

(يُفْسِدُونَ في الأرض) إشارة إلى أنّ إفسادهم لم يكن في ثمود فقط، بل كان يتجاوز ذلك ليصل الإفساد إلى أصقاع أحرى من الأرض، وهو من عادتهم المستمرة ذلك الإفساد كما يدل عليه الفعل المضارع.

المستضعفون:

كان هناك في قوم ثمود فئة من المستضعفين ذكرها الله عزّ وجلّ بقوله: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ

آَمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ ربّه قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ}540.

المستضعفون فيها دلالة إلى وقوع الضعف فيهم، أمّا لكونهم قلة، فالقلة من وجوه الضعف مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النّاس}541.

أو لكونهم من فاقدي الاستقلالية المعنوية أو المادية، إذ التبعية من وجوه الضعف البارزة مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}542.

أو لكونهم من الفقراء الذين كانوا يفتقدون القوّة التي تعينهم على مواجهة صعوبات الحياة مصداقا لقوله تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النّاس إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}543.

عليه: فالمستضعفون في قوم صالح هم من كانوا على درجة من هذه الدرجات أو كانوا على كلّ هذه الدرجات الاجتماعية.

540 - الأعراف 75.

541 - الأنفال 26.

542 - القصص 5،4.

543 - البقرة 273.

أمّا موقف هؤلاء المستضعفين من صالح ورسالته فسنعرض له بالتفصيل في الحديث عن موقف قوم صالح صلّى الله عليه وسلّم من صالح ورسالته.

هذا من حيث طبقاتهم الاجتماعية.

أمّا من حيث

- قدراتهم

تبين الآيات الكريمة أن ثمود امتلكوا قدرات متميزة في العمران والإنتاج، فقد كانوا قادرين على تسخير الطبيعة من اجل تحقّيق الأهداف المعايشة الفاخرة، فالنص القرآني وصف حياة ثمود بالرفاهية: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ}544.

ووصف بيوتهم بالقصور مصداق لقوله تعالى: {تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا}545، وتأتّى هذا من عملهم فقد كانوا يجوبون الصخر بالواد كما يخبرنا العليم الخبير: {وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}546.

وينحتون الجبال، (تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا).

---

544 - الشعراء 149.

545 الأعراف 74.

546 - الفجر 9.

ثم هم بعد ذلك استغلوا السهول وزرعوها بأنواع من الزروع والنخيل مصداقا لقوله تعالى: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آَمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ}547.

عليه فقد كانوا من أصحاب القدرات الجسدية والمادية والاقتصادية وكذلك الفكرية، إذ لو لم يكن لديهم من الفكر شيء لما تسنى لهم تسخير هذه الموارد الطبيعية لخدمة معايشهم.

عقيدة ثمود:

نقول:

أوّلا: إنّ الرّسالة السماوية تستهدف أو ما تستهدف التوحيد، توحيد الله واحدا أحدا، وهذه هي من أوّلى مستهدفات رسالة صالح، هنا نتساءل:

فماذا كانت عقيدة ثمود؟

وكيف أصبح؟

ولماذا تحولت؟

لقد كانت عقيدة ثمود أوّل الأمر عقيدة موروثة من الآباء يشوبها الشرك، ويدل على ذلك ما نص عليه رسولهم صالح كما يخبرنا العليم الخبير: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}548.

547 - الشعراء 146-148.

548 - هود 61.

وكذلك يدل عليه ردهم على الرّسول مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}549.

عليه: كانت عقيدتهم قبل دعوة صالح تقوم على الإشراك والإشراك هو التعدد، بمعنى أن ثمود كانت تدعو مع الله إله آخر لذلك قال لهم رسولهم {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}550، وفي هذا الخطاب دلالة واضحة على أنهم كانوا يعبدون مع الله إلها آخر.

فالفساد الذي دخل عقيدة ثمود هو فساد مصدره عدم التوحيد، فكانت رسالة صالح لتشرح وتبين وتدلل على أن الله هو الواحد.

الواحد في اللغة يفيد الانفراد في الذات أو الصفة، فتقول هو واحد أهل عصره تريد أنه قد انفرد بصفة ليس لهم مثلها وتقول الله واحد تريد أن ذاته منفردة عن المثل والشبه.

والواحد ما لا ينقسم في نفسه أو معنى في صفته دون جملته كإنسان واحد ودينار واحد، وما لا ينقسم في معنى جنسه كنحو هذا الذهب كلّه واحد وهذا الماء كلّه واحد، والواحد في نفسه ومعنى صفته بما لا يكون لغيره أصلا هو الله جلّ ثناؤه551.

والله هو الواحد في ذاته، {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ}552، الذي لم يلد ليكون أكثر من واحد أو أن يكون بعده واحد، وهو الذي لم يولد فلم يسبقه واحد، {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}553.

549 - هود 62.

550 الأعراف 59.

551 الفروق اللغوية، ج 1، ص 400.

552 الإخلاص 1،2.

الواحدُ بُني على انقطاع النظير وعَوَزِ المثل554، {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}555، فلا أحد يعدل الله الواحد ليصل إلى درجة التكافؤ وهي التساوي المطلق بين طرفين556، أي أن يكون مقابل للواحد يساويه بالمطلق، وهذا معدوم، وإذا حل العدم اختص بالواحدية فهو الواحد الأحد سبحانه وتعالى، فهل من إله ادّعى الخلق؟

والإجابة لا، هنا تأتي الآية المفحمة لكلّ كفار أثيم، {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}557، ثم أن ربنا الواحد خلق ثم هدى فأين المنكر من هذا الفعل العظيم، {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كلّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}558، "أي أعطى كلّ شيء من الأشياء الأمر الذي طلبه بلسان استعداده من الصورة والشكلّ والمنفعة والمضرة وغير ذلك أو الأمر اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع المطابق له كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الأبصار والأذن الشكلّ الذي يوافق الاستماع وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان كلّ واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه"559.

553 الإخلاص 3.

554 تهذيب اللغة، ج 2، ص 170.

555 الإخلاص 4.

556 الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، ج 1، ص 395.

557 النحل 17.

558 طه 50.

559 تفسير الألوسي، ج 12، ص 170.

كما انعدمت درجة التماثل، يقول الواحد سبحانه وتعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}560.

وانتفاء التماثل علته تعالي الواحد عما سواه، فالواحد أكبر من كلّ شيء فتعالى الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو المراد من قوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء)، وأمّا تعاليه عن كلّ شيء في ذاته، فيحتمل أن يكون المعنى جل بوجوب وجوده وقدمه عن جواز الفناء والتغير عليه، وأن يكون المعنى جل بفردانيته وواحديته عن مشابهة شيء من الممكنات، وأمّا تعاليه عن كلّ شيء في صفاته فيحتمل أن يكون المعنى جل أن يكون علمه ضروريا أو كسبيا أو تصورا أو تصديقا وفي قدرته أن يحتاج إلى مادة ومدة ومثال وجلب غرض ومنال، وأمّا في أفعاله فجل أن يكون الوجود والبقاء وصلاح حال الوجود إلا من قبله561.

فالواحد له أحادية الوجود، فليس هناك حقّيقة إلا حقّيقته، وليس هناك وجود حقّيقي إلا وجوده، وكلّ موجود آخر إنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقّيقي، ويستمد حقّيقته من تلك الحقّيقة.

وهي من ثم أحادية الفاعلية، فليس سواه فاعلا لشيء، أو فاعلا في شيء، فإذا استقر هذا التفسير، ووضح هذا التصور، خلص القلب من كلّ غاشية ومن كلّ شائبة، ومن كلّ تعلق بغير هذه اللذات الواحدة المتفردة بحقّيقة الوجود وحقّيقة الفاعلية562.

---

560 الشورى 11،12.

561 تفسير الرازي، ج 11، ص 381.

562 في ظلال القران، سيد قطب، ج 8، ص 127.

هذه مبادئ التوحيد التي أُريد لثمود وغيرها من الأقوام أن تفهم حقّيقتها، وهي حاضرة إلى اليوم في تصحيح العقائد التي يدخلها شيء من الشرك.

لكن تغيرا أُريد له أن يحصل في لعقيدة ثمود بإرادة الله عزّ وجلّ، تغيير يحولها من الضلال إلى الهدى مصداقا لقوله تعالى: {وَأَمّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحبّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}563.

هذه الآية تطرح تساؤلات كثيرة مثيرة منها:

- هل كان الهدى عام؟
- هل كان برسالة صالح أم قبلها؟
- لماذا تحول من كفر من الهدى إلى الكفر؟
- هل هدى الله متغير؟
- هل في الآية من دال على الاختيار؟
- ما هي ماهية الاختيار؟

نقول: إن هدى الله عام وخاص، بمعنى أنه عام للخلق الباحثين عن الله الحقّ، فكلّ إنسان يبحث مخلصا عن ربّه وخالقه لاشك سيهديه الله عزّ وجلّ إليه كما حدث مع إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحبّ الْآَفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ

563 - فصلت 17،18.

لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}564.

وهدى خاص بمعنى أن الله يختص به من يشاء رحمة منه سبحانه وتعالى {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}565، ولا علة لذلك إلا ما يريد جلّ وعلا {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} 566.

وثمود من الذين هداهم الهادي هدى خاص (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ).

والمعنى: وأمّا ثمودُ فهديناهم هداية إرشاد برسولنا إليهم وتأييده بآية الناقة التي أخرجها لهم من الأرض.

فالمراد بالهداية هنا: الإرشاد التكلّيفي، وهي غير ما في قوله: {ومن يهد الله فما له من مضل}567، فإن تلك الهداية

564 - الأنعام 75-80.

565 - آل عمران 73،74.

566 - الأنبياء 23.

567 - الزمر 37.

التكوينية568 لمقابلته بقوله: {وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}569.

وثمود نالت هدى الهادي الذي أرسل الرّسل للهداية، ولكن أهل الضلال استحبّوا العمى على الهدى، قال الله تعالى: {فَاسْتَحبّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}570، وحبّ العمى على الهدى انصراف بالكلّية عن طريق الرشاد إلى طريق الفساد لا محالة ومن طريق الخلافة إلى طريق الغواية، ومن ارتضى هذا المسلك أوجب على نفسه الضلال، وابتعد عن نعمة الله التي أوجبها على نفسه في هداية خلقه إلى ما فيه خيرهم وبقائهم.

وللهداية أربعة أنواع:

1- هداية دلالة. بمعنى: أنّ الله الهادي قد وضع طرق الهداية لجميع الخلق ليهتدوا وأعطاهم من الوسائل التي تعينهم على تقبل الهداية من عقل يربط بين الأشياء قياسا ومنطقا واستدلالا ونتيجة واقتناعا وسلوكا واقتداء وتأثيرا وتأثرا، فمن قبل وعمل استحقّ النوع الثاني من الهداية وهو هداية المعونة.

2- هداية معونة: بأن يعينه الله ويثبته على الهداية.

3-هداية تسديد: للمهتدي الذي يريد أن ينشر الهدي الصحيح

4- هداية تأييد: للأنبياء بالمعجزات والوحي وليس لسواهم.

568 - التحرير والتنوير، ج 13، ص 19.

569 - غافر 33.

570 فصلت 17.

والله هو الهادي الذي في هديه طريق النجاة للفوز بسعادة الدارين الدنيا والآخرة، والهادي اسم من الأسماء الحسنى، والهُدى ضد الضلال، وهو الرشاد والدلالة، وقوله عزّ وجلّ: {قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى}571، أي الصراط الذي دعا إليه"572 والهدى من الهادي هو الطريق الحقّ كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى}573

إنّ الهادي تبارك وتعالى أمر عباده بإتباع سبيله من خلال آياته وأنبيائه وكتبه ورسله، وبين لهم الطرق ووضح لهم السبل حتى يتبين الرشد من الغي والهدى من الضلال والإصلاح من الإفساد، وميز الصديق الصالح من قرين السوء فقد قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الحقّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحقّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحقّ أَحقّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}574؛ فالله سبحانه وتعالى ينصُّ في هذه الآية على أنه هو الهادي، لا عن طريق المباشرة، وإنما من خلال الدلائل التي بثها في هذا الكون والمعجزات الدالة على الخالق، فبين سبحانه بما هو مستقر في الفطرة أن الذي يهدي إلى الحقّ أحقّ بالإتباع ممن لا يهدي، إلا أنّ يهديه غيره.

فمتى كان هذا الهدى؟

نعتقد الهدى كان برسالة صالح صلّى الله عليه وسلّم برسالته وآيته التي طلبوها منه لتأكيد قوله بأنه رسول بحجّة قوية تصل إلى درجة الآية مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا

571- البقرة 120.

572 - لسان العرب، ج 15، ص 353.

573 - الليل 12.

574- يونس 35.

بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآَيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ}575.

ونعتقد جازمين أنّ الهدى حصل بصالح وبرسالته وبمعجزته، وإنّ من يتبع هذا الهدى فهو مهتدٍ لا يضله شيء إلا الله، ومن لا يتبع فقد أضاع الهدى فلا يهديه هاد إلا الله عزّ وجلّ.

هنا نقول: إنّ هدى الله باق لا يتغير، إنما المتغير هو الاختيار الذي دلت عليه الآية(فَاسْتَحبّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)، فماهية الاختيار هنا هي ماهية استحبّاب، أنّ في لفظ الاستحبّاب ما يشعر بأن قدرة الله تعالى هي المؤثرة وأنّ لقدرة العبد مدخلا ما فإن المحبّة ليست اختيارية بالاتفاق وإيثار العمى حبّا وهو الاستحبّاب من الاختيارية، فانظر إلى هذه الدقيقة تر العجب العجاب، وإلى نحوه أشار الأمّام الداعي إلى الله تعالى قدس سره، ومعنى كون المحبّة ليست اختيارية أنها بعد حصول ما تتوقف عليه من أمور اختيارية تكون بجذب الطبيعة من غير اختيار للشخص في ميل قلبه وارتباط هواه بمن يحبّه، فهي نفسها غير اختيارية لكنها باعتبار مقدماتها اختيارية576.

صالح رسول الله بين قومه:

واجه صالح صلّى الله عليه وسلّم من قومه مواقف متعدد من المهم الوقوف عندها لبيان أسباب الرفض عند من كفر والقبول عند من آمن، وعلى النحو الآتي:

575 - الشعراء 153-155.

576 - تفسير الألوسي، ج 18، ص 179.

موقف العموم:

الاعتراف

كان لثمود موقفا موحدا من صالح صلّى الله عليه وسلّم قبل أن يجهر برسالته ويبلغهم بكونه رسول الله وهو الاعتراف، والاعتراف منطق التسليم بالحقّيقة، وهو حاجة لكلّ إنسان على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي، والاعتراف مطلب وسيظل إلى أن يتم الحصول عليه بالإرادة577.

وهذا موقف يدل على حقّيقة أنّ الأنبياء والمرسلين هم على درجة عالية من الالتزام بالقيم الصالحة، وهم يدعون إلى الإصلاح قبل تكلّيفيهم وبعد التكلّيف، فقد قالت ثمود لصالح كما يخبرنا العليم الخبير: {قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}578.

وفي تفسير هذا الموقف وجوه:

الأوّل: أنّه لما كان رجلا قوي العقل قوي الخاطر وكان من قبيلتهم قوي رجاؤهم في أن ينصر دينهم ويقوي مذهبهم ويقرر طريقتهم لأنه متى حدث رجل فاضل في قوم طمعوا فيه من هذا الوجه.

الثاني: قال بعضهم المراد أنك كنت تعطف على فقرائنا وتعين ضعفاءنا وتعود مرضانا فقوي رجاؤنا فيك أنك من الأنصار والأحبّاب، فكيف أظهرت العداوة والبغض579؟

577 عقيل حسين عقيل، منطق الحوار بين الأنا والآخر، ص 19، 20.

578 - هود 62.

579 - تفسير الرازي، ج 8، ص 431.

هذا يمثل نوعا من الاعتراف والتقدير لصالح صلّى الله عليه وسلّم.

الانقسام:

بعد أن أبلغهم صالح صلّى الله عليه وسلّم أنه رسول الله انقسمت ثمود إلى فريقين على وجه الخصومة مصداقا لقوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ}580.

والخصومة كانت في بدايتها خصومة فكرية حيث لم يظهر من هذه الخصومة سوى الجدل المصاحبّ لها وهو جدل مستمر بدلالة استخدام الفعل المضارع (يختصمون)، بل إن من كفر من ثمود لم يظهر لمن آمن أي من الموقف التي وجدناه في رسالات أخرى كالإخراج أو التهديد بالرجم أو أي موقف يدل على تحول الخصومة بين الفريقين من المستوى الفكري إلى المستوى المادي مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ ربّه قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}581.

ولكن الرهط المفسد وبعد أن أسقطت الحجّة بيده أبى إلا أن يحوّل الخصومة إلى نزاع مادي يتمثل بالكيد بصالح وأهل عقيدته مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}582.

580 - النمل 45.

581 - الأعراف 75،76.

582 - النمل 49-51.

موقف الملأ:

اتخذ الملأ في ثمود مواقف متعددة من صالح رسول الله بعد أن أبلغهم أنّه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، منها:

الشكّ:

الشكّ: خلاف اليقين. وأصله اضطراب النفس، ثم استعمل في التردد بين الشيئين سواء استوى طرفاه، أو ترجح أحدهما على الآخر 583، وموقف الشك أصاب العقول من قبل ولازال يصيبها إلى الآن، ولعل لنا أن نقول أن الشك مصدره التنازع بين الملموس والمحسوس، فالإنسان لا يفتأ الانتقال في هذه الحياة بين ماديتها وروحيتها بين مادية الحاجات، وروحية العقائد، لذلك فالشك هو موقف، ولكن يجب أن يكون موقفا موجبا وذلك بان يكون وسيلة للوصول إلى الحقّيقة واليقين لا أن يكون أداة للكفر والنفي بدون ركائز حقّيقة لذلك الرفض.

وقد شك الملأ في صالح مع كونه من قبل عندهم من المرجوين أي الذين يُرجى من أفعالهم الخير والصلاح فقالوا له بنص ما أخبرنا المولى عزّ وجلّ: {وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}584.

فالشك هو أن يبقى الإنسان متوقفا بين النفي والإثبات والمريب هو الذي يظن به السوء، فقوله: (وَإِنَّنَا لَفي شَكٍّ) يعني به أنّه لم يترجح في اعتقادهم صحة قوله وقوله: مُرِيبٍ يعني أنه ترجح في اعتقادهم فساد قوله وهذا مبالغة في تزييف كلامه585.

583 – الفروق اللغوية، ج 1، ص 209.

584 – هود 62.

585 – تفسير الرازي، ج 8، ص 432.

إنّ شك ثمود في صالح لم يكن له مرتكز حقّيقي يقوم عليه ن بل هو وهم التكذيب والإنكار ليس إلا، بل الأوّلى أن لا يكون الشك وقد اعترفوا أن صاحا كان مرجوا عندهم من قبل.

2-التكذيب:

هو إدعاء الكذب على المقولة أو الفعل، بمعنى أن التكذيب يحصل في الحوار، وكذلك يحصل في المشاهدة.

هنا نتساءل:

هل كذّبت ثمود صالح رسول الله؟

أم كذّبت آيات الله؟

أم كذّبت إنذار صالح؟

نقول: لقد كذّبت ثمود بكلّ ذلك، فقد كذب أوّل ما كذبت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ).

وسبب تكذيبهم صالحا أنهم رأوا في بشريته مانعا للتصديق برسالته فَقَالُوا مصداقا لقوله تعالى: {أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ}586.

وكأنهم كانوا ينتظرون رسولا من غير جنسهم، والمسالة هنا تستحقّ أن نتوقف معها قليلا، فهذا المبرر التكذيبي ورد في أكثر من رسالة فقد قيل من قبل لنوح عليه الصّلاة والسّلام: {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا}587.

---

586 - القمر 24،25.

587 - هود 27.

ومع صالح، {مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}588،

ومع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: {وَمَا مَنَعَ النّاس أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا}589.

ونريد أن نقول في هذا المقام:

أنّنا نعتقد أن في هذا الادعاء بقية من كبر إبليس على آدم، فقد كان يرى في بشريته دونية تجعله يترفع عن السجود له طاعة لأمر الله كما يخبرنا عن ذلك العلاّم الخبير: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}590.

هذه البقية كانت ترى في بشرية الأنبياء مانعا لتكلّيفهم برسالة الله عزّ وجلّ، فلم ينظروا إلى القيم التي تحملها دعواتهم الإصلاحية، بل كانوا يركزون النظر في أفعالهم البشرية التي تتطابق مع أفعال هؤلاء المكذبين أو المدعوين للتكذيب بما جاء به الرّسول، مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكلّ مِمّا تَأْكلّون مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمّا تَشْرَبُونَ}591.

588 الشعراء 154.

589 – الشعراء 94-95.

590 – الأعرف 12.

591 – المؤمنون 33.

عليه فإن هذا المبرر كان مبررا تشم فيه رائحة تعالي إبليس عليه اللعنة على البشرية.

وبعد ذلك فثمود كذبوا بآيات الله، فقد كذبوا بالناقة التي أرسلهما الله حجّة معجزة لصالح عليه الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا}592.

كذلك كذبت ثمود بالوعد الذي أوعدهم إياه رسولهم صالح عليه الصّلاة والسّلام كما يخبرنا عنهم الحقّ جلّ وعلا: {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ}593.

أمّا سبب التكذيب فكان لأسباب، ذكرنا منها بشرية صالح كانت من أسباب تكذيبهم، ثم استحبّابهم الكفر {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}594، ثم بعد ذلك الطغيان مصداقا لقوله تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}595.

فهل كذبت كلّ ثمود؟

لقد ورد سياق التكذيب لكلّ ثمود (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ)، ولكن هذا التعميم من أساليب العربية المعروفة التي تسمى التغليب،

592 – الإسراء 59.

593 – هود 65.

594 فصلت 17.

595 – الشمس 11-15.

وفيه دلالة على أنّ الذين كذبوا كانوا أعم وأكثر من الذين صدقوا، فقد صّدق قلة من المستضعفين برسالة صالح.

3 – الكيد:

كاد المفسدون من ثمود بصالح وأهله، وأخبرنا الله عزّ وجلّ عن تفصيل كيدهم فقال: {قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}596.

قَالُواْ استئناف بيان بعض ما فعلوا من الفساد، أي قال بعضهم لبعض في أثناء المشاورة في أمر صالح عليه السلام: (وتَقَاسَمُواْ بالله) وهذا أمر من التقاسم، أي التحالف وقع مقول القول.

ومقول القول (لَنُبَيّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ) البيات مباغتة العدو مفاجأته بالإيقاع به ليلا وهو غافل. وأراد واقتله عليه الصّلاة والسّلام وأهله ليلا وهم غافلون.

(ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيّهِ) أي لولي صالح. والمراد به طالب ثأره من ذوي قرابته إذا قتل. والمعنى على ذلك قالوا متقاسمين بالله ليبيتنه قوم منا ثم لنقولن جميعنا لوليه (مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ) أي ما حضرنا هلاكهم على أنّ (مُهْلِكَ) مصدر كمرجع أو مكان هلاكهم على أنه للمكان أو زمان هلاكهم على أنه للزمان. والمراد نفي شهود الهلاك الواقع فيه. واختاروا نفي شهود مهلك أهله على نفي قتلهم إياهم قصدا للمبالغة كأنهم قالوا ما شهدنا ذلك فضلا عن أن نتولى إهلاكهم. ويعلم من

596 النمل 49 . 51.

ذلك نفي قتلهم صالحا عليه الصّلاة والسّلام أيضا لأن من لم يقتل أتباعه كيف يقتله، وفي الكلّام حذف أي ما شهدنا مهلك أهله ومهلكه597.

ونقول:

يتبيّن من الآية أنّ صالحا كان له في ثمود ولي له أثر واضح، وهو من القوّة بحيث يخشى جانبه والدليل على ذلك أن هؤلاء التسعة رهط المفسدين تحسبوا لغضبه إن هو علم بمقتل صالح لذلك تحسب هؤلاء لذلك بأن تقاسموا أي أقسموا أن يخفوا أمر قتل صالح صلّى الله عليه وسلّم لأن من ورائه ولي سيطلب ثأره من قتلته.

4 – نعته بالمسحور:

وصف الملأ من ثمود رسولهم صالحا صلّى الله عليه وسلّم بكونه من المسحرين، أي من الذين أصابهم سحر فهم يصدرون في أفعالهم من هذا السحر الذي أصابهم، والحقّيقة أن وصف الأقوام للأنبياء والرّسل بهذا الوصف كان له مرتكزان هما:

– البحث عن مسند للتكذيب.

– عدم استيعاب معجزات الأنبياء والرّسل.

فالمعروف عن سلوك الأنبياء والرّسل في أقوامهم هو الصلاح والإصلاح، فلم يكن بإمكان الكفار إثبات صفة الإفساد على الأنبياء والرّسل لذلك وصفوهم بصفة تتعلق بما كانوا يدعون إليه من الغيبيات والإيمان بالغيب، وكان هؤلاء الكفار قد وجدوا أن صفة

597 – تفسير الألوسي، ج 14، ص 495.

الساحر أو المسحور يمكن أن تكون قريبة الالتصاق بمن يدعي أنه رسول السماء فكان وصفهم بذلك خيار للتكذيب.

أمّا المرتكز الثاني فيعود إلى صعوبة فهم المعجزات التي يأتي بها الأنبياء والرّسل من حيث ماهية المعجزة التي تتجاوز قدراتهم العقلية والجسدية، لذلك حالوا أن يبحثوا عن فهم لهذا غير الإيمان فلم يجدوا إلا السحر فكان أن ادعوا على الرّسل فوصفوهم بالمسحرين.

5- تطيرهم به وبأصحابه:

(قَالُواْ اطيرنا) أصله تطيرنا، والتطير التشاؤم عبر عنه بذلك لما أنّهم كانوا إذا خرجوا مسافرين فيمرون بطائر يزجرونه فإن مر سانحا بأن مر من ميامن الشخص إلى مياسره تيمنوا وإن مر بارحا بأن مر من المياسر إلى الميامن تشاءموا لأنّه لا يمكن للمار به كذلك أن يرميه حتى ينحرف فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببا لهما من قدر الله تعالى وقسمته عزّ وجلّ أو من عمل العبد الذي هو سبب الرّحمة والنعمة، أي؛ تساءمنا (بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ) في دينك حيث تتابعت علينا الشدائد وقد كانوا قحطوا ولم نزل في اختلاف وافتراق مذ اخترعتم دينكم، وتشاؤمهم يحتمل أن يكون من المجموع وأن يكون من كلّ من المتعاطفين598.

والتطير في الواقع هروب من مواجهة تبعات كفرهم، وحقّيقة وعيد رسولهم لهم إذا أصروا على الكفر، وهو موروث اجتماعي كان يؤخذ به في تفسير حالات الخيبة والخسارة التي تقع على الأقوام من قبل، وصالح بدعوته لقوم ثمود وعدم استجابتهم له أصابهم نقص الثمرات

598 - تفسير الألوسي، ج 14، ص 493.

والأموال والأنفس، ولكنهم هربوا من البحث عن حقّيقة المسبب إلى وهم المبرر.

6 – الكفر:

وصل الكفار من ثمود إلى درجة الكفر بعد أن بلغوا كلّ مراتب الرفض وصولا إلى الكفر الذي هو تصريح بالرفض وإعلانه فقالوا لصالح ومن معه كما يخبرنا الرّحمن الرّحيم: (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ).

7 – عتوّهم عن أمر الله:

بعد أن كفرت ثمود لم يعد بينهم وبين أن يعتوا أمر الله المبلغ على لسان نبيهم صالح إلا قليل، فقد أبلغهم أن هذه ناقة الله فلا تمسوها بسوء، ولكنهم لم يقوا الله ويطيعوا أمره بل عتوا فاجتمعوا وتعاطوا من خمرهم المذهب لعقولهم فعقروا الناقة التي هي آية طلبوها هم ليتأكدوا من صحة رسالة صالح، فكان هذا العقر عتوا عن امر الله مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ}599.

موقف المستضعفين:

أخذ المستضعفون موقفين من صالح كما يخبرنا العليم الخبير: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ

599 – الأعراف 76-78.

أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ ربّه قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ}600، الآية تدل على أنّهم كانوا على قسمين:

الأوّل: تبع الملأ في الكفر فحقّ عليهم ما كان من عذاب الرجفة.

الثاني: آمن قسم من المستضعفين مع صالح، فأصابهم رحمة من الله عزّ وجلّ مصدقا لقوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}601.

ونجت قلة المستضعفين بذلك من عذاب الخزي لأنهم آمنوا وكانوا يتقون: {وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}602،من ذلك يتبين أن كثير ثمود كان على الفكر وأن القليل هو من آمن معه والحمد لله رب العالمين.

رسالة صالح:

صالح نبي رسول:

النبي بصفة عامة: مخبر عن ربّه نبأ عظيم، يهدف إلى تغيير في المجتمع على صعيد من الأصعدة، قال الله تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}603، لذلك فقد وصف الله ما جاء النبي ليخبر به بالنبأ بالعظيم، والنبي يكون مرسلا برسالة ذات شريعة وأحكام، أو يرسل برسالة رسول آخر على شريعته يدعو إلى ما

---

600 - الأعراف 75.

601 - هود 66.

602 - فصلت 18.

603 النبأ 1 . 3.

دعا إليه، يرشد النّاس إلى الحقّ الذي اختلفوا فيه أو بدلوه، ليعالج نقصا ما طرأ على المجتمع.

وصالح ذكر على أنه رسول، فقد ذكر الله عزّ وجلّ صالح في سياق مباشرة تصريحي بأنه رسول مصداقا لقوله تعالى: {لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}604.

هناك تخصيص مذكور في سياق ذكر رسالة صالح هو أنه أرسل لثمود على وجه التحديد كما في قوله تعالى: (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا).

والرّسول هو الذي حُدّث وأرسل.

- وإنّ كلّ رسول نبي، وليس كلّ نبي رسولا.

وذكروا في الفرق بين الرّسول والنبي أمورا منها:

- أنّ الرّسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه.

والنبي غير الرّسول من لم ينزل عليه كتاب، وإنّما أمر أن يدعو إلى كتاب من قبله.

أنّ من كان صاحبّ المعجزة وصاحبّ الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرّسول، ومن لم يكن مستجمعا لهذه الخصال فهو النبي605.

---

604 - الشعراء 142-143.

605 تفسير الرازي، ج 11، ص 133.

وصلنا فيما سبق بعد مناقشة مستفيضة إلى نتيجة التي جزمنا بها هي أنّه ما من رسالة أو نبوة ناسخة لما قبلها في المضمون، فالمضمون واحد ولكن التغيير يحصل في المتغير ذاته وليس في الثوابت.

فما هو الثابت؟

وما هو المتغير؟

لا شك أن الثابت الذي هبط به آدم ومن بعده تترى الأنبياء والرّسل إلى الرسالة الخاتمة برسالة سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم وسيبقى إلى يوم البعث وما بعد هو:

(لا إله إلا الله) هذا هو الثابت الأوّل الذي تركز على العقيدة في كلّ زمان ومكان لذلك لا شك أن تكون رسالة صالح تحمل هذا المضمون كأوّل ما تقول به في الدعوة إلى الله عزّ وجلّ ومصداقه قوله الذي أحبّرنا به الله تعالى في قوله تعالى: (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ).

أمّا المتغير فهو راجع إلى طبيعة الانحراف العقدي أو السلوكي الذي تقع فيه الأقوام المستهدفة بالرسالة، وثمود وقعوا في الإفساد بعد الإصلاح، بمعنى أنهم كانوا خلفاء من بعد عاد والخلفاء على الصلاح والإصلاح ولاشك مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}606، وقد استحقّوا الخلافة بعد أن ظهر منهم الإصلاح في الأرض إذ كانوا يعمرون السهول والجبال كما اخبرنا المولى عزّ وجلّ.

606 - الأعراف 74.

الانقلاب السلوكي الآخر الذي ظهر في ثمود هو أنّهم بدوا يبادرون بالسيئة قبل الحسنة مصداقا لقوه تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}607

الانحراف الآخر تبين من خلال ما ظهر لديهم من الإسراف وإتباع المفسدين، هذا الانحراف يمثل واحدا من أبرز أهداف رسالة صالح صلّى الله عليه وسلّم لأنه يخرج ثمود من الخلافة التي كانت لهم من بعد عاد، يقول الحقّ سبحانه مبينا حلهم في هذا الانحراف: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}608.

والإسراف من وجوه الفساد وهو من موجبات غضب الله كما أخبرنا المولى عزّ وجلّ عن بغضه للمسرفين فقال: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كلّ مَسْجِدٍ وَكلّوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبّ الْمُسْرِفِينَ}609.

لذلك جاءت رسالة صالح لتصحيح العقيدة بإعادتها إلى الثابت بالباقي (لا إله إلا الله)، ثم إصلاح الانحرافات السلوكية في المعاملات الإنسانية التي تفضي إلى الفساد والإفساد وتنقل النّاس أو تعيدهم إلى الصلاح والإصلاح.

607 - النمل 46.

608 - الشعراء 150-152.

609 - الأعراف 31.

معجزة صالح:

المعجزة هي الحدث الذي لا يستوعبه العقل البشري بسهولة، إذ أنه يكون مخالف للعادة، وقد نسمع بمعجزات قد قام بها البشر وسجلها التاريخ، ولكن إذا تأملنا في حقّيقة هذه المعجزات لوجدنا أنها لم تُخْلَق في الأساس من اللاشيء بل أنها اسْتُمِدت من أشياء قبلها قد خلقها الله تعالى من قبل، فمثلا الأهرامات العجيبة التي تُعَد من المعجزات البشرية فإنها مكونة من حجارة خلقها الخالق ومواد أخرى في الطبيعة لم يكن للإنسان أي دخل في تكوينها أو وجودها، فما كان عليه إلا أنّ أبدع في طريقة البناء الهندسي، على خلاف ما قد خلق الخالق من معجزات من اللاشيء، كما في قوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}610، من البديهي للعقول تصور ما قد يحدث للبشر إذا ابتلع أحدهم الحوت فما بالك بالمكوث في بطنه وقت وهو على قيد الحياة دون أن يموت! فمن الإعجاز أن تأتمر الريح القوية بأمر الإنسان الضعيف لولا إذ أمرها الخالق بذلك، فلو حاول الإنسان أن يجرب كافة الطرق والوسائل العلمية المتطورة لحصول ذلك لعجز أشد العجز عن تحقّيق ذلك لأنّهم غير قادرين على خلق المعجزات.

فالمعجزات هي من صنع الخالق، ولا قدرة لبشر لخلق معجزة واحدة من اللاشيء ودون الرجوع لخلق الله تبارك وتعالى.

---

610 الصافات 139 . 147.

وقد بدأ صالح بدعوة النّاس وهو على الأمل في هدايتهم، هذا الأمل النابع من يقين أن العقيدة والأفكار والإصلاح الذي جاء به لا يمكن إلا أن يجد في عقول ذوي الألباب قبولا، ولكن صالح واجه مواقف غاية في الصد والرفض كما أشرنا من قبل، ومن المواقف التي واجهها كان طلب ملأ ثمود منه أن يأتي بآية معجزة تكفل تصديقهم إياه مصداقا لقوله تعالى: {مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}611، فكانت المعجزة ناقة الله، يقول الحقّ جلّ وعلا: {قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ}612.

هذه المعجزة لم يأتِ بها صالح من قبل بشروطه، بل طلبوها هم، وبعد أن لبى طلبهم عليهم أن يخضعوا لشروط بقاء المعجزة بينهم فكان هناك شرط واحد لم يكن شرطا تعجيزا، ولكنه كان شرطا اختياريا على وجه من الابتلاء الكاشف لحقّيقة الباطن والله يعلمه ولكن لئلا يكون للناس حجّة على الله عزّ وجلّ، الشرط هو وكما يخبرنا المولى العزيز سبحانه وتعالى: {إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كلّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ}613.

لقد أراد الحي القيوم بآية الناقة التي بعثها لثمود، وبآية إرسال صالح لهم أن يحي قلوبا ينبغي أن يقدم أصحابها على إحياء كلّ ما من شأنه أن يترك أثرا طيبا يرضاه الحي وذلك من خلال الآتي:

---

611 – الشعراء 154.

612 – الشعراء 155،156.

613 – القمر 27،28.

1 . إحياء القلوب: وذلك بدعوة المستخلفين للإيمان بالله والعمل بما يرضيه، والابتعاد عن نواهيه.

2. إحياء الدين: ويكون ذلك بالدعوة إلى الحقّ والرد على الباطل ممتثلا لأمر الله تعالى.

3 . شفائه للمرضى: بالعلم يتمكن العبد من معرفة ما يؤدّي إلى الشفاء وما يؤدّي إلى العلة والمرض، وبالعلم يتمكن الإنسان من التوكلّ على العليم الحكيم فيزيده علما وحكمة، ومن يؤتى ذلك يؤتى خيرا كثيرا.

4 . إحياؤه للبذرة ويكون العبد حيا بغرسه للبذرة الصالحة في مجتمعه، وتوفير الجو الملائم، كالتربة الخصبة لها لتحي حياة سليمة طاهرة، وبذلك تنتج الذرية الطيبة التي تعمر الأرض بالصلاح والخير والبركة، وبالتالي تعود على الخليفة الحياة التي تبقى في ذاكرة التاريخ، ليعلم مستخلفيه أنّ من يغرس البذرة الصالحة يكون له نصيب من أجرها والعكس بالعكس.

5 – إحياء النفس بالطّاعات

الصّلاة تبعد عن المفاسد التي تميت في القلب الحياة، والصّلاة من شأنها أن تحيي حبّ الحي المطلق في وجدان وروح العبد، فالقرب منه والوقوف بين يديه حياة، وما أروع هذه الحياة في وقفة بين يدي الله، وهي سكنٌ للروح، قال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصّلاة إِنَّ الصّلاة تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}614، فلتحفظ حياتك بصلاتك التي تحيا بها في

614- العنكبوت 45.

الدنيا آمنا وفي الآخرة آمنا، وهذا هو الفلاح يوم الدين كما في قوله تعالى: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصّلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أوّلئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأوّلئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}615. ففي كلّ صلاة تقوم بها تجدد إحياؤك في الدنيا، لأن صلاتك تطرد شبح المفسدة والضلال هذا الشبح الذي يقبع في قلوب تاركي الصّلاة فيجرهم للضياع قال تعالى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}616، وهي تميت وساوس الشياطين بإحياء ذكر الله فيها والبعد عن المحرمات، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصّلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}617 ففي كلّ صلاة تقوم فيها تحيا المودة بين الخالق والمخلوق بالعبادة والتوحيد، وبين المخلوق والمخلوق الآخر، بالرّحمة والمودة التي تحييهما الصّلاة في النفوس.

أمّا هدف الإحياء فهو السير بالمعروف والخير في هذه الدنيا اللذان أحياهما الله في قلوبنا، والابتعاد والنهي عن المنكر والمعاصي اللذين يثيرهما الشيطان في النفوس، فكيف ستكون لحياتك قيمة إذا عشتها بين المنكرات والرذائل؟ لكنك بالأمر بالمعروف ستحيا إنسانا تدب الحياة الحقّ في كلّ أنحاء جسده وعقله، لأنّ في المعروف حياة وفي المنكر هلاك وموت، لذلك فإنّ طريق الفلاح لا يمكن أن تسلكه

615- البقرة 1 . 5.

616- الماعون 4، 5.

617- المائدة 90.

وأنت داعٍ للمنكر مبتعدٍ عن المعروف، قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}618، والخير معناه كلّ ما هو إصلاح وفلاح، فإصلاح الأرض وإعمارها فيه خير والصدقة فيها خير وإحياء المحبّة فيه خير وإحياء التسامح فيه خير، لأنّ الخير لا يوجده عمل وأحد فقط، فالأمر بالمعروف من أهم أسس قيام المجتمع السليم الحي، أمّا المنكر فهو كلّ عمل قائم على الرذيلة والفساد، لأنّ من شأنه إذا تفشى في مجتمع فإنّه يميته ويفنيه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أحد أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}619.

لكن ثمود لم تطلب المعجزة لتؤمن بل كانت تطلب المعجزة لتُعجز، فلما عجزت هي قررت ما يقرر البائس وهو أن يبعد عن ناظريه صور الهزيمة الماثلة في الناقة المعجزة، الناقة التي كلّما رأوها تشرب من مائهم أحسوا بانتصار عقيدة صالح وأتباعه عليهم وتجرعوا بذلك مرارة الهزيمة.

فقرروا طغيانا أن يتخلوا عن عار الهزيمة بعقر الناقة وطوي صفحة أرادوا بقوّة طيها فعقروا الناقة، يقول تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ ربّهمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}620.

618- آل عمران 104.

619- النور 21.

620 - الشمس 11-15.

وكان للرسالة والرّسول صالح صلّى الله عليه وسلّم دلالة ومعنى لثمود وللبشرية من حيث الآتي:

. دلالة الرسالات: جعلت العلاقة مباشرة بين الخالق والمخلوق وألغت التوسط بين الله وبين عباده. قال تعالى: {ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كلّ شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه تُرجعون}621، وقال تعالى: {أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى}622. وقوله عزّ وجلّ: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}623. وعلى هذه القواعد المتضمنة في نصوص الآيات الكريمة يتم التصويب والتصحيح إلى ما يُمكِّن من عبادة الواحد الأحد.

. دلالة الرّسل: التبشير والتحريض والإنذار بنصوص الرسالات والكتب، مع إظهار القدوة الحسنة التي في أقوال وأفعال الرّسل الذين اصطفاهم الله للأمم والشعوب حتى جاءت الرسالة المحمّدية الخاتمة للناس كافة. قال تعالى: {وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النّار تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ}624

وهذا انتهت رسالة صالح في ثمود ولكن مضمون الرسالة لم ينته، بل بقي في نفوس المؤمنين وعقيدتهم حاضرا شاخصا، وبقيت الناقة منتصرة لم تُعقر، وبقي صالح صالحا وعلى الصلاح، ولم يبقى من ثمود إلا قولنا ألا بعدا لثمود الماضي والحاضر والمستقبل.

621- القصص 88.

622- الإسراء 110.

623- غافر 60.

624- غافر 41، 42.

النبي

صالح من السنّة

يعود نسب النبي صالح عليه الصّلاة والسّلام إلى قبيلة ثمود وهي من القبائل العربية البائدة، ظَهَرت هذه القبيلةُ بعد أن بادَت قبائلُ عادٍ في وادي الأحقّاف. ذلك الوادي الذي تميّز أهله بالزراعية وهم قوم يَنحِتُون بيوتَهم في قلبِ الجبال؛ فكان عليهم أن يؤمنوا بالله ويشكروه على نعمه عليهم، ولكنّهم كفروا؛ فعبدوا الأوثان مِن دُونِ الله.

وفي تلك الظروف أصطفى الله تعالى صالح عليه السّلام نبيا لبني ثمود؛ فأعلَنَ دعوتَهُ وبَشّر برسالته، ومِن هُنا بدأ الصراع. فانقسمت القبيلة بين مؤمنين وكافرين، وكان على رأس قبيلةِ ثَمود تِسعةُ رجالٍ أقوياء، وكان جميعهم من المفسدين.

كانت القبيلة تعبد أربابا من دون الله، وعلى رأس ما يعبدون حجرة ضخمة سموها: (الصخرةُ المقدّسة) والذبائح عليها ومن حولها تذبح عبادة من دون الله. فقال لهم صالح عليه السّلام: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}625

ثمّ قال لهم: {أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ

625. الأعراف 59.

الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}626. قالَ صالح عليه السّلام: لقد أرسَلَني الله إليكم لتعبدوه، وأنا لا أطلبُ على ذلك أجرا من أحدٍ ولا أعبُدُ أحدا إلاّ الله الذي خَلَقني؛ فقالوا: إذا كنتَ حقّا رسولا مِن الله تَستطَيعُ أن تُخرِجَ لنا مِن قلبِ هذه الصخرةِ الصمّاءِ ناقةً عَشْراء.

إنّه الحوار والجدال بين رسول لطيف كريم له رسالة بها يدعو ويبشّر وينذر ويحرّض على توحيد الله ولا شريك له، وبين كفرة سفهاء لا يقدّرون أصحاب المكانة الرّفيعة من عند الله تعالى.

فصالح عليه السّلام هو: "نَبِي الله وَرَسُوله وهُوَ ابْن عبيد بن آسَف بن مَاشج بن عبيد بن جادر بن ثَمُود، بَعثه الله تَعَالَى إِلَى ثَمُود وَهِي قَبيلَة مَشْهُورَة باسم جدهم ثَمُود أخي جديس، وَهُوَ من الْعَرَب العاربة يسكنون الْحجر بَين الْحجاز وتبوك، وَكَانُوا يعْبدُونَ الْأَصْنَام فَدَعَاهُمْ نَبِيّهم صَالح إِلَى عبَادَة الله وَحده فآمنت طَائِفَة وكفرت طَائِفَة وَهو مَا زَالَ ينصح لَهُم فآذوه بالمقال وَالْفِعْل وهمّوا بقتْله، ثمَّ إِنَّهُم طلبُوا مِنْهُ أَن يخرج لَهُم من قلب الْجَبَل نَاقَة كي يصدّقوه فَسَأَلَ الله ذَلِك فَاسْتَجَاب، وَلَكنّهُمْ عقروا النَّاقة فَأنْزل الله عَلَيْهِم الصَّيْحَة فأهلكتهم ونجى صَالحا وَمن مَعَه"627.

كان صالح معروفا بالحكمة والملاطفة والنقاء والخير وحبّ المغفرة، كان قومه يحترمونه قبل أن يوحي الله إليه ويرسله بالدّعوة إليهم، وهنا قالوا له: {قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ

---

626 الشعراء 142 . 152.

627 نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عزّ وجلّ من التوحيد، 1، ص 293.

آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}628 أي كنت مرجوا فينا لعلمك وعقلك وصدقك وحسن تدبيرك، ثم خاب رجاؤنا فيك، ثمّ تأتي لتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ فكانوا يشكّون في دعوته، واعتقدوا أنّه مسحور، وطالبوه بمعجزة تثبت أنّه رسول من الله إليهم. وشاءت إرادة الله أن تستجيب لطلبهم. وكانوا أقوياء أشداء.

أمّا صالح فكان تقيّا ليّن الجانب ودودا يحدّث قومه ويعاملهم بكلّ لطف، وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وينبّههم إلى أنّ الله قد أخرج لهم معجزة (الناقة) دليلا على صدقه وبيّنة على دعوته. وهو يرجو منهم أن يتركوا الناقة تأكل في أرض الله، ويحذّرهم أن يمسّوها بسوء خشية وقوع عذاب الله عليهم629.

قوم صالح عليه السّلام كانوا كفارا، ومع ذلك كانوا يقرّون بوجود الله، وكان كفرهم هو عدم توحيد الله، وعدم الاعتراف والإقرار والإيمان بنبوّة صالح عليه الصّلاة والسّلام، قال الله تعالى: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}630 فهؤلاء التسعة الرّهط الكفّار قد أقسموا بالله على قتل نبيّهم صالح عليه السّلام وأهله، مع أنّهم مقرون بتوحيد الرّبوبية631.

I,] 62>628

شرح الطحاوية لسفر الحوالي، ص، 1643، بترقيم الشاملة آليا 629.

النمل 48، 630.49

دروس في العقيدة – الراجحي، 5، ص 7، بترقيم الشاملة آليا 631.

قال الله تعالى في سورة الأعراف: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}632.
قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: هذا تقريع من صالح عليه السّلام لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إيّاه وتمرّدهم على الله وإبائهم عن قبول الحقّ وإعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعا وتوبيخا633

كانت ثمود كما سبق ذكره يعبدون الأصنام كما كان أسلافهم عاد، فأرسل الله إليهم نبيه ورسوله الصّالح صالحا عليه السّلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وترك ما هم عليه من عبادة غيره، وكان يذكّرهم بأسلافهم عاد وكيف كانت نهايتهم، وكيف أنّ الله تعالى أورثهم الأرض من بعدهم، وأغدق عليهم النعم الكثيرة، ولكنّهم ردّوا دعوته، وأعلنوا معارضته، وتحدّوه بطلب آية من الله عزّ وجلّ تدلّ على صدقه، وقد جاءت قصّة صالح عليه السّلام مع قومه في مواضع كثيرة من كتاب الله عزّ وجلّ634.

بدأت دعوة صالح عليه الصّلاة والسّلام بنبذ الشرك وذلك بالالتجاء إلى الله وحده، فكان صالح يذكّرهم بنعمة الله تعالى عليهم ويحذرهم وينذرهم عاقبة الذين كذّبوا الرّسل.

كانت ثمود من الأقوام المفرطة في اللذات من مطعم ومشرب ومسكن، وبلغوا في ذلك الترف مبلغا أوقعهم في السّرف والعصيان والتمرّد على كل دعوة حقّ لظنّهم أنّ ما هم فيه دائم لا يزول، فعاثوا

الأعراف 632.79
صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان، ص، 397 633.
حماية الرّسول صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، ص، ص 72 634.

في الأرض فسادا وسخروا من صالح عليه السّلام ودعوته ومن آمن معه، وناصبوهم العداء وأعرضوا عن الصراط المستقيم الذي جاء به. قال الله عزّ وجلّ: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ}635.

ومع تلطّفه في دعوته طمعا في هدايتهم، وتذكيره لهم بنعمة الله تعالى عليهم، ومكانته المعروفة لديهم واشتهاره بينهم بالصّدق والأمانة وحسن الخُلق فيهم، مع ذلك كلّه اتهموه بالسّحر، والسّفه، وسخروا منه ومن دعوته، مع أنّ لهم فيه رجاء وطمع قبل أن يظهر عليهم بهذه الدّعوة الجديدة.

وقد حافظ صالح عليه السّلام على صفته التي استمدّها من اللطيف تعالى مع تحدٍّ لا رجعة عن الدّعوة لتوحيد الله الواحد الأحد. ومن هنا أيضا كانت صفة صالح عليه السّلام (الخليفة في الأرض) عدم التخلّي عن تلطّفه في دعوتهم بغرض الهداية.

وبالرّغم من قبول التحدّي، ولكن صالح اللطيف عليه السّلام بقي لطيفا، ومتوكّلا على اللطيف الأعلى. وهذا الاسم يستحقّه "من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دقّ منها وما لطف ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تمّ معنى اللطف ولا يتصور كمال ذلك في العلم

الشعراء 141. 152635

والفعل إلا لله سبحانه وتعالى؛ فأمّا إحاطته بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك، بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي من غير فرق، وأمّا رفقه في الأفعال ولطفه فيها فلا يدخل أيضا تحت الحصر إذ لا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله وعرف دقائق الرّفق فيها وبقدر اتساع المعرفة فيها تتسع المعرفة لمعنى اسم اللطيف"636.

واللطيف من أسماء الله الحسنى الدالة على اللين والمقاربة من المخلوق بالعفو والتسامح والتواد، ولذا فاللطيف هو من يملك القوّة المطلقة ويملك العفو والرّحمة ويفعل ذلك متى ما يريد وهو العليم الخبير. وهو مالك العذاب والحساب والعقاب لمن يشاء وفقا لما تقدّمه الأيدي وهو المسامح بالعفو والمغفرة والرّحمة والعطاء، قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}637.

وهنا اللطيف هو الذي بيده كلّ شيء ويعفوا عن كثير ويتجاوز عن الأخطاء استجابة لمن دعاه طاعة وإخلاصا، ولأنّه يعلم السراء والضراء، ولا تُخفى عليه خافية، فهو لا يستجيب إلا عند الوجوب، وفي ذلك لطفا بالعباد الذين لو أدركوا العاقبة لكانت الطاعة مع

636 المقصد الأسنى، ج 1، ص 101.

637 التوبة 103 . 106.

الصبر من أجل المستقبل الأفضل الذي لا يعلمه إلا هو، ولذلك قال تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}638. الأنفس متعددة الطباع، تضعف وتقوى حسب درجة الإيمان ومستوى الخلافة، فعندما تضعف تهوى في غير محل وعندما تقوى تصبر حتى تنال أجرا، ولذا فاللطف بالعباد في الأقوال والأفعال التي يقدمون عليها وهم لا يدركون العاقبة، فيتيح لهم الله لطفا يحول بينهم وبين العاقبة غير المحمودة.

وعليه فاللطيف بعباده كما قال ابن عباس: "حفي بهم. وقال عكرمة: بارّ بهم. وقال السدى: رفيق بهم. وقال مقاتل: لطف بالبَرّ والفاجر. وقال القُرَظيّ: لطيف بهم في العرض والمحاسبة"639.

فاللطيف اسم إنّما يستحقّه من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دقّ منها وما لطف، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تمّ معنى اللطف ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله سبحانه وتعالى.

واللَّطِيفُ: هو الَّذي اجْتَمَعَ له الرِّفْقُ في الفعْلِ، والعلْمُ بدَقائق المِصالحِ، وإيصالها إلى من قَدَّرَها لَهُ من خَلْقِه. واللُّطْفُ المطلق لا يجمع لأنّه واحد، أمّا الأَلاطِفُ: الأَحِبَّةُ، جمعُ الأَلْطَفِ أَفْعَل من اللُّطْفِ بمعنى الرِّفْقِ. وهذه من صفات المستخلفين في الأرض، الذين

638 البقرة، 216.

639 القرطبي، مصدر سابق، الجزء السادس عشر، ص 19.

ميزهم الله بالقيم والفضائل التي بها تُدرك الأمور ويتم التوفيق فيها بلطفٍ"640. ومن هنا استمد النبي صالح صفة لطفه.

أمور تستوجب اللطف:

الأمر الأول:

قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاس وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا}641، وقال تعالى: {وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا ممّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا}642. أي: لا شيء يعوقهم لو سلكوا الطريقة الحميدة، وعَدَلُوا عن الرّياء إلى الإخلاص والإيمان بالله، ورجاء موعوده في الدار الآخرة لمن أحسن عملا وأنفق ممّا رزقه الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها. نلاحظ أنّ في الآية السابقة استغراب استفساري يستوجب استجواب من الذين يتعلق الأمر بهم، ولكن لأنّهم لا يدركوا أمرهم والعاقبة المترتبة عليه كما هو حال قوم صالح عليه السّلام، فكانت المعرفة للذين أمنوا وعملوا الصالحات حتى جاء وصفهم بالخلفاء في الأرض دون غيرهم، ولهذا كان القول الاستغرابي موجه للمؤمنين العارفين والمستخلفين فيها، وذلك بأسباب إدراكهم إياه. أمّا غيرهم من غير المستخلفين فيها فهم أولئك المستغرب من أجلهم. وهكذا أيضا كان حال من كفر من قوم صالح عليه الصّلاة والسّلام.

الأمر الثاني:

---

640 تاج العروس، ج 1، ص 6120.

641 النساء 38.

642 النساء، 39.

وقوله: (وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا) أي: وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة، وعليم بمن يستحقّ التوفيق منهم فيوفقه ويلهمه رشده ويقيضه لعمل صالح يرضى به عنه، وبمن يستحقّ الخذلان والطرد عن جنابه الأعظم الإلهي، الذي مَنْ طُرِدَ عن بابه فقد خاب وخَسِرَ في الدنيا والآخرة.

ولهذا فالإنسان بين ظروف الطرب والغضب يتأرجح، وبين ساعات الشدّة والفرج يتأرجح، ومع وسوسة الخناس الوسواس يخنس ويوسوس فيمتد وينكمش، والخليفة في مقابل ذلك بإيمانه يزداد قوّة كما أزداد صالح قوّة إيمانية بما يدعو إليه، وبين هذا وذاك قد أوهم إبليس خلقا كثيرا أنّه لا إله ولا صانع وأن هذه الأشياء اللطيفة كانت بلا مكوّن، وهؤلاء ومن على أمثالهم لم يدركوا الصانع بالحس ولم يستعملوا في معرفته العقل فجحدوه، دون أن يعقلوا ويتساءلوا:

ـ هل يشك ذو عقل في وجود خالق لطيف لهذه الأشياء اللطيفة؟

ـ ألا يكون وراء كلّ مخلوق خالق؟

ـ ألا يكون الخالق أفضل من المخلوق؟

ـ ألا يكون المخلوق مسبوقا بخالق لا سابق عليه؟

ـ ألا يكون من يأتي بالشمس من المشرق ويتحكّم في أمرها مع أمر النجوم والكواكب دون أن يحدث تماس أو صدام، ودون أن يأتي أحد غيره قادر على أن يأتي بالشمس من المغرب ألا يكون هو الأوّل والآخر الذي لم يكن من قبله أوّل ولا من ورائه آخر؟

ولأنّه كذلك: ألا ينبغي علينا الشهادة به واحدا أحدا لا شريك له؟ أم نظل هكذا مثل ما كان قوم صالح عليه السّلام؟

من يدرك ما تدل عليه هذه التساؤلات يكتشف فيها لطف من لطيف خبير، فهذا المهاد الموضوع وهذا السقف المرفوع وهذه الأبنية العجيبة والقوانين الجارية على وجه الحكمة أما تدل على صانع بديع!

وإذا كانت البعرة كما تقول العرب: تدل على البعير؟ ألا يكون البعير يدل على خالق البعير؟

وعليه:

لماذا لا ننظر إلى الإبل حتى نتمكن من معرفة الإجابة على الكيفية التي بها خلقها؟

ولماذا لا ننظر إلى السماء حتى نتمكّن من معرفة الكيفية التي بها رُفعت؟

ولماذا لا ننظر إلى الجبال حتى نتمكن من معرفة الكيفية التي بها نُصبت؟

ولماذا لا ننظر إلى الأرض حتى نتمكّن من معرفة الكيفية التي بها بُسطت؟

ولماذا لا يُذكِّر بعضنا البعض بالمعجزات حتى يتمّ التمكّن من الاستخلاف في الأرض بقوّة الإرادة لا بقوّة السيطرة؟

ولذا، فإذا فكّر الإنسان وتذكّر عرف أنّ وراء كلّ مخلوق خالق، ووراء كلّ كيفية لطيف خبير.

ولو تأمل الإنسان نفسه لكفت دليلا ولشفت غليلا فإنّ في هذا الجسد من الحكم ما لا يسع ذكره في كتاب، ومن تأمل تحديد الأسنان لتقطيع وتقريض الأضراس لتطحن واللسان يقلب الممضوغ

وتسليط الكبد على الطعام ينضجه ثم ينفذ إلى كل جارحة قدر ما تحتاج إليه من الغذاء. لو نظر لعقله وهو يفكّر، وهو يتحايل وهو يتدبّر وهو يشطح وهو يتأمّر، وهو يتأمّل وهو يُحب ويستنبط ألا يحس بأنّ من ورائه قوّة تدفعه لأن يعرف ويؤمن؟

وهذه الأصابع التي هيأت فيها العقد لتطوي وتنفتح فيمكن العمل بها ولم تجوف لكثرة عملها إذ لو جوفت لصدمها الشيء القوي فكسرها وجعل بعضها أطول من بعض لتستوي إذا ضمت.

وأخفى النفس في البدن التي فيها قوامه وهي التي إذا ذهبت فسد العقل الذي يرشد إلى المصالح.

ولذا فالنفس لا أحدا يراها بالرّغم من وجودها والاتفاق عليها بين النّاس في مختلف أديانهم وأعراقهم وأعرافهم ومعتقداتهم وعلومهم، ولذا فالنفس هي النفس وإن تنوّعت بين ضالة ومهتدية، وبين أمّارة بالسوء ومطمئنة، وبالرّغم من أنّ كل موجود وبالعينين يُرى يُصوَّر، إلا أنّ الموجود الذي لا تراها العينين لا يصور، وإلا هل هناك من يصور لنا النفس أو الابتسامة أو الغضب أو السعادة، كل هذه موجودة ويُحس بها وترتسم على الوجوه حتى تلاحظها العقول المدركة للحقّيقة. ومن يحاول قول غير ذلك ندعوه لأن يرسم لنا ابتسامة أو يرسم لنا نفس أو يرسم لنا سعادة، وعليه أن يفكّر قبل أن يحاول الرسم في الفارق الكبير بين الابتسامة وبين المبتسم، وبين النفس والروح والبدن، وبين السعادة ومن تجول السعادة في نفسه حتى ترتسم عليه.

ومع أنَّ النفس ذائقة للموت، فهي التي تموت دون أن نراها، وإلا هل هناك من يرى النفس بأمّ عينيه في حالتيها (الحياة والممّات)؟

بالتأكيد النفس بالرّغم من وجودها فهي لا تخضع للمشاهدة، وفي هذا الأمر ألا يكون عدم رؤية الموجود معجزة أمام من لم يفقدوا أبصارهم؟ وبما أنّها موجودة وهي لا تُرى مُعطية صادقة، إذن ألا يكون من ورائها خالق لا يمكن رؤيته بالقوّة التي جعلت عدم التمكن من رؤية النفس بالرّغم من وجودها؟

كل شيء من هذه الأشياء ينادي أفي لطف الله شك؟ وإنّما يتخبّط الجاحد لأنّه طلبه من حيث الحسّ، ومن النّاس من جحده لأنّه لما أثبت وجوده من حيث الجملة لم يدركه من حيث التفصيل643.

فأخبر أنّه يلطف لِما يريده فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها النّاس واسمه اللطيف يتضمن علمه بالأشياء الدقيقة وإيصاله الرّحمة بالطرق الخفية ومنه التلطّف كما قال أهل الكهف وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا، وهكذا كان ظاهرا ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه والقائه في السجن وبيعه رقيقا ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه وكذبها عليه وسجنه محنا ومصائب وباطنها نعما وفتحا جعلها الله سببا لسعادته في الدنيا والآخرة ومن هذا الباب ما يبتلي به عباده من المصائب ويأمرهم به من المكاره وينهاهم عنه من الشهوات هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل، وقد حفت الجنّة بالمكاره وحفت النّار بالشهوات وقد قال صلّى الله عليه وسلّم: "لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خير له إن أصابته سراء شكر فكان

643 تلبيس إبليس، ج 1، ص 55.

خير له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك إلا للمؤمن فالقضاء كله خير لمن أعطى الشكر والصبر جالبا ما جلب"644.

وكذلك ما فعله بآدم وإبراهيم وصالح وموسى وعيسى ومحمّد صلّى الله عليهم وسلّم من الأمور التي هي في الظاهر محن وابتلاء وهي في الباطن طرق خفية أدخلهم بها إلى غاية كمالهم وسعادتهم فتأمل قصة صالح وكيف أنجاه ممّا نزل بقومه، وتأمّل قصّة موسى وما لطف له من إخراجه في وقت ذبح فرعون للأطفال ووحيه إلى أمّه أن تلقيه في اليم وسوقه بلطفه إلى دار عدوه الذي قدر هلاكه على يديه وهو يذبح الأطفال في طلب فرماه في بيته وحجره على فراشه ثم قدر له سببا أخرجه من مصر وأوصله به إلى موضع لا حكم لفرعون عليه ثم قدّر له سببا أوصله به إلى النكاح والغنى بعد العزوبة والعيلة، ثم ساقه إلى بلد عدوه فأقام عليه به حجّته ثمّ أخرجه وقومه في صورة الهاربين الفارين منه وكان ذلك عين نصرتهم على أعدائهم وإهلاكهم وهم ينظرون وهذا كله ممّا يبين أنّه سبحانه يفعل ما يفعله لما يريده من العواقب الحميدة والحكم العظيمة التي لا تدركها عقول الخلق مع ما في ضمنها من الرحمة التامة والنعمة السابغة645.

علاقة اللطيف بأسمائه تعالى:

هي علاقة توحد لا تزدوج ولا تجمع في اسمه المطلق؛ لأنّ عدله كما ينبغي وعلى ما ينبغي ولو لم يفعل ما فعله لحصل منه أمر آخر هو أعظم ضررا ممّا حصل كما أنّ المريض لو لم تُجرى له العملية عند الضرورة لتضرر ضررا يزيد على ألم الجراحة وتالياتها (ولله المثل

644 شفاء العليل، ج 1، ص 34.

645 المصدر السابق، ص 35.

الأعلى)، وبهذا يكون الله تعالى عدلا والإيمان به يقطع الإنكار والاعتراض ظاهرا وباطنا وتمامه أن لا يسب الدهّر ولا ينسب الأشياء إلى الفلك ولا يعترض عليه كما جرت به العادة، بل يعلم أنّ كل ذلك أسباب مسخرة وأنّها رتّبت ووجهت إلى المسببات أحسن ترتيب وتوجيه بأقصى وجوه العدل واللطف. وعلى الجملة فهو من حيث دبّر الأمور حكم، ومن حيث أوجدها جوَّاد، ومن حيث رتّبها مصوَّر، ومن حيث وضع كل شيء موضعه عدل، ومن حيث لم يترك فيها دقائق وجوه الرفق لطيف، ولن يعرف حقّيقة هذه الأسماء من لم يعرف حقّيقة هذه الأفعال. ولهذا كان الأنبياء هم الخلفاء الذين استمدوا صفاتهم من صفات الله الواحد الذي لا يتعدّد، ومن ثمّ لو أدرك قوم صالح ما أمرهم به لحصل لهم ما لم يكن قد حصل. ومع ذلك فللطف وجوه منها:

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}646. يخبر تعالى أنّه لا يظلم عبدا من عباده يوم القيامة مثقال حبّة خردل ولا مثقال ذرة، بل يوفيها به ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}647.

646 النساء، 40.

647 الأنبياء، 47.

وقال تعالى مخبرًا عن لقمان أنّه قال: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}648.

وقال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النّاس أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}649.

يفهم إجمالا أنّه لا إله إلا الله، واضع الموازين بالقسط ليوم القيامة، دون أن تُظلم نفس شيئا، وهو الذي أحصى كل شيء وعدّه عدّا، وهو الذي نأتيه يوم القيامة فردا، وهو الذي يعلم الأسباب التي بها تتزلزل الأرض، وهو الذي يعلم علم السّاعة، وهو الذي يعلم الكيفية التي بها خُلقت الإبل، والكيفية التي بها رُفعت السّماء عن الأرض بغير عمدٍ نراها، والكيفية التي بها نُصبت الجبال، والكيفية التي بها سُطحت الأرض، وهو الأوّل والآخر، وهو المحيي والمميت، وهو الذي يرى الأبصار وهي التي لا تراه، وهو السميع العليم، وهو على كل شيء قدير سبحانه لا إله إلا هو به آمنت، وعليه توكلت، وأوليت أمري وأسرتي وأموالي وأحوالي وما أملك إليه ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

إنّه الواحد من غير عدد، الذي يعلم مالا نعلم، وهو الباقي بعد كل أحد، إلى غير نهاية ولا أمد. له الكبرياءُ والعظمة، والبهاء والعزّة، والسلطان والقدرة، تعالى عن أن يكون له شريك في سلطانه أو في واحديته نديد، أو في تدبيره مُعين أو ظهير، أو أن يكون له ولد، أو صاحبة أو كُفؤا أحد.

---

648 لقمان، 16.

649 الزلزلة، 6 . 8.

عن أبي سَعِيدٍ الخُدْري، عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حديث الشفاعة الطويلِ، وفيه: يقول الله عزّ وجلّ: "ارْجِعُوا، فَمَن وجدتم في قلبه مثقالَ حبة خردل من إيمان، فأخرجوه من النّار". وفي لفظ: "أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النّار، فيخرجون خلقًا كثيرًا"650.

أنّه أنزل لطفه في قلوب خلقه، وبخاصّة من استخلافهم في الأرض، مصداقا لقوله تعالى: {هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره}651. خلائف جمع خليفة وهم الممكنين بالقوّة التي يُراد بها الكيفية التي ينبغي أن يكون عليها المستخلف، وهي كينونة المطلوب والمرغوب والمفضّل، وهذه خاصية المؤمنين، أمّا من يكفر بما يُراد له أن يكون عليه من درجات التفضيل فعليه كفره، أي فعليه بكفره الذي يخرجه من درجات الاستخلاف والتفضيل الذي يرتضيه الله لطفا بعباده. ومن هنا أقول: يا إلهي خلقت الإنسان في أحسن تقويم مفضّل ليعبدك وحدك، ولكنّ أغلب من خلقت من بني آدم كفروا وأفسدوا في الأرض المراد لهم الاستخلاف فيها مصلحون غير مفسدين. وأقول: اللهم صلي وسلّم على جميع أنبيائك فإنّهم قد دعوا لمحبّتك وعدم الشرك بك، وأتموا رسالاتهم، ولكنّ أكثر الأقوام كفرت، مع أنّ ما دعوا به هو الحقّ وما يخالفه باطل. وأقول: أشهد كما شهد أنبيائك أنّك الحقّ، وقولك الحقّ. وخَلقك حقّ، وأمرك حقّ، ونهيك حقّ، وأنت الحقّ. وأسألك اللطف والعفو والمغفرة، فأنا وأسرتي أستغفرك وأتوب إليك ونحن واثقون من أنّك المنجى من كلّ همّ وغمّ ومن كلّ كرب، ومن كلّ ألم ومؤلم، ومن كلّ

650 تفسير ابن كثير، ج 2، ص 304.

651 فاطر، 39.

حاجة، اللهمّ خلصنا من وساوس شياطين الإنس والجن ومن عدوانهم وما يفعلون، ولأنّنا قد أمّنا فباسمك (الله) أسألك الإجابة وأنت على كلّ شيء قدير ولا حول ولا قوّة إلّا بك، عليك توكلنا وأولينا أمرنا وأرزاقنا وما نملك إليك والحمد لله ربّ العالمين، {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}652

ومن وجوه لطفه أنّه يؤلف بين قلوب عباده بعد فرقة وشقاق فتصبح مجتمعة على إناء واحد؛ ولأنّه هو الأدرى بمصالح خلقه فينزل اللطف والرحمة كيف يشاء ومتى يشاء وعلى من يشاء، ويظهر ذلك جليا في سورة يوسف عليه الصّلاة والسّلام، في قوله تعالى: {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}653. وقوله: (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) بمعنى من بعد أن أفسد ما بيني وبينهم، وجَهِل بعضنا على بعض. وقوله: (إن ربي لطيف لما يشاء)، يقول: إن ربي ذو لطف وصنع لما يشاء، ومن لطفه وصنعه أنّه أخرجني من السجن، وجاء بأهلي من البَدْوِ بعد الذي كان بيني وبينهم من بُعد الدار، وبعد ما كنت فيه من العُبُودية والرّق والإسار. ولذلك كان اللطف بيوسف حتى أخرجه من السجن، وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلبه نزغ الشيطان، وتحريشه

652 الأعراف 196. 198.

653 يوسف، 100.

على إخوته. وقوله: (إنّه هو العليم)، بمصالح خلقه وغير ذلك، لا يخفى عليه مبادي الأمور وعواقبها (الحكيم)، في تدبيره654.

ومن الطافه جلّ شأنه لا تتناهى ظواهرها وبواطنها في الأولى والأخرى {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا}655.

ومن ثمّ؛ فالأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام يدركوا حقّيقة أنّ نعم الله تعالى لا تحصى وأنّ رحمته واسعة وأنّ مهامهم ليست هيّنة، ولهذا تحمّل النبي صالح أعباء هذه المسؤولية مع لطف في قومه ثمود؛ فكان خير رسول يدعوهم إلى الحقّ وهو لا يحيد عنه، بل قبل الابتلاء في سبيل إحقّاقه، وهكذا هو حال الأنبياء جميعا.

ومن خلال النظر في دلائل لطفه في مشاهدة الكون المعروضة للناس كنزول الماء من السماء، ورؤية الأرض بعده مخضرة فهي يقينا ظاهرة واقعة. قد تذهب الألفة بجدتها في النفوس. فأمّا حين يتفتّح الحس الشاعر، فإنّ هذا المشهد في الأرض يستجيش في القلب شتى المشاعر والأحاسيس. وإنّ القلب ليحس أحيانا أنّ هذا النبت الصغير الطالع من سواد الطين، بخضرته وغضارته تبسم في هذا الوجود الشائق البهيج! والذي يحس على هذا النحو يستطيع أن يدرك ما في التعقيب بقوله: (إن الله لطيف خبير). من لطف وعمق ومشاكلة للون هذا الإحساس، ولحقّيقة ذلك المشهد وطبيعته. فمن اللطف الإلهي ذلك الدبيب اللطيف. دبيب النبتة الصغيرة من جوف الثرى، وهي نحيلة ضئيلة، ويد القدرة تمدها في الهواء، وتمدها بالقوّة والشوق إلى الارتفاع على جاذبية الأرض وثقلة الطين. وتلك النواة اليابسة

---

654 الطبري، ج 16، ص 277.

655 النحل، 81.

بلطفه تبتل فترتخي وتلين لِتُسهِّل للنبتة مخرجها بعد كمون، سبحانه بكل شيء لطيف عليم خبير656. وَمِنْ عَجَائِب اللَّطِيف الْخَبِير أَنَّهَا تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِد؛ وَنحن بطبيعتنا نُفَضِّل بَعْضهَا عَلَى بَعْض فِي الْأُكُل المتنوع فضل من الله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}657.

اللطيف الموصل الشيء باللين والرفق، كما كان النبي صالح موصل له، فهو الذي كفر به من كفر من قومه، ومع ذلك كان على اللطف وكأنّه لا استفزاز إلى أن جاء الموعد الذي لابدّ أن يتنزّل فيه العقاب، ولهذا فاللطيف من العباد هو من استمد لطفه من لطف الله تعالى، الذي من لطفه خلق الجنين في بطن أمّه في ظلمات ثلاث وحفظه فيها وتغذيته بواسطة حبل السرة إلى أن ينفصل فيستقل بالتناول بالفم، ثم إلهامه إياه عند الانفصال التقام الثدي وامتصاصه ولو في ظلام الليل من غير تعليم ومشاهدة، وهكذا فتق البيضة عن الفرخ وقد ألهمه التقاط الحبّ في الحال، ثم تأخير خلق الأسنان عن أوّل الخلقة إلى وقت الحاجة للاستغناء في الاغتذاء باللبن عن الأسنان ثم إنبات السنّ بعد ذلك عند الحاجة إلى طحن الطعام ثم تقسيم الأسنان إلى عريضة للطحن وإلى أنياب للكسر وإلى ثنايا حادة الأطراف للقطع ثم استعمال اللسان الذي الغرض الأظهر منه النطق في رد الطعام إلى المطحن كالمجرفة ولو ذكر لطفه في تيسير لقمة يتناولها العبد من غير كلفة يتجشمها وقد تعاون على إصلاحها خلق

656 في ظلال القرآن، ج 5، ص 212.

657 الرعد 4.

لا يحصى عددهم من مصلح الأرض وزارعها وساقيها وحاصدها ومنقيها وطاحنها وعاجنها وخابزها إلى غير ذلك658.

فالله لطيف بعباده، وحفي بهم، وبار بهم، ورفيق بهم؛ فهو لطيف بالبر والفاجر، حيث لم يقتلهم جوعا بمعاصيهم. ولطفه بهم في الرزق ظاهر من وجهين: أحدهما – أنه جعل الرزق من الطيبات. والثاني – أنه لم يدفعه مرة واحدة فيتبذر. وقال الجنيد: لطيف بأوليائه حتى عرفوه، ولطف بأعدائه لما جحدوه. قال الثقفي:

ومن شق فاه الله قدر رزقه وربي بمن يلجأ إليه لطيف

وبناء على ما سبق فإنّ رزق الله لعباده وهم غير قادرين فعل خير من اللطيف القوي العزيز، ولذلك كمنت العزّة في القوّة الكامنة هي الأخرى في الرزق الذي رزقه اللطيف لعباده، ولهذا فإنّ الله هو الطيف بعبادة ويرزق من يشاء بغير حساب سبحانه ما أعظم شأنه وهو على كل شيء قدير659.

ومن لطفه أنّ ما من ذرة من ذرات العوالم إلا وهي في حيطة تربيته سبحانه بل ما من شيء ممّا أحاط به نطاق الإمكان والوجود من العلويات والسفليات والمجردات والماديات والروحانيات والجسمانيات إلا وهو في حد ذاته بحيث لو فرض انقطاع آثار التربية عنه آنا واحدا لما استقر له القرار ولا اطمأنت به الدار إلا في مطمورة العدم ومهاوي البوار لكن يفيض عليه من الجناب الأقدس تعالى شأنه وتقدس من فنون الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وصفاته وكمالاته ما لا يحيط بذلك فلك التعبير، ولا يعلمه إلا اللطيف الخبير. وآثار تربيته تعالى

658 المقصد الأسنى، ج 1، ص 102.

659 المصدر السابق، ص 102.

واضحة المنار ساطعة الأنوار فسبحانه من ربّ لا يضاهى، ومنان لا يحصى كرمه ولا يتناهى ونحن في تيار بحر جوده سابحون وعن إقامة مراسم شكره قاصرون.

وما أحسن القول أنّه تعالى يملك عبادا غيرك وأنت ليس لك ربّ سواه ثم إنك تتساهل في خدمته والقيام في وظائف طاعته كأن لك ربا بل أربابا غيره وهو سبحانه يعتني بتربيتك حتى كأنه لا عبد له سواك فسبحانه ما أتم تربيته وأعظم لطفه ورحمته، ولأنه لطيف فهو الذي يُنسي العباد ذنوبهم لئلا يخجلوا. ولأنه اللطيف جعل في الأرض خلائف وميزهم بالإيمان وأورثهم الأرض وجعل فيهم الخطيئة قابلة للمغفرة بكلمة استغفار ونية صادقة.

قال بعض الحكماء قد أدركت العقول ممّا أودع الله في الإنسان اثنتي عشرة ألف حكمة، وأمّا الذي لم تدركه العقول فلا يعلمه إلا الله هذا في خاصة نفسه. وأمّا في غذائه وشرابه ولباسه وسائر لوازمه فأكثر من ذلك قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}660 وقال: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ}661. فسبحان من أعجزت العقول بدائع ألطافه وقصرت الأفكار عن عظيم أوصافه وهو اللطيف الخبير ما أكثر لطائفه للمبتدئين وأوضحها للمستيقظين وأعظمها في جميع المخلوقين قد سرى لطفه في جميع الأكوان وأبهرت حكمته أفكار الأنس والجان.

قال الشاعر:

فمن لطفه حفظ الجنين وصونه بمستودع قد مر فيه وقد حلا

660 التين 4.

661 عبس 24.

تكنفه باللطف في ظلماته ولا مال يغنيه هناك ولا أهلا

جرى في مجاري عرقه بتلطف بلا طلب جريا على قدرة سهلا

ويخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده فيقول: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}662. أنّه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم – والحالة هذه – لطفا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال: (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) أي: لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك، لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث: عن جابر قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجب لكم"663.

قال تعالى: {كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا}664. انظر إلى سعة لطف الله تعالى في هذه الآية الكريمة وإمداده بمن شاء من عباده فانّه ذكر وهب بن منبه أنّ ذا القرنين كان رجلا من الإسكندرية ابن امرأة عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان خارجا عن قومه ولم يكن بأفضلهم حسبا ولا نسبا ولكنه نشأ في ذات حسن وجمال وحلم

---

662 يونس 11.

663 تفسير ابن كثير، ج 4، 251.

664 الكهف 91.

ومروءة وعفة من لدن كان غلاما إلى أن بلع رجلا ولم يزل منذ نشأ يتخلق بمكارم الأخلاق ويسمو إلى معالى الأمور إلى أن علا صيته وعز في قومه والقى الله تعالى عليه الهيبة ثم انه زاد به الأمر إلى أن حدث نفسه بالأشياء فكان أوّل ما اجمع عليه رأيه الإسلام فاسلم ثم دعا قومه إلى الإسلام فاسلموا ثم كان من أمره ما كان. انظر كيف يسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون لأجل ما يشاء حتى يجيء على وجه الصواب665. هذا ما ورد في تفسير حقّي، ولكن في حقّيقة الأمر ذو القرنين لا يعرف أصله من حيث المكان والأقوام ولكن الآيات الكريمة ركزت على القيم من العدل والإيمان ودفع الظلم والدعوة والجهاد وإعانة المستضعفين وهو نموذج للخليفة ومثالا للحكام.

اللطيف: (صاحب المكارم والمواعظ والحكم والمعجزات) إن التجأت إليه حفظك من كل سوء، وأن قصدته بنية صافية وأنت في حاجة كانت الإجابة محقّقة للطموح وأكثر، وإن أحببته أدناك، وإن نمت دون أن تدري بما يحاط بك أحاطك برعايته، وإن أطعته كافك، وإن أغضبته عافاك، وإن أعرضت عنه دعاك، وإن أقبلت إليه هداك، وإن عصيته راعاك. ومن لطفه بعباده أنه أعطاهم فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة ويسر لهم الوصول إلى سعادة الابدّ بسعي خفيف في مدة قصيرة وهي العمر فإنه لا نسبة لها بالإضافة إلى الابدّ. ومن لطفه إخراج اللبن الصافي من بين الفرث والدم وإخراج الجواهر النفيسة من الأحجار الصلبة وإخراج العسل من النحل وأعجب من ذلك خلقه من النطفة مستودعا لمعرفته وحاملا لأمانته ومشاهدا لملكوت سمواته وهذا أيضا لا يمكن إحصاؤه.

---

665 تفسير حقّي، ج 7، ص 439.

وحظ الخليفة من هذا الوصف الرفق بعباد الله عزّ وجلّ والتلطف بهم من غير إزراء وعنف ومن غير تعصب وخصام وأحسن وجوه اللطف فيه الجذب إلى قبول الحقّ بالشمائل والسيرة المرضية والأعمال الصالحة فإنها أوقع وألطف من الألفاظ المزينة.

والعبد المحظوظ هو من يستمد لطفه من اللطيف المطلق حتى يخلفه في الأرض قول وفعلٍ ويؤمن به واحد أحد لا شريك له، لا إله إلا هو، لم يكن له صاحبة ولا ولد سبحانه هو الأول والآخر. ولذا فاللطف معاملة حسنة مع وافر التقدير والاحترام والاعتبار دون كلل ولا ملل طاعة لإحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل.

وعليه فاللطف في السلوك معاملة حسنة بين النّاس، معاملة الوالدين بإحسان تولِّد الرضاء في نفوسهم على الأبناء وفي هذا الأمر لطف مشترك (لطف الأبناء بوالديهم، يولِّد لطف الله بالأبناء والآباء معا)، ولطف ربُّ العمل بالعاملين يولِّد لطف الله على العاملين وأرباب العمل، ولطف الزوجين على بعضهما بعضا ولطفهما بأبنائهم يولد لطف الله عليهما وعلى الأبناء، ولطف الإنسان بنفسه يولِّد الله فيه نفس مطمئنة.

ولهذا فالحظ الكبير للإنسان أن يعمل كل ما من شأنه أن يستمد به لطف الله حتى يصبح من المستخلفين في الأرض الذين يعملون على إصلاحها ولا يسفكون الدماء فيها بغير حقّ.

إذن حظ الخليفة أن يكون خليفة، حتى يُدرك من لا تدركه الأبصار بعقله وقلبه الذي بهما يميِّز بين ما يجب ويقدم عليه، وبين مالا يجب ويتجنبه أو يبتعد عنه أو يعمل على إصلاحه. قال تعالى: {امنوا بالله ورسوله وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه فالذين امنوا

منكم وأنفقوا لهم أجر كبير}666. جاء فعل الأمر هنا لأجل الاعتراف بالحقّيقة، وهي أن الله واحد أحد لا شريك له وأنّ محمّدا رسول للواحد الأحد، أي آمنوا فإنّ الله واحد وأنّ محمّدا رسوله، (وأنفقوا) تصدقوا ممّا رزقكم الله مصدر كل رزق، حيث لا رزق إلا منه، ولأنه منه تصدقوا حتى يلطف الله بكم، وبأحوالكم فيمدكم بواسع رحمته بالمزيد في الرزق وهذا لطفا منه. (ممّا جعلكم مستخلفين فيه) المستخلفين فيه هو من عند الله وهو مصدر الرزق الذي يمدكم به لطفا من السماء والأرض، وهذا دليل على أن أصل الملك لله تعالى، وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذي يرضي الله. والمستخلفون هم الذين ورثوا من سبقهم من الأقوام التي زالت وانتهت، وهم الذين سيتركونها دون أن يبقى لهم شيئا منها إلا الأعمال الصالحة التي تجعلهم خلفاء في الجنّة دائمين. ولذلك يترتب الأجر الكبير على الإنفاق في وجه الله دون تبذير أو إسراف وفي الأوجه التي يرتضيها الله وفقا لِما نصَّ عليه في كتابه العزيز.

ولأنّ الله هو اللطيف المطلق فلا تدركه الأبصار وهو خلقها، قال تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرِ}667. فمعنى البصر: هو الجهر اللطيف الذي ركبه الله في حاسة النظر، به تدرك المبصرات، فالمعنى أنّ الأبصار لا تتعلّق به ولا تدركه؛ لأنّه الملك المتعال، أي متعالٍ أن يكون مبصرا في ذاته، فالأبصار إنّما تتعلق بما كان في جهة أصلا أو تابعا، كالأجسام والهيئات، إنّه الواحد الأحد الذي تدركه العقول وتطمأن إليه القلوب، وهو الذي يُدرك الأبصار والعقول وما خلق ممّا نعلم وما لا نعلم

666 الحديد 7.

667 الأنعام، 103.

سبحانه هو العليم الحكيم (وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار) وهو لِلُطفِ إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك. (وَهُوَ اللطيف) يلطف عن أن تدركه الأبصار. (الخبير) بكل أمر وفعل، ولطيف فهو يدرك الأبصار، لا تلطف عن إدراكه وهذا من باب اللطف668. ولأنّ اللطف يناسب ما لا يدرك بالبصر، فإنّ الخبرة تناسب من يدرك شيئا ومن يدركها يكون خبيرا بها وخبيرا بأمرها669.

وهذا منطق أعداء الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام جميعا من قبل صالح عليه السلام ومن بعده {قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}670.

قال تعالى: {قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}671، واستمر عليه السّلام في دعوته يلح عليهم ويخوفهم عذاب الله ولم يتبعه منهم إلا القليل المستضعفون فلمّا رأوا ذلك منه طلبوا منه آية، فكانت النّاقة هي الآية؛ فأرسل الله تعالى الناقة آية وابتلاء لهم وحذرهم وأخذ عليهم المواثيق، أن لا يمسوها بسوء، وأنذرهم أنّ عذابهم مرتبط بذلك وحذّرهم أشدّ التحذير، ولكنّهم خالفوه وعصوا أمره وعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربّهم.

---

668 الكاشف للزمخشري، ج 2، ص 153.

669 الإيضاح في علوم البلاغة، ج 1. ص 112.

670 هود 62.

671 الشعراء 153، 154.

التسع رهطٍ:

فِي قِصَّةِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ التِّسْعَةِ رَهْطٍ هم الَّذِينَ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ، أَيْ: تَحَالَفُوا بِاللَّهِ قَتْلِ نَبِيِّهِمْ وَأَهْلِهِ، وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ إِيمَانَ الْمُشْرِكِينَ672؛ فالتِّسْعَةِ مِنْ قَوْمِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ أَيْ: لَيَقْتُلُنَّه بَيَاتًا هُوَ وَأَهْلَهُ، {ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ}، فكانَ عاقبةُ هَذَا الْمَكْرِ مِنْهُمْ أَنْ مَكَرَ اللَّهُ بِهِمْ فدمَّرهم وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ673؛ أي حين تآمر عليه تسعة من المفسدين ليقتلوه فأهلكهم الله وقومهم أجمعين، كما قال سبحانه وتعالى: "وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ، قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ، وَمَكَرُوا مَكْرا وَمَكَرْنَا مَكْرا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ"674.

وعليه كان النبي صالح عليه السّلام مصرّا على أن يترك قومه ما يعبدون من دون الله، فطلب منهم أن يتخلّوا عن عبادة الزائل ويعبدوا الباقي الذي لا يزول؛ ذلك لأنّ قبيلته كانت تعبد أربابا من دون الله، وعلى رأس ما يعبدون حجرة ضخمة سموها: (الصخرةُ المقدّسة)؛ فقال لهم صالح عليه السّلام: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}675 أي اعبدوا الباقي الذي لا يزول ولا يفني ولا يبيد ولا ينتهي، هو الأول والآخر وهو على كل شيء قدير.

---

672 شرح الطحاوية ت الأرناؤوط، 1، ص 32.

شرح العقيدة الواسطية للهراس، ص، ص 125 673673.

674 شفاء الضرر بفهم التوكل والقضاء والقدر، ص 58.

الأعراف 59. 675

الباقي "هو الله تعالى المستأثر بالبقاء وكتب على خلقه الفناء وهو خالق الفناء والبقاء"676.

الباقي "الدَّائِمُ الْمَوْجُودُ لَمْ يَزَلْ، الْمَوْصُوفُ بِالْبَقَاءِ، الَّذِي لا يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ الْفَنَاءُ"677.

الباقي هو الموجود لا عن حدوث في حال وصفه بذلك678، أي إذ ذُكر الباقي فصفة الوجود كامنة في الذات لا في الحدث، فالله سبحانه موجود لا محدث، وهو موجود قبل الوجود، وموجود بمعنى العِلْمِ المجَرَّدِ إذ كان اللهُ تعالَى مُنَزَّها عن الوَصْفِ بالجَوَارِحِ والآلاتِ679، فهو الذي أوجد الوجود، فقد أوجد السماء والأرض، {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}680، وقد أريد بالرتق حالة العدم إذ ليس فيه ذوات متميزة فكأن السماوات والأرض أمر واحد متصل متشابه وأريد بالفتق وأصله الفصل في قوله تعالى: (ففتقناهما) الإيجاد لحصول التمييز وانفصال بعض الحقّائق عن بعضها، ومعنى الآية ألم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا على حالتين من التهيؤ، فأظهرناهما بالأمر (كن).

ثم أوجد ما في الأرض وما في السماء، {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ

676 تفسير أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 64.

677 الأسماء والصفات للبيهقي، ج 1، ص 44.

678 معجم الفروق اللغوية 1، 90.

679 تاج العروس 1، 2319.

680 الأنبياء 30.

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}681، ثم أوجد عليهما من يقوم بأمره، فأوجد الخليفة في الأرض ليعمرها ويأمر بالحقّ ويمنع سفك الدماء والفساد، {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}682، وأوجد الملائكة في السماء ليسبحوا باسمه، {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}683.

وليقوموا بأمره فيها، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاس وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}684.

والباقي هو الدائم الذي دام وجوده، فالبقاء له صفة قائمة بذاته685، وهو الباقي بجلاله وعرشه وملكه وكماله على الدوام دون تأثر أو تغيير؛ لأن الحي من البشر قد يوصف بالسمع لكن سمعه يتأثر بمرور الوقت فيضعف سمعه، وربما يحتاج إلى ما يعينه كسماعة الأذن لتعينه على تلافي النقص الحاصل جراء التغيير الطارئ عليه، وقد يكون بصيرا لكنه يتأثر بعد مدة فيضع عدسة يستعين بها على الإبصار، والإنسان قد يكون متصفا بالصفات لكنه يتأثر بالسنة والنوم والغفلة، ولو كان قائما دائما لكملت حياته وبقيت صفاته، أما الباقي فهو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم لأنه كامل الصفات، {اللَّهُ لَا

---

[681] البقرة 29.

[682] البقرة 30.

[683] الزمر 75.

[684] التحريم 6.

[685] الاعتقاد للبيقهي، ج 1، ص 66.

إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}686، وهو الذي لا يغفل، {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}687، وعلى الخليفة أن يكون بقدر ما يستطيع على الصفات الحسنى، فلا يغفل عن أداء واجبه تجاه الله سبحانه وتعالى ولا تجاه العباد، فالغفلة صفة يجب على الخليفة تجنبها بالمطلق لأن الله سبحانه وتعالى ذكرها في موضع التحذير والتنبيه على تجنبها، فوصف الغافلين بالكفر فقال جل شأنه: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النّار بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}688، ووصفهم في موضع آخر بالجهل، {وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالحقّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاس بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ}689، وهذه صفات الأولى بالخليفة أن يتجنبها بالمطلق وأن يتحلى بنقيضاتها، فيكون له أذن قادرة على السماع المميز بين الخير والشر، {لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}690، وتكون له بصيرة وليس مجرد عين ينظر بها، فإذا قال قائل؛ كيف يمتلك

---

686 البقرة 255.

687 إبراهيم 42.

688 يونس 7، 8.

689 الروم 6، 8.

690 الحاقة 12.

الخليفة البصيرة وهي من أسرار مواهب الله، أما من وهبه الله البصيرة فقد ملكها، وأما من لم ينل ذلك فعليه بكلام الله يعيه ويعمل به لأنه هو بصيرة الخليفة المؤمن، {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}691، وعلى الخليفة أن يحارب الغفلة بالذكر، وأن يتمثل حال الخليفة الحقّ في الانتباه بعد الغفلة فيتذكر انتباه سليمان عليه الصّلاة والسّلام بعد أن غفل عن ذكر الله، {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ}692.

والباقي دائم في أمره، فأمر الله دوام إرادته، في الثوابت والمتغيرات، أما في الثوابت فمثاله أمر الباقي للجبال أن تقوم بدور إرساء الأرض وهي تقوم بهذا الدور إلى الوقت المعلوم عنده وحده سبحانه، {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}693، وعندما يحين الوقت المعلوم المحدد بأمر الباقي سبحانه تكون بغير هيئتها التي كانت عليه، يقول الباقي جل شأنه عن حركتها: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}694، ثم يصف نسفها فيقول: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}695، أما المتغيرات فمثاله حركة الأفلاك التي ينتج عنها تحديد الزمن والمواقيت وهنا أمر الله باقٍ دوام إرادته، ولا يتغير لا لطاعة

691 الجاثية 20.

692 ص، 30، 33.

693 النحل 15.

694 الكهف 47.

695 طه 105، 107.

العباد ولا لمعصيتهم لأنها حاجات عامة لكل المخلوقات، وشاء الباقي سبحانه أن يبقى أمره فيها إلى أن يشاء، ثم تكون وبأمره في ساعة يعلمها هو سبحانه وتعالى عما يصفون بغير حالها، {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[696]، ونفهم من هذه الآيات أن ما من باقٍ غير الله، وما نراه من بقاء هذه المخلوقات إنما هو بقاء جزئي وأن البقاء المطلق هو لله سبحانه وتعالى.

وأمره جلّ وعلا لا تنطبق عليه حدود الزمن، فلا ماضي ولا حاضر ولا مستقبل، إذ الماضي من أمره هو ماضي وحاضر ومستقبل، وحاضره هو ماضي ومستقبل، ومستقبله هو ماضي وحاضر وكل ذلك على سبيل الإثبات أو النفي، أما على سبيل الإثبات فأمثلته كثيرة منها قوله تعالى:{ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا}[697]، ف (كان) هنا في الآية فعل فاعله الباقي فهو مستمر غير منقطع، بمعنى أنه كان عفوا ولم يزل يعفو وسيعفو، فلا حد لزمن الفعل، ولو كان الفاعل غير الباقي سبحانه وتعالى لكان الماضي منقطع لا محالة، وأمثلة هذا النمط كثير منها قوله تعالى: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[698]، فقد كتبها في الماضي وهي مستمرة في الحاضر وستبقى في المستقبل. وكذلك حاضره، {تِلْكَ الرّسل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ

---

[696] يس 38، 40.

[697] النساء 99.

[698] الأنعام 12.

عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}699، فالفعل المضارع دال على الحاضر لكن فاعله الباقي سبحانه فانتفى عنه حد الزمن ليصبح فعلا دالا على الماضي والحاضر والمستقبل معا وهو ما يتجلى في الكثير من الآيات الكريمة ومنها قوله عز من قائل: {وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}700، وكذلك الأمر في المستقبل من أوامره حيث يسقط عنها حد الزمن وانظر إلى قوله سبحانه: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}701، فهل يمكن أن يكون وجوب هذا القول للمستقبل فقط وهو الله أحد من الماضي إلى الحاضر وسيبقى في المستقبل باقيا أحدا صمدا!، كذلك يقول عزّ وجلّ: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}702، ففعل الأمر في القاعدة يدل على المستقبل لكنه إذا صدر من الباقي فإنه باقٍ كذلك فهو للماضي والحاضر والمستقبل. وكل ما ذُكر كان على وجه الإثبات، ومثله وجه النفي فهو الآخر لا ينطبق عليه حد الزمن لأن الزمن مخصص للمتغير أما الثابت الباقي فلا ينطبق عليه حد الزمن أو مقياسه، يقول الباقي سبحانه: {وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}703، بمعنى أنه ما

---

699 البقرة 253.

700 البقرة 185.

701 الإخلاص 1.

702 الأعراف 199.

703 الأنفال 31.

كان معذبهم وهم يستغفرون ولم يزل يفعل وسيفعل، فزمن الماضي غائب تماما في مساحة الدلالة للآية، ومثله المضارع المنفي، يقول سبحانه وتعالى: {يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}704، فهو باقٍ على عدم الرضا عن هؤلاء المتصفين بهذه الصفة التي جعلتهم من الفاسقين، أو أنهم سيكونون منهم في المستقبل.

وهو باق في فعله، فهو خالق ويخلق وسيخلق إلى أن يشاء سبحانه، فقد خلق الوجود من قبل، {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}705، ويخلق ما يشاء بأمر منه، {قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُون}706، ولعل ما يقال عن الأضرب الجديدة من النباتات وبعض عمليات تهجين الحيوانات وما ينتج عنها من أنواع جديدة وأشكال جديدة هي أكبر دليل على أنه يخلق سبحانه لأن ذلك كله إنما يجري بأمر الله، ولو أراد له أن لا يكون لما تحقّق على سبيل النجاح في تجارب العلماء والدليل فشل بعض أنواع التهجين بين فصائل كثيرة من الحيوانات والنباتات، وهو قادر على أن يخلق الجديد في المستقبل كما يخبرنا سبحانه وتعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ

---

704 التوبة 96.

705 الأعراف 54.

706 آل عمران 47.

الْعَلِيمُ}707. إنه الباقي القادر على أن يخلق مثل ما خلق من السماوات والأرضين، ولأن الإجابة جاءت منصوص عليها في ذات الآية السابقة، بقوله (بلى وهو الخلاق العليم) فإن خلق السمات والأرضين سيكون باقيا دائما بيد الحي الباقي.

من هنا يجب على الخليفة أن يمتلك مجموعة من الثوابت التي تتماشى مع ما يريد ربه الباقي سبحانه ولتكون له عنوانا يُعرف به، فيجب أن يكون الحقّ من أولى ثوابته، والإصلاح من أولويات أعماله، وأن يدعو العباد إلى العمل بهما (الحقّ والإصلاح) على طريق اعمار الأرض.

وهو باقي لأنه لا ينتهي تقدير وجوده لا في زمان ولا في مكان، ففي الزمان هو رب المشرق والمغرب، {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}708.

وهو الذي يبقى في مد الزمن من حيث حركته واختلافه عليم مجيب، فهو الباقي المحصي لحمد العباد وتسبيحهم كما يقول سبحانه وتعالى: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ}709، وهو الباقي المحصي لطاعتهم في القيام بالواجبات، {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}710، وللنوافل، {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ

[707] يس 81.

[708] المزمل 9.

[709] الروم 17، 18.

[710] هود 114.

وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا}711، ومن حيث المكان فهو إله كل الأكوان لأنه خالقها جلّ وعلا، يقول سبحانه وتعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}712.

فهو أبدي الوجود لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلى آخر ينتهي إليه713، لأنه الباقي بعد فناء غيره كما يخبرنا بحكيم قوله عزّ وجلّ فيقول: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}714. وتفسر الآية بقاء الباقي سبحانه، فالوجه يطلق على الذات والمجسم يحمل الوجه على العضو وهو خلاف العقل والنقل أعني القرآن لأن قوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ}715، يدل على ألا يبقى إلا وجه الله تعالى، فعلى القول الحقّ لا إشكال فيه لأن المعنى لا يبقى غير حقّيقة الله أو غير ذات الله شيء.

الباقي: "هو الموجود الواجب وجوده بذاته، والباقي المطلق هو الذي لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلى آخر ويعبر عنه بأنه أبدي، واجب الوجود بذاته متضمن لجميع ذلك وإنما هذه الأسامي بحسب إضافة هذا الوجود في الذهن إلى الماضي والمستقبل، وإنما يدخل في الماضي والمستقبل المتغيرات لأنهما عبارتان عن الزمان ولا يدخل في الزمان إلا التغير والحركة إذ الحركة إنما تنقسم على ما هو في الماضي والمستقبل والمتغير يدخل في الزمان بواسطة التغير فما جل عن

711 الإسراء 79، 80.

712 الزخرف 84.

713 لسان العرب، ج 14، ص 79.

714 الرّحمن 26 ـ 28.

715 القصص 88.

التغير والحركة فليس في زمان فليس فيه ماض ومستقبل فلا ينفصل فيه القدم عن البقاء بل الماضي والمستقبل إنما يكون لنا إذ مضى علينا وفينا أمور وستتجدد أمور ولابدّ من أمور تحدث شيئا بعد شيء حتى تنقسم إلى ماض قد انعدم وانقطع وإلى راهن حاضر وإلى ما يتوقع تجدده من بعد فحيث لا تجدد ولا انقضاء فلا زمان وكيف لا والحقّ سبحانه وتعالى قبل الزمان وحيث خلق الزمان لم يتغير من ذاته شيء وقبل خلق الزمان لم يكن للزمان عليه جريان وبقي بعد خلق الزمان على ما عليه كان"716.

فهو الباقي آخرا بالديمومة والبقاء، ويقول سبحانه وتعالى عن دوام بقائه: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}717، ثم جاءت الإجابة بقوله تعالى: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّار}718 أي: الذي هو واحد وقد قهر كل شيء، وحكم بالفناء على كل مخلوق من بشر أو حيوان أو نبات، وبالفناء لكل مقام على الأرض.

وديمومة البقاء من صفاته عزّ وجلّ لأنه باقٍ قبل أن يكون لمخلوق بقاء وهو باقٍ بعد أن يفنى بقاء العباد، فقد خلق الإنسان ولم يكن هذا الإنسان شيئا من قبل، {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}719، وشيء في الآية الكريمة توحي بأن الإنسان لم يكن يملك القدرة على هذا الأمر (الخلق) ولا على أمر غيره إنما هو بأمر الباقي سبحانه وتعالى، وقد كتب عليه الفناء من بعد وليس له في هذا حول ولا قوة إنما هو أمر الباقي عزّ وجلّ، {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ

---

716 المقصد الاسنى في شرح أسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالي، ج 1، ص 147.

717 غافر 16.

718 غافر16.

719 مريم 9.

قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}720. ومن الباقي بعد ذلك؟ إنه الحقّ الحي القيوم، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}721.

والباقي سبحانه هو الذي لَا يَغِيبُ وَلَا يَنْقُصُ وَلَا يَفْنَى وَلَا يُعْدَمُ، بَلْ هُوَ الدَّائِمُ الْبَاقِي الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ لأنه الباقي وحده، يقول عزّ وجلّ: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}722 إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت، وفي الآية عمق دلالي يمكن استشعاره بتحليل أسلوب الأداء فيها، فقد جاء تركيب (كل شيء) ليدل دلالة عميقة على العموم وذلك لان (كل) حرف يفيد العموم وقد أضيف إلى شيء وهي نكرة ومعلوم أنها تفيد العموم ممّا يجعل هذا العموم مطلقا، ثم جاء بأداة الحصر والاستثناء (إلا) ومن بعدها ذكر سبحانه المستثنى وهو وجه الله في دلالة واضحة على الباقي الآخر جلّ وعلا ليس بعده شيء، وكل المخلوقات تهلك ويبقى الحي الذي لا يموت، كما قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ}723.

والباقي سبحانه وتعالى هو مالك البقاء، فهو الباقي بذاته وما سواه إنما باقٍ بالله وبإرادته، وقضى على ما عداه بالعدم والفناء724، وفي هذه المقابلة بين الباقي بذاته والفاني بغيره إيحاءات

720 المؤمنون 99، 100.

721 آل عمران 2.

722 القصص 88.

723 الفرقان 58.

724 المواقف، عضد الدين الايجي، ج 1، ص 12.

عظيمة بالقدرة للباقي وبالضعف والوهن للفاني، فالباقي قدير بذاته على البقاء بينما لا يملك الفاني قدرة البقاء وإن أراد لأنه فاقد القدرة على تحقّيق إرادة البقاء هو ومن معه، يقول الباقي سبحانه وتعالى: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}725، دليلا قاطعا على فقدان القدرة على البقاء في تلك اللحظة أي في لحظة إرادة الباقي لفناء العبد.

وليس لشأن العبد عظم أو قل أثر في تحقّيق إرادة البقاء، فالأنبياء حلت بهم إرادة الباقي ففنوا، وفي القرآن آيات محكمة تدلل على ذلك، فقد أشار الذكر العزيز إلى موت يعقوب، {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}726، وكذلك سليمان، {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}727، وأخيرا نبي العالمين الخاتم محمّد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فقد أخبره الباقي عزّ وجلّ في آيات كثيرة أنه مقبل على الموت فقال له: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}728، وقال لنا: {وَمَا محمّد إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرّسل أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}729، وفي

---

725 الواقعة 38، 87.

726 البقرة 133.

727 سبأ 14.

728 الزمر 30.

729 آل عمران 144.

هذه الآية والتي قبلها إشارة إلى صعوبة تقبل موت الأنبياء من قبل من حولهم، فالجن لم ينتبهوا لموت سليمان لأنه لم يكن في حسبانهم، وأصحاب محمّد صلّى الله عليه وسلّم حدث لهم إرباك كبير بعد إعلان وفاة محمّد عليه أفضل الصّلاة والسّلام، ولعل ذلك راجع إلى ما في هذه الشخصيات من تمثل لصفات من استخلفهم في الأرض، فهم في مرتبة عالية من الإيمان المطلق بالله وبالامتثال لأوامره، وكذلك فقد كانوا ينطقون بأخبار السماء من خلال ما يوحى إليهم من ربهم وانقطاع ذلك لاشك هو مذهل لألباب من حولهم، كما كان لدورهم الفعال في حل قضايا النّاس أثر في إرباك العقول وتشتيتها عن القبول بموتهم، وبالرغم من كل ذلك إلا أنهم اقبلوا على الموت محبين لقاء ربهم بشوق ورغبة.

وعليه الباقي هو الحي الذي لا يموت وهو مالك الفناء والبقاء، فبقاؤه مطلق وبقاء غيره نسبي مؤقت، فكان لبقاء غيره النسبي توقيت محدد نص عليه سبحانه فقال: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[730]، ويروى أن الباقي حدد لكل امة معدل متوسط للبقاء، فبينما كانت الأمم السابقة تعمر بألف سنه كما يخبرنا الباقي سبحانه بقوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}[731]، كتب أن يكون بقاء المخلوق بقدر ما يشاء هو لها فتجد أن بعض المخلوقات تعمر أكثر من غيرها، وبقاء بعضها مرتبط بدوره كالملائكة الكرام فيروى أن الملائكة يبقون بأمر الله أكثر من كل المخلوقات لكن يحل بهم الفناء بأمر الخالق بعد انتهاء دورهم وأكبر

[730] الأعراف 34.

[731] العنكبوت 14.

دليل على ذلك هو تأخر فناء عزرائيل وذلك لغرض استكمال مهمته في القيام بأمر الله وحين يكمل هذه الدور سوف يحل به الفناء هو أيضا، {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}732، "والموت صفة وجودية خلقت ضدا للحياة المؤقتة. والمعنى يقبض عزرائيل أرواحكم بحيث لا يترك منها شيئا بل يستوفيها ويأخذها تماما على أشد ما يكون من الوجوه وأفظعها من ضرب وجوهكم وأدباركم أو يقبض أرواحكم بحيث لا يترك منكم أحدا ولا يبقى شخصا من العدد الذي كتب عليهم الموت وأما ملك الموت نفسه فيتوفاه الله تعالى كما روى أنه إذا أمات الله الخلائق لم يبق شيء له روح يقول الله يملك الموت من بقى من خلقي وهو أعلم فيقول يا رب أنت أعلم بمن لم يبق إلا عبدك الضعيف ملك الموت فيقول الله يا ملك الموت قد أذقت أنبيائى ورسلي وأوليائي وعبادي الموت وقد سبق في علمي وأنا علام الغيوب إن كل شيء هالك إلا وجهي وهذه نوبتك فيقول إلهي ارحم عبدك ملك الموت والطف به فإنه ضعيف فيقول سبحانه وتعالى ضع يمينك تحت خدك الأيمن واضطجع بين الجنّة والنّار ومت فيموت بأمر الله تعالى"733، وسبحانه الحي الباقي الذي لا يموت ولا يفنى.

فالباقي على ذلك باق إلى غير نهاية، وكل ما لا نهاية له هو باق، فانظر إلى الأكوان هل ترى أن شيء منها باق؟

فالأرض تنتهي كما ينص قول الله سبحانه وتعالى تذكيرا للفاني المنتهي بمصيره القادم، وتحذيرا له قبل الندم، {كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ

732 السجدة 11.

733 تفسير حقّي، ج 10، ص 460.

دَكًّا دَكًّا}734، وقوله تعالى: (كَلاَّ) ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم أي لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا في الحرص على الدنيا وقصر الهمة والجهاد على تحصيلها والاتكال عليها وترك المواساة منها وجمعها من حيث تتهيأ من حلالٍ أو حرام، وتوهم أن لا حساب ولا جزاء. فإن من كان هذا حاله يندم حين لا تنفعه الندامة ويتمنى أن لو كان أفنى عمره في التقرب بالأعمال الصالحة والمواساة من المال إلى الله تعالى، ثم بين أنه إذا جاء يوم الحشر تبين مصير الأرض وطريقة انتهائها، فقوله: (إِذَا دُكَّتِ الأرض دَكّا دَكّا)، فمعنى الدك كسر كل شيء على وجه الأرض من جبل أو شجر حين زلزلت فلم يبق على ظهرها شيء، أي أنها استوت في الانفراش فذهبت دورها وقصورها وسائر أبنيتها حتى تصير كالصخرة الملساء، واعلم أن التكرار في قوله: (دَكّا دَكّا) معناه دكا بعد دك كقولك حسبته بابا بابا وعلّمته حرفا حرفا أي كرر عليها الدك حتى صارت مستوية الانبساط. وهذا الحال لابدّ وأن يكون متأخرا عن الزلزلة، لان الباقي سبحانه يقول: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا}735، فإذا زلزلت الأرض زلزلة بعد زلزلة انهدت الجبال بالقوّة التي تُكسَّرُ أوتادها فلا تكون تلالا بعد أن كانت، وهكذا تكون النهايات.

وآيات انتهاء الأرض عديدة كلها توضح بجلاء حالة الانتهاء ولحظته، يقول الباقي سبحانه وتعالى: {يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة تَتْبَعُهَا الرادفة}736، وهي الحركة الأولى في لحظة الانتهاء، ثم الزلزلة التي ذكرناها سالفا، ثم الرج والبس، {إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّا، وَبُسَّتِ

734 الفجر 21.

735 الزلزلة 1.

736 النازعات 67.

الجبال بَسّا}737، أي زلزلت وحركت تحريكا شديدا بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل متعلق بخافضة أو برافعة، والبس التقليب، ثم يأتي الدك، {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً}738.

والجبال تنسف وتتغير حالتها من الارتفاع إلى الانبساط وهذه نهايتها التي يذكرها الباقي عزّ وجلّ فيقول: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}739، والمياه تجف وتغور في الأرض مصداقا لقوله تعالى: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ}740، والسماء تنتهي بطيها، {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}741، والطي ضد النشر، وهو الإفناء والإزالة، والعودة إلى الأصل وهي الذرة التي تهيأت عليها الأرض وخلقت، وهكذا كل شيء يَفنى وينتهي ولا يبقى إلا وجهه، {فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ}742، وكذلك يقول الباقي عن الفاني: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى}743، والعمل ينتهي، {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}744، وكل شيء ينتهي بأمر القادر على وضع النهايات.

مظاهر الباقي:

---

737 الواقعة 4، 5.

738 الحاقة 14.

739 طه 105 . 107.

740 هود 44.

741 الأنبياء 104.

742 الحاقة 8.

743 النجم 50، 51.

744 الفرقان 23.

1- كلمته (لا إله إلا الله)، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}745، ولأن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام موحدا لله رب العالمين قال: {إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ}746، وهذه كلمة باقية من بعده في قلوب المستخلفين فيها. (كَلِمَةً باقية في عَقِبِهِ) في ذريته عليه السلام الذين لا يزالون على التوحيد لله رب العالمين واحدا أحد لا شريك له، (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) تعليل للجعل أي جعلها باقية في عقبه إلى يوم يبعثون، وكلمة التوحيد باقية لا تفنى لأنها تدل على صلة المخلوق بالخالق الباقي عزّ وجلّ، الذي لا يفنى ومن هنا اكتسبت هذه الكلمة صفة البقاء، وستبقى هذه الكلمة بعد أن تفنى الخلائق لأنها كلمة بحقّ الباقي الذي لا يموت تبارك وتعالى.

ويجب أن تكون للخليفة كلمة تبقى وهي كلمة الحقّ، فعليه أن يعي أهمية كلمة الحقّ وضرورتها لإعمار الأرض، فهي التي يتم بموجبها تصحيح مسار الحياة على الأرض على طريق الإصلاح الذي أُريد للخليفة أن يقره فيها، فإذا وعى كلمته يجب عليه أن يعممها ويعمم العمل بمقتضاها حتى تعم الفائدة منها ولا تقتصر عليه فقط.

2- شأنه، الشأن الحال، وهو باقي الشأن من قدرته على البقاء والثبوت، والنقص في ما سواه، فكل صفات الباقي ثابتة لا تتغير لعلة فيها كما في الباقي بالإضافة الذي يتغير لمرض أو لغضب أو لحب أو لكره، فالبقاء المطلق صفته التي لا تتبدل، يقول جلّ وعلا: {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}747، لذا فهو رحيم مطلق الرحمة،

---

745 الزخرف 26 . 28.

746 الزخرف 26.

747 ق 29.

{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}748، وهو عفو باقٍ على عفوه، {إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا}749، وهو تواب، {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}750، وهو شديد، {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}751، وشدته مفسرة بمحكم الآيات على سبيل ضرب المثل على سبيل الإحصاء والإحاطة التامة بشدته الباقية، فهو شديد العقاب، {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ}752، وشديد المحال، {وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}753، وهو قوي {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}754، وكل الصفات الأخرى فهي باقية بقاءً مطلقا لبقاء الذات المتصفة بها، ولعله من الواجب أن نقف مع آية كريمة شغلت الألباب لما فيها من معانٍ قد يتوهم البعض خلاف البقاء والثبوت إذا مرت به، يقول الباقي عزّ وجلّ: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}755، ويبقى وجه ربك يا محمّد تشير إلى بقائه بعد فناء كل من على الأرض، {ويبقى} للاستمرار أي سيظل هو الله الباقي واحدا أحدا لا شريك له.

---

[748] آل عمران 31.

[749] النساء 149.

[750] النصر 3.

[751] النجم 5.

[752] غافر 22.

[753] الرعد 13.

[754] المجادلة 21.

[755] الرّحمن 27 . 30.

قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}756 كل من على الأرض سيفنى ولا يبقى على وجهها أحد، كل شيئا هالك {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}757 ويبقى الله تعالى لا يفنى إنه الحي الدائم الباقي بالمطلق.

(كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) عندما يكون الأمر متعلق بالمخلوق فالمخلوق في حالة تبدل، بأسباب التغيرات التي تؤثر فيه سلبيا وإيجابيا، وهكذا أيام الله واحدة والأقوال والأفعال البشرية تتبدل وتتغير من حال إلى حال، وستظل أقوال وأفعال الإنسان متبدلة إلى أن يؤمن بالباقي الذي لا يفنى، وعندما يقول: {لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار}758، فإنه تعالى في ذلك اليوم يجوز أن يكون هو السائل وهو المجيب، ويجوز أن يكون البعث والعباد مؤمنهم وكافرهم يجيبون إجابة واحدة الملك اليوم لله الواحد القهار، ولهذا فشأن الكفرة في الدنيا الإنكار، وشأنهم في اليوم الآخر الاعتراف.

وعليه فالخليفة باقٍ أي باقٍ بتحليه بالصفات الباقية، وأن يتمثل على الدوام قول الباقي المسْتَخْلِفْ جل في علاه: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}759، أي يجب أن يبتعد الخليفة عن الأخذ بالذنب السابق أو أن يصدر عقوبة لذنب تجاوز عن صاحبه لعودته عنه.

---

[756] الرّحمن 26.

[757] القصص 88.

[758] غافر 16.

[759] الأنعام 164.

3- شرعه، شرع الله باقٍ منذ اختار الله آدم ليكون خليفته في الأرض، رحمة منه بالنّاس وليكون للناس منهاجا وسراجا يهتدون به، والشرع هو "ما شَرَع الله لِعبادِه من الدِّين: أي سَنَّه لهم وافْترضَه عليهم. يقال: شرَعَ لهم يَشرَع شرْعا فهو شارِع. وقد شرَع اللهُ الدين شرْعا إذا أظهَره وبيَّنه"[760]، وقد كان هذا الشرع الذي أراد الباقي أن يكون باقيا إلى يوم الدين قد مر بمراحل إلى أن وصل خاتمته برسالة سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فقد بدأ على شكل وصايا وتنبيهات من الباقي عزّ وجلّ إلى أول خلفائه آدم فقال له: {فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تبعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[761]، وفصل له هذه الوصايا فقال عز من قائل: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجنّة يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآَتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آَبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حقّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ

[760] النهاية في غريب الأثر، ج 2، ص 1141.

[761] البقرة 37. 39.

أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}762، والإشارة واضحة إلى القادم من أوامر الله وناهيه، فالآيات كلها تشير إلى الهدى وهو شرع الله الذي يوصي به عباده على مراحل قادمة، وفي المرحلة الثانية كانت الصحف هي التي تمحل مكملات ما شرعه الله للعباد، {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}763، وفي إبهامها ووصفها بالقدم ثم بيانها وتفسيرها من تفخيم شأنها ما لا يخفى وكانت صحف إبراهيم عشرة وكذا صحف موسى عليه السلام والمراد بها ما عدا التوراة، ثم توالت الكتب وهي: ألزبور، {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}764، وذكر لنا الباقي عزّ وجلّ نصا من الزبور ضمنه في الكتاب الحكيم فقال: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا في الزبور مِن بَعْدِ الذكر أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عبادي الصالحون}765، ثم التوراة فالإنجيل فالقران بتسلسل تدلل عليه الآيات الكريمة التي تنص على: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرّبانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النّاس وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ والسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ

762 الأعراف 24 . 30.

763 الأعلى 18، 19.

764 الإسراء 55.

765 الأنبياء 105.

التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحقّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}766.

وهنا قد يتساءل البعض عن حكمة أن يكون شرع الله على هذه المراحل ولم يكن ينزل مرة واحدة؟ والجواب هو أن الباقي حكيم عالم بخلقه، فهو ينزل الشرع على مراحل رحمة بهم ومراعاة من جلاله لضعفهم عن القيام بالكل، وهو أمر اختص به وحده سبحانه، فكان الشرع متسلسلا ليتسنى للعباد القيام به،كما أن الحكيم سبحانه جعل لكل امة شرعا يختص بهم ليناسب معايشهم حكمة منه لتسهيل الحياة عليهم ممّا يمكنهم من القيام بأمر الاستخلاف، فالباقي باقٍ على عونه دائم في رحمته للإنسان معينا له وهو يقوم بما أمره الله به من استخلاف الأرض وإتباع شرع الباقي.

هنا يجب أن يفهم الخليفة ما أراد ربه جلّ وعلا، فيجعل ما يشرعه للناس من أحكام ومعاملات متناسبة مع قدراتهم على التطبيق، واعيا للهدف من ذلك وهو قيام النّاس بأمر الاستخلاف، وليس الهدف تكليف النّاس بغير ما يطيقون لان الحكيم سبحانه يقول: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى

[766] المائدة 44 ـ 48.

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}767.

4- إرادته: وهي صفة لوقوع الفعل على وجه مخصوص دون آخر768، وهو ممّا اختص به الباقي بالمطلق، لأنه القادر على الإتيان بالفعل على الوجه الذي يريد سبحانه وبالشكل الذي يريد وفي الوقت الذي يريد كما قال الله تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون}769، وإرادته باقية لأنها صادرة من الباقي، وهي مخصوصة بما ذكر لنا في محكم آياته، واختص لنفسه بما لم يخبرنا، فقد ذكر لنا أنه يريد:

أ- التيسير على العباد في كل ما تقتضيه العبادات والمعاملات، فقد أراد القيام بالتكليف على قدر الممكن فقال: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}770.

ونص على إرادة التيسير في قوله تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}771، كما أشار سبحانه إلى التخفيف وهو شكل من أشكال التيسير فقال جل الباقي: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ

---

767 البقرة 286.

768 التعريفات 1. 4.

769 يس 82.

770 البقرة 286.

771 البقرة 185.

الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}772، ثم بعد ذلك رفع الحرج عن عباده في حال الكلفة فقال جلت إرادته: {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}773، وعلى ذلك وجب على الخليفة اختيار إرادة التيسير اقتداءً بإرادة الباقي جلّ وعلا واستيعابا للفوائد المتحقّقة من التيسير، فهي تقرب النّاس من الطاعة ولا تنفرهم منها أو من الداعي إليها. وكل ذلك يجب أن يكون بخطاب ودود لا فظا ولا غليظا متمثلا قول الباقي جل في علاه: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}774.

ب- يريد الهداية لعباده، {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}775، لأمرين أشار إليهما الباقي جلّ وعلا، الأول: لأنه خلق المخلوقات لعبادته، {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}776، فكان من حكمته أنه يسر لنا هذا الواجب بالهداية، والثاني: انتفاء إرادة العذاب بلا موجب، فالله سبحانه وتعالى لا يريد عذابنا إن قمنا بواجب العبادة الموكل إلينا، {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا}777، فكانت إرادة الهداية موجبة. ودور الخليفة ينحصر في توفير سبل الهداية ومحاربة سبل الضلالة، وما من سبيل إلى الهداية

---

[772] النساء 28.

[773] المائدة 6.

[774] آل عمران 159.

[775] النساء 26.

[776] الذاريات 56.

[777] النساء 147.

أكثر قوة في التأثير من إشاعة العلم بين النّاس في أمور دنياهم ودينهم، لان العلم يوصل بالتأكيد إلى معرفة حقّ الله في عبادته وحده والإخلاص في العبادة، والى ذلك أشار الباقي جلّ وعلا في محكم كتابه فقال: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ}778، الخشية بقدر معرفة المخشي، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه. وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد، لأن الله تعالى قال: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أتقاكم}779، فبين أن الكرامة بقدر التقوى، والتقوى بقدر العلم.

ج – التفريق والتمييز وفقا للإرادة: فكان التميز بين العباد بالإيمان والكفر والشرك ممّا جعل القول والفعل دليلا للتمييز بين ما يجب وما لا يجب، قال تعالى: {وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}780، فقد ميز الباقي سبحانه أن أموال الكفار في الحياة الدنيا هي لعذابهم فقال سبحانه وتعالى: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}781.

أما أموال المؤمن فهي رحمة منه ورضوانا لينفق منها في ما يرضي الباقي جلّ وعلا، قال تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ

---

[778] فاطر 28، 29.

[779] الحجرات 13.

[780] آل عمران 176.

[781] التوبة 55.

الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}782، وأوجه التميز في الدنيا محدودة وذلك من رحمة الله بعباده ومن عدله وحكمته، لأنه ما من عائدٍ إلى طاعة الله إلا رفع عن حكم الكافر فخرج من جماعتهم إلى جماعة المؤمنين فسقط عنه التمييز، لكن بعد الحياة حيث لم يبق للعبد إلا عمله هنا يحصل التمييز العادل وبالحقّ بين من أطاع ومن كفر، فيثاب الطائعون بالجنّة وما فيها من طيبات، {إِنَّ أَصْحَابَ الجنّة الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}783.

ويُجزى الكافرون بالنّار، وأول ما يجزى به هؤلاء هو التمييز عن غيرهم وهي العقوبة الحقّ، مصداقا لقوله تعالى: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ}784،ثم يأتي الجزاء الآخر عافانا الباقي منه برحمته، {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا}785.

فالخليفة عليه أن يميز بالمعرفة لا بالمعاملة بين المؤمنين والمنافقين، وعليه أن يحتفظ بهذا في مكنون معرفته ثم يذكر بما آتاه الباقي من آيات الذكرى ثم ينظر عمل كل منهم فيثيب الذي بقي على إيمانه وكذلك العائد من النفاق إلى الإيمان، ويدعو لمن بقي فإذا أصر وتولى وكفر فان الله سيعذبه العذاب الأكبر: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ

---

782 البقرة 3.

783 يس 55 . 58.

784 يس 59.

785 الكهف 29.

عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ}786، فدور الخليفة إذا ينحصر في التذكير فعليه أن يجتهد فيه.

د – يريد العدل وذلك يحث خلائفه على الامتناع عن الظلم، فقد نزه نفسه عن الظلم جلّ وعلا فقال: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحقّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ}787، وفي هذه الآية دعوة واضحة إلى الاقتداء به سبحانه وتعالى وترك الظلم، ولهذا فالباقي هو العدل الذي يستوجب أن يسود بين المستخلفين فيها، ومن لا يعدل يضل ثم يرد إلى ربه ليرى العذاب الأكبر، {قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا}788، وقال تعالى: {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاس لَفَاسِقُونَ}789.

وهذا ما يجب أن يعيه الخليفة فيجعل العدل باقيا بين النّاس وذلك بترسيخ الإدراك عند النّاس لأن ما من حكم يصدر إلا عن عدل ومن عدل ولعدل، وهنا سيكون العدل باقيا في النفوس بتحقّقه بين النّاس على الأرض، وهذا أمر الله الباقي وجب على الخليفة القيام به كواجب من واجباته، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}790.

---

786 الغاشية 21، 24.

787 آل عمران 108.

788 الكهف 87.

789 المائدة 49.

790 النساء 58.

هـ- يريد لنا التوبة، وهي إرادته الباقية لكل عباده وفي كل الأزمان والأماكن، وهي عكس إرادة الذين كفروا كما يخبرنا الحقّ سبحانه وتعالى: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا}791.

ويجب أن تكون إرادة الخليفة مستمدة هنا من إرادة الباقي عزّ وجلّ، أي أن ينتظر توبة المخطئ ويقبلها منه فيتجاوز عن السابق من الذنب، ولا يمل من كثرة عودة التائبين ولا من عددهم بل يجب أن يُبقي إرادة التوبة في ذاته لأن من شأن ذلك تحقّيق الإصلاح الذي هو من أبرز مهام الاستخلاف في الأرض.

5- قدره: تدل الآيات الكريمة على بقاء قدره سبحانه وتعالى، {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}792، وقوله: (قدَّرَ) تعني إنه حقّق الشيء على الاتزان والاعتدال، فجعل كل شيء بحسبان، {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ}793، فالموت وهو قدر الباقي كتبه على الخلق كلهم وليس بإمكان أحد المنع أو الرد أو إنهاء هذا القدر لعدم وجود القدرة على ذلك، فهو قدر باقٍ من إله باق، {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}794، ومن الآيات الدالة على قدره الباقي جلّ وعلا تقدير الليل والنهار، {وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}795، وما ينتج عن حركة الأفلاك من متغيرات تحدد الوقت

---

791 النساء 27.

792 الأعلى 1 ـ 3.

793 الحجر 21.

794 الواقعة 60.

795 المزمل 20

فتنظم المعايش، وتهيأ سبل الراحة للإنسان الموكل بأعمال الدنيا والآخرة، {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}796.

بقي أن نسأل هل للخليفة قدر؟ يجب على الخليفة أن يصنع لنفسه قدرا وذلك بإقرار الحقّ وإزهاق الباطل، ويجب عليه أن يُفهم العباد أن هذا قدره الذي لا يساوم فيه ولا يبدله، وبالتقدير يتم نيل الاعتراف، ويتحقّق الرضا النفسي ويعم بين من نال التقدير وبين من قدره بالحقّ، ولهذا لا ييأس غريب من عدلٍ هو بأمس الحاجة إليه. والقدر نصيب وفقا لكل خصوصية، فمن قدَّر الآخرين قدر نفسه، ومن لم يقدرهم بما هم عليه لن يقدروه حقّ قدره.

6- نعيمه: هو وعد الله وثوابه، وقضى الباقي عزّ وجلّ بأن الحياة الدنيا فانية منتهية وأن الباقية هي حياة الآخرة فأعملوا لها للفوز بالنعيم الباقي، يقول عز من قائل: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّار وَأُدْخِلَ الجنّة فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}797 فالفوز هنا محصور بالحياة الدائمة والنعيم الباقي، ووعده باقٍ لأنه من الباقي فلا تبديل لكلمات الله التامة، {الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}798، وقد قال عز من قائل في وصف نعيمه، {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حقّا وَهُوَ الْعَزِيزُ

---

796 الأنعام 96.

797 آل عمران 185.

798 يونس 63، 64.

الْحَكِيمُ}799، فهو نعيم باق ينعم به الخالدون، وهو بشراه الباقية لكل من أطاعه، {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}800.

والنعيم باقٍ لمن عمل له، فهو لمن تزين بعمل الآخرة مؤمنا بأنه الباقي عند الباقي جلّ وعلا، وأخذ من زينة الدنيا على قدر حاجته ولم يزد على ذلك، يقوْل الباقي سبحانه: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}801.

وهذا النعيم الباقي له أثر باقٍ، {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ}802، فالوجوه متأثرة بأثر هذا النعيم الباقي، فهي ناضرة كما يصفها الباقي عزّ وجلّ: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ}803، أي مشرقة بالنعيم.

والخليفة يدرك أنه لا يملك مثل نعيم ربه، لكن عليه أن يجعل حياة المؤمنين من حوله ممن يعملون بالحقّ ويدعون إليه ويمنعون الفساد ويحاربونه نعيما يستشعرون معه بلذة الطاعة، فيجعل لكل مستحقّ أجرا كما جعل شعيب لموسى عليهما الصّلاة والسّلام على قدر العمل، {فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ

---

799 لقمان 8، 9.

800 التوبة 21، 22.

801 الكهف 46.

802 المطففين 22 ـ 24.

803 القيامة 22.

إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}804، ويجب على الخليفة أن يحرص على مكافأة العاملين امتثالا لحكم الباقي عزّ وجلّ الذي يقول: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا}805، وفي هذه الآيات حِكم عظيمة للخليفة، فالأجر والمكافأة هي من أقوى الدوافع النفسية والجسدية لاستمرار العباد بالعمل الصالح، ولاستمرار مسيرة إعمار الأرض الموكلة بالخليفة، وبدون المكافأة والأجر لن تجد من يقوم بهذه المهمة إلا قليل ممن يعملون لوجه الله خالصا ولا ينتظرون أجر الدنيا فيسألون الباقي وحده.

7- عذابه، هو باق بحقّ من بقوا على كفرهم وهو باق مطلق من عدل مطلق، {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}806، وتدل لفظة مقيم المصاحبة للفظة العذاب في كثير من الآيات على كونه باق بحقّ مستحقّيه، يقول الباقي جل في علاه: {يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ}807، كذلك تشير الآيات إلى الديمومة والاستمرار وهي من أوجه البقاء، كما في قوله تعالى: {كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ

---

[804] القصص 24 . 28.

[805] الكهف 30.

[806] المائدة 36.

[807] المائدة 37.

جُلُودًا غَيْرَهَا}808، فَهَذَا فَنَاءٌ وَتَجْدِيدٌ دلالة على البقاء، فهو عذاب مستمر غير قابل للتخفيف ولو بجزء زمني بسيط حدده المولى عزّ وجلّ بيوم فقال: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النّار لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ}809، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنّاس أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}810، والعذاب باق حتى لو حرص الإنسان على تأخيره ورغب في ذلك إلا أنه لم يزل يتمنى ما لا يقدر على فعله، فهو يتمنى أن لا يلق العذاب لكنه ينسى أنه فانٍ والعذاب باقٍ للمستحقّ كما يصف الله عزّ وجلّ هذه المعادلة بين رغبة الفاني (الإنسان) وبين العذاب الباقي بقوله عز من قائل: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النّاس عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}811. وكانت نتيجة هذا البقاء هو الخلود في النّار كما يخبر الباقي عزّ وجلّ: {تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ}812.

والعذاب الباقي موصوف بصفات منها:

---

[808] النساء 56.

[809] غافر 49.

[810] البقرة 161، 162.

[811] البقرة 96.

[812] المائدة 80.

1 . شديد: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}813.

2 . مديد طويل: {كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا}814.

3 . مضاعف: {يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا}815.

4 . أليم: {أليم لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}816.

5 . كبير: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}817، وقال تعالى: {فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ}818.

6 – مهين: وهذا العذاب المهين مخصوص بالذكر لأهمية التنبيه عليه من الباقي عزّ وجلّ فأكثر من الإشارة إليه كما هو آتي:

أ . الكفر بالمعصية لأولياء الله وخلفائه توجب العذاب المهين، {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}819.

---

813 البقرة 85.

814 مريم 79.

815 الفرقان 69.

816 الشعراء 201.

817 السجدة 21.

818 الغاشية 24.

819 سبأ 14.

ب ـ الطغيان على النّاس بالأموال التي وهبها الله أو بالقوّة أو بالبنين هو ممّا يوجب هذا العذاب، {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}820. ولذا فإن تعدي حدود الله يجعل هذا العذاب المهين مستحقّا، {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ}821.

ج التكذيب بالآيات، {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}822.

د ـ الاستهزاء بآيات الله ورسله وكتبه من موجبات العذاب المهين، {وَمِنَ النّاس مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}823.

هـ ـ وكذلك التلاعب بالإيمان لتسيير أغراض دنيوية، {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}824.

ولأهمية تجنب الوقوع بما يوجب العذاب المهين يجب على الخليفة أن يكون له دور بارز في توعية العباد إلى الموجبات التي تزيل هذا العذاب، وأن يدعوهم إلى تجنب مسبباته، بل عليه تيسير أسباب الاجتناب بالمطلق، فلا يسمح بالكفر ولا بالطغيان ولا تعدي حدود الله ولا التكذيب بالآيات، وأن يحارب الاستهزاء بالله وبرسوله كما يحدث الآن من قبل بعض أعداء الدين الحقّ وبعض الحاقدين

[820] آل عمران 178.

[821] النساء 14.

[822] الحج 57.

[823] لقمان 6.

[824] المجادلة 16.

المبغضين لله ورسوله، فلا يترك وسيلة حقّ إلا أتبعها من أجل الدفاع عن الله ورسوله، وأهم هذه الوسائل إشاعة الوعي بين العباد لهذه الأفكار لئلا يقعوا فيها أو أن يسايروا من يدعوا بها وإليها.

7 . عظيم: قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}825.

ولأنه الباقي فهو الذي هدى وأبدع كل شيء خلقه، {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}826، ثم هو الذي يرث ملكه الباقي له وحده، {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}827، وهنا يصدح قول الحقّ بوجه الباطل بكل أنواعه، قال تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}828.

وإذا أردنا أن نبحث لمزيد من المعرفة بالباقي، فلننظر إلى الفاني، إلى المتغير لنعرف الباقي الثابت بعد زوال غيره829، فالفاني متغير حاله من الموت في الرحم إلى الحياة في الدنيا ثم إلى الموت القبر وهو رحم الأرض، {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}830، والباقي حي لا يموت، {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ

---

[825] البقرة 114.

[826] طه 50.

[827] مريم 40.

[828] غافر 16.

[829] معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 103.

[830] البقرة 28.

خَبِيرًا}831، ولأنه مالك الإحياء والإماتة، قال: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}832، فالباقي الذي يُفني ولا يفني {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}833.

وانظر إلى مرض الفاني وتأمل في التغيرات الحاصلة عليه من حيث المبنى الجسدي أو الانفعال المزاجي له، وتأمل فيما يصدر عنه من ضعف وارتباك في الجسد والسلوك لتعرف عظمة الباقي جل شأنه، ثم تأمل في نوم الفاني وما يصدر عنه من غفلة عظيمة بحقّ نفسه وغيره وما يترتب على ذلك من مكاره، ثم تأمل في الباقي حيا قيوما، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}834، وفي المنافع الحاصلة لذلك، فهو الباقي حيث الفاني نائما غافلا عن الإجابة، والباقي يسمع ويجيب في الليل كما يسمع ويجيب في النهار، ويحصي عمل العبد خيرا كان أم شرا، {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآَنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآَخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ

---

[831] الفرقان 58.

[832] الأنعام 95.

[833] القصص 88.

[834] البقرة 255.

فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[835]، وتأمل أيها المعاند غير ذلك فكيف سيكون حال الأرض والإنسان عليها من دون الله الباقي الحي القيوم؟ فسبحان الله عما يصفون! ودور الخليفة يتمثل في وجوب تحليه بالحضور الدائم في قضايا العباد ومسائل دينهم ودناياهم، وأن يبتعد عن الغفلة والإهمال، وأن يحرص على امتلاك القدرة على التأثير في مجريات الأمور بما مكنه الله في الأرض فيستخدم الوسائل ويتبع الأساليب التي ألهمه الله إياه لغرض خدمة العباد والقيام بأمرهم.

والفاني يغضب ممّا يصاحب ذلك إرادة الضرر للمغضوب عليه، وهو في الغالب انفعال ينتج عنه عدم انضباط في السلوك، لذلك أوصى الباقي الخليفة بعدم الغضب وحثه على كظم الغيظ فقال جلّ وعلا: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النّاس وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[836]، وتأمل حال الفاني ساعة الغضب لتسبح طويلا للباقي الحكيم الذي لم يدفعه عصيان عباده إلى أخذهم بسوء أعمالهم أنما غلّب الرحمة على غضبه فأمهلهم حتى يعود من يعود ليجد الباقي رحيما توابا، {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا}[837].

وغضبه سبحانه محصور بالمصرين على محاربة الله ورسله، أولئك الذين يصفهم سبحانه بقوله جل في علاه: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ

[835] المزمل 20.

[836] آل عمران 134.

[837] النساء 110.

عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ}838، أو الذين ارتضوا الكفر منشرحين الصدر به، {وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}839، وبشهداء الزور من غير إكراه وبلا وجه حقّ أي برضاه ورغبة منه في تحقّيق مكسب دنيوي بالباطل، مثل المرأة التي تتهم زوجها بالزنا بالباطل لغرض أن تنزل به القصاص وتحقّق هي بذلك منفعة دنيوية لها، {وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ}840، وبالمجادلين بغير حقّ، {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ}841.

وتأمل في بخل الفاني وحبه للمال وحرصه عليه، لتعرف الباقي كريما حنانا منانا، فالفاني محبٌ للمال، {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}842، بخيلٌ به غافلٌ عن تبعات ذلك البخل، {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}843، آمرٌ به، {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاس

[838] البقرة 90.
[839] النحل 106.
[840] النور 9.
[841] الشورى 16.
[842] الفجر 20.
[843] آل عمران 180.

بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}844، فتأمل الخير من مثل هذا الفاني، وتذكر الغني الكريم الذي يرزق العباد بغير حساب ولا ينقص من ملكه الباقي شيء، {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}845، وهو الذي يرزق الكافر والعاصي على حد سواء لأنه ربهما الباقي ولا رب سواه، {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}846، فأما المؤمن فانه يقر بنعمة ربه ويشكر، {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ }847، وأما الكافر فإنه يرد بالتكذيب، {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}848.

وهو الذي يأمر عباده بالكرم ويحثهم عليه، {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا

---

[844] النساء 37.

[845] الأنعام 141، 142.

[846] هود 6.

[847] النمل 40.

[848] الواقعة 82.

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}849، والكافر يرى غير ذلك، إذ يرى أن المال الذي بين يديه ملكه وحده ولا يمكن أن يشترك فيه معه أحد، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}850.

وعلى الخليفة أن يشرح للعباد قباحة البخل، وأن يشيع مبدأ الإنفاق بين النّاس وأن يعلمهم أصوله، فيدلهم على مقاصده المتمثلة بالإنفاق على النفس والغير من أهل وزوج وعيال بالحقّ، ثم للذين نص عليهم الباقي سبحانه بقوله: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}851. وأن يمنع إلى جانب ذلك الإنفاق السلبي المتمثل بالإسراف الذي نهى عنه الباقي في آيات القران الكريم، {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}852.

وتدلل الآيات على أحوال الفاني المتغير لتجعلنا ندرك على وجه اليقين حال الباقي عزّ وجلّ: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً

---

[849] البقرة 261، 262.

[850] يس 47.

[851] البقرة 215.

[852] الأعراف 31.

فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}853.

وهذا التفاوت إنما هو تفاوت النّاس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم، وتمامهم ونقصانهم، وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة (لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ) بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا، ثم من نطفة ثانيا ولا تناسب بين الماء والتراب وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاما ثم (نقر) إخبار بأنه يقُرّ في الأرحام مَا يَشَاء أن يقرّه من ذلك إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى وهو وقت الوضع آخر الأشهر المعدودة، أو السنة المعدودة، أو كما شاء وقدّر. وما لم يشأ إقراره مجته الأرحام أو أسقطته. أما قوله تعالى: (ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ)، الأشد: تمام القوّة والعقل والتمييز والقدرة، ومنكم من يتوفى أي يتوفاه الله، أما أَرْذَلِ العمر فهو الوهن الإيماني أو العقلي، (لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا).

كما أن حاجات العبد غير متناهية، لأنّ كلّ ما سوى الله تعالى فهو متناهي البقاء والقوّة إلا بإمداد الباقي، فالعبد محتاج للأكل، {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}854، الشرب، {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}855، وتحركه الشهوة، {أُحِلَّ لَكُمْ

---

[853] الحج 5.

[854] البقرة 57.

[855] البقرة 60.

لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}856، ويحتاج إلى الراحة، {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ}857، ويحتاج النوم، {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا}858، وكلها دالة على النقص الحاصل فيه من جهة وعلى الكمال في الباقي، وعند مقابلة حاجة العبد التي لا نهاية لها من كمال الله الذي لا نهاية له، يحصل العلم بكمال الباقي جلّ وعلا، فهو الأكرم، {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}859، الأكرم، الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم، ينعم على عباده النعم التي لا تحصى، ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهي وإطراحهم الأوامر، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم، فما لكرمه غاية ولا أمد، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم، حيث قال الأكرم (الذي عَلَّمَ بالقلم عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ) فدلّ على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم والإيمان، ونبّه على

856 البقرة 187.

857 النحل 80.

858 الفرقان 47.

859 القلم 3، 5.

فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلاّ هو. وهو الأرحام، {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}860، والأعلم، {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}861.

وللباقي كمال القدرة التي تشير إليها كثير من آيات القرآن الكريم ومنها قوله تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}862، والآية تتحدى إنكار المنكرين لقدرة الله وذلك ببيان كمال قدرته سبحانه الذي خلق هذه الخلائق العجيبة التي هي من دلائل كمال القدرة، فهو الذي مهد الأرض من حيث التضاريس والطقس وقوانين الجاذبية وغير ذلك فيسر العيش عليها بقدرة منه، ويكفي أن نتأمل حال الكواكب الأخرى التي لم يكتب الله تيسير سبل العيش فيها لتعي حقّيقة قول الباقي (مهادا) فالمهاد مشتق من المهد وهو سرير يخصص للطفل وتتوفر فيه كل وسائل الراحة وكذلك الأرض بالنسبة للإنسان فقد كانت بقدرة الباقي راحة وقياما بحاجات الإنسان عليها، وجعل النهار معاشا تستيقظون فيه وتتقلبون في حوائجكم ومكاسبكم. والليل سباتا للراحة، أما السَبْع الشداد فهي السماوات وشِدَادا جمع شديدة، يعني: محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الأزمان فهي باقية بقدرة الله، وَهَّاجا متلألئا وقادا، يعني الشمس، وكذلك المعصرات:

---

[860] الأعراف 151.

[861] النحل 125.

[862] النبأ 6، 16.

السحائب إذا أعصرت، أي شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر. كل هذه من دلائل كمال القدرة للباقي عزّ وجلّ. أما الفاني فإنه ناقص القدرة، بل هو فاقدها بالمطلق لولا رحمة الباقي، فالفاني لا يملك القدرة اللازمة للإتيان بالأعين أو مدركات الحواس عموما، وعن ذلك يقول الباقي سبحانه: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}863، فالفاني لا يملك القدرة على الجعل لأي من أجزاء جسده من عيون وما يختفي من أسرار في كيفية أداء عملها، ولا لسان لينطق به فيكفر أو يؤمن بقدرة الباقي، ولا غير ذلك من أجزاء الجسد، وعجائب هذه الأعضاء مذكورة في كتب التشريح، وقال أهل العربية النجد الطريق في ارتفاع فكأنه لما وضحت الدلائل جعلت كالطريق المرتفعة العالية بسبب أنها واضحة للعقول كوضوح الطريق العالي للأبصار، وإلى هذا التأويل ذهب عامة المفسرين في النجدين وهو أنهما سبيلا الخير والشر، وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "يا أيها النّاس أنيبوا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير ممّا كثر وألهى يا أيها النّاس إنما هما نجدان نجد خير ونجد شر فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير يا أيها النّاس اتقوا النّار ولو بشق تمرة"864.

وقد جمعت سورة الإخلاص كل دلالات الكمال، {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}865، فاسمه الصمد يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفي النقائص عنه، واسمه الأحد يتضمن أنه لا مثل له، فالصمد سيدا لا يساد، وفي هذا دلالة

---

863 البلد 8 . 10.

864 جامع الأحاديث، جلال الدين السيوطي، ج 23، ص 159.

865 الإخلاص 1 . 4.

على صفات الكمال، ونعوت العظمة والجلال، فمن كان مصمودا إليه في جميع الحاجات ومتعاليا عن كل سمت حدث وشائبة نقص كان موجدا لكل ما يريد من نفع وضر ونافع وضار قادرا على حفظ ما يريد، وكان معلوما كالشمس أنه لا شريك له، وأنه هو وحده المستحقّ للعبادة لاحتياج الكل إليه الاحتياج المطلق وغناه عنهم الغنى المطلق، وتفرده بصفات الكمال والانقطاع عن قرين وإلى الصمدية ينتهي التوجه وهو الإقبال بالكلية866.

ولو تأملت مزيد من أحوال الفاني لزادت معرفتك بالباقي جلّ وعلا، فما من صفة تجدها في الفاني إلا وهي متغيرة متبدلة، وما من صفة تعرفها عن الباقي سبحانه إلا وهي باقية ثابتة، فتعالى الباقي عما يصف الكافرون، والحمد لله رب العرش العظيم.

منهج النبي صالح:

يعتمد منهج صالح عليه السّلام على الدّعوة الصريحة لله مع وافر اللطف حيث بعثه الله تعالى إلى ثمود، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وأن يخلعوا عبادة الأصنام والأنداد. قال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ}867.

ومنهج صالح عليه السّلام في دعوته، لا يختلف عن المنهج الذي سلكه نبي الله هود عليه السّلام في دعوة قومه عاد. ولعل السبب في ذلك وجود التشابه بين القبيلتين، فإنّه بالإضافة إلى أنّ كلا من

[866] نظم الدرر للبيقاعي، ج 10، ص 57.

867 هود 61.

القبيلتين كان يسكن الجزيرة العربية، فقبيلة عاد تسكن في الجنوب بالأحقّاف، بين اليمن وعمان، وثمود تسكن بالحجر، بين المدينة النبوية وتبوك؛ ولذلك فإنّ الأوضاع الاجتماعية والعمرانية في زمان كلّ منهما قد بلغت أقصى حدود القوّة والمنعة، لا سيما في فنون البناء والعمارة، كنحت البيوت في الجبال، وإقامة القصور في السهول، وتشييد المصانع وشقّ العيون، وفوق ذلك فقد منحهم الله بسطة في الأجسام.

كما يوجد تشابه في سلوك كلّ منهما القائم على البطر والطغيان، وإيثار الشرك على التوحيد، وقد قرن الله تعالى بين ذكر القبيلتين، وما حلّ بهما من العقاب الأليم في كثير من السور القرآنية.

وقد ضرب الله لهم المثل بقوم هود عليه السّلام، مذكرا لهم بنعم الله عليهم، حيث جعلهم خلفاء من بعدهم، ومكّنهم في الأرض يتخذون من سهولها قصورا ومن الجبال بيوتا، قال تعالى: {وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}868

وكذلك ذكّرهم الله تعالى بنعمه عليهم، {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ}869، ومن هنا فهو لطيفا في القول، وليّن الجانب، ويظهر ذلك في جوابه لهم: {قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ

---

868 الأعراف 74.

869 الشعراء 146 . 152.

كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}870؛ فقال: {يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ}871، ومن ثمّ كان منهج صالح عليه السّلام معتمدا على الحجّة وإظهارها أسلوبا للحوار اللطيف حيث لا إكراه. 872

ولهذا جاء قول صالح لقومه: {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}873 أي خلقكم من تراب الأرض، ثم استخفكم فيها لتكونوا من الوارثين في الدّارين، ولكي يتمّ هذا الأمر وتكونوا من الوارثين في الدّارين فعليكم بعبادة الذي أنشئكم من الأرض ولم تكونوا من قبل خلقه شيئا، ولذا عليكم بعبادة الخالق وطاعة أمرة وتوحيده؛ ذلك لأنّ الخالق هو المنشئ لِما يشاء، أو المحدث لِما لم يحدث من قبل، وهو على كل شيء قدير. قال ابوبكر ابن الأنباري: "الخلق في كلام العرب على وجهين: أحدهما الإنشاء على مثال أبدعه، والآخر التقدير"874.

الخالق: هو "من يوجد الشيء على غير مثال سابق"875.

الخالق: هو "الذي يقدر على الخلق وهو الذي يستحقّ العبادة"876.

---

870 هود 62

871 هود 63.

872 منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، 1، ص 187

873 هود 61.

874 لسان العرب، ج 1، ص 889.

875 شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 128.

ومن ثمّ فالخالق عزّ وجلّ هو البادئ الذي لا سابق عليه، وهو المعيد لِما يخلق قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}877.

الرؤية لا يقصد بها الرؤية البصرية بل يُقصد بها الرؤية الإدراكية أي الإيمانية حيث جاء الاستفسار أو الاستفهام بصيغة (أو لم يروا) عن الكيفية التي بدأ الخلق عليها، ولذا فبالكيفية التي بدأ بها الخلق تتم الإعادة بذات الكيفية. أي إذا أدركتم يقينا القدرة على الابدّاء والإيجاد فإنكم ستدركون القدرة الرّبانية على الإعادة. وبما أنّه لا أحد ينكر النشأة الأولى، فكيف إذن تُنكر النشأة الآخرة، فمثلما جاءت النشأة الأولى بالقوّة وجوبا تأتي النشأة الآخرة بالقوّة ضرورةً. وهذه وفقا لقاعدة (لكل بداية نهاية).

ومن صفات الخالق الآتي:

أوّلا ـ المبدئ:

المبدئ هو الخالق الأوّل والآخِر ولم يسبقه في الخلق أحد مصداقا لقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}878 كل المخلوقات في أساس خلقها الإنشاء، وفي النشأة الأولى تحددت هيئات كل المخلوقات، الإنسان والملائكة والجان والحيوان والجماد والنبات وبقية

---

[876] كتب العقيدة، ج 1، ص 366.

[877] العنكبوت، 19، 20.

[878] العنكبوت، 19، 20.

الكائنات الدقيقة منها وغير الدقيقة. وفي ذلك قال تعالى: {قُلْ جَاءَ الحقّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}879 جاء الحقّ تعني جاء الكَلِم الصادق الذي لا يدخله الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنه الحقّ الذي به زُهق الباطل ولن يعود.

ثانيا ـ المعيد:

هو المبدئ الأوّل الذي بقوّته خلق الأشياء وبقوّته يعيدها إلى نشأتها الأولى، ولأنّ المبدئ هو الأوّل والآخر، فلا وجود لغيره لأن يعيد ما بدأ إلى حالته الأولى. قال تعالى: {أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا}880. الذي فطركم أول مرة هو الذي سيعيدكم إلى الحالة التي كنتم عليها قبل أن تكونوا خلقا، ومع ذلك فإنّ الكافرين مستهزئين بما سمعوا، وذلك بقولهم وهم يهزون رؤوسهم (متى هو؟) ولأنّه يقينا وليس كما يظنون قال: (قل عسى أن يكون قريب) أي قل لهم يا محمّد لعله يكون قريبا، حيث علم الساعة لا يعلمه إلا هو، وكلمة عسى تدل على أنّ العود سيكون في الزّمن المفاجئ، وحتى لا تضيع الفرصة فعليكم بالإيمان قبل أن تحدث المفاجأة وحينها لا ينفع الندم.

قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}881. جعل الله تعالى الإعادة كالإبداء في الإلزام بها لظهور برهانها في قوله: (قل الله يبدأ الخلق ثم

879 سبا، 49.

880 الإسراء، 51.

881 يونس، 34.

يعيده) أي بطبيعة الحال من يبدئ الخلق يعيده، ولا يمكن أن يكون لآخر المقدرة على هذين الأمرين إلا الذي خلقهما وجبر العلاقة بينهما. ولذا فإنّ كل مخلوق يعود للشيء الذي خُلق منه. الإنسان يعود للتراب وهو الشيء الذي خُلق منه، والملائكة يعودون للنور وهو الشيء الذي خُلقوا منه، والجان يعود إلى النّار وهي الشيء الذي خُلق منه. وهكذا كل مخلوق يعود لطينته أي لأصله الأول قبل أن يصبح مُركّبا من مجموع العناصر المتكون منها أو المركب منها، وفي النهاية يعود الكون إلى الشيء الذي خلق منه وهو الذرة.

في علم الفيزياء اثبت العلماء الروس أن أساس الخلق ذرة ثم حدث لها الانفجار العظيم فامتدت على امتداد الكون كله، وأثبتوا أيضا أن الذرة لابدّ وأن تعود ذرة مرة أخرى وهي النهاية. والقرآن الكريم سابق على ذلك بقوله تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}882 وقوله عزّ وجلّ: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}883.

ثالثا ـ المبعث:

المحيي بعد الممّات مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}884 يقال نزلت هذه الآية في السبعين الذين اختارهم موسى عليه الصّلاة والسّلام حيث قالوا له: (لن نؤمن بك حتى نرى

---

[882] الأنبياء، 104.

[883] الرعد، 41.

[884] البقرة، 56.

الله جهرة) ولأنّ الله تعالى لم يكن له شكل ولا هيئة من الهيئات المخلوقة كما هم يتوقعون فهو لا يمكن أن يخضع للرؤية المبصرة، ولأنّه الأعظم فلن تكون لهم القوّة المِمكّنة من اختراق قوّته ليروه سبحانه وتعالى عمّا يصفون، وبطلبهم هذا كانت لهم الصاعقة الإجابة القاطعة على تساؤلهم بأنّه مالك الأمر والقوّة التي لا تساويها قوّة، وذلك ليتيقنوا بأنه الحقّ ووجوده حقّ. ثم نُشروا من بعد موتهم أحياء وهذه الآية معجزة لهم لعلهم يتذكرون مطلبهم وما جاءتهم من إجابة ليؤمنوا من بعد كفرهم. قال النحاس: "أنّه الاحتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش، واحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا"885

والبعث هو النشور. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أجل مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحقّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ}886. إن كنتم في ريب تعني: إن كنتم في شك، فعليكم أن تتذكروا أحوال السابقين وقصصهم التي قصصناها عليكم لتعرفوا أسرار الخلق بداية ونهاية وبعثاً. وإن كنتم في شك فعليكم بالتذكر حتى تيقنوا أنكم من تراب، وما المراحل الخلقية التي تمرون بها إلا دليل شاهد على خلقنا وقدرتنا على الخلق في كل مرحلة من مراحل النمو الخَلقي. وبأنّ

---

885 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الأول، ص 404.

886 الحج، 5 . 7.

الخالق عزّ وجلّ هو القادر على الخلق فهو بطبيعة الحال هو القادر على البعث من جديد.

الخالق هو المحيي، أي أنّه الذي يبعث الروح فيما يخلق، ولهذا كل شيء يُسبِّح بحمده. ولأنّه المحيي فهو يحيي المخلوق في نشأته الأولى، ثم يحييه بعد موته من جديد في نشأته الأخرى. ولذا فمن يؤمن بأن الله هو المحيي فعليه أن يؤمن بأنه المميت، وبما أنه المميت فإنه يقدر على الإحياء من جديد. وعلينا أن نؤمن فلو كان الإحياء من المستحيل لكان في الأزل ليس بخالق.

كيف يبدئ الله الخلق تعني كيف يظهره للوجود ثم يُعيده للحالة التي كان عليها، ثم يعيده مرّة أخرى ظاهرا للإدراك والملاحظة والمشاهدة. والخليفة هو المؤمن بما يعلم إدراكا وليس فقط مؤمنا بما يرى، فلو كان الأمر كذلك لكان غير مؤمنٍ بالخالق الذي يرانا ولا نراه. ولذلك فإن الخالق هو الأوّل وهو الآخر الذي له ملك السماوات والأرض وهو على كل شيء قدير {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[887].

في هاتين الآيتين الكريمتين تتمركز أفعال الخالق في الصفات الآتية:

1 . ملك السماوات والأرض: وهذه تعني أنّه مالك كلّ شيء.

2 . يحيي ويميت: وهذه تعني أنّه فعَّال لما يريد.

3 . قادر على كلّ شيء: وهذه تعني أنّه خلاَّق المستحيل.

4 . هو الأوّل والآخر: لا يتعدد، فليس له سابق ولا لاحقّ.

---

[887] الحديد، 2، 3.

5 . هو الظاهر والباطن: ندركه يقينا ونرى آياته ولا نراه وهو يرانا.

6 . إنّه بكل شيء عليم: إنّه مصدر الأمر والنهي سبحانه.

وعليه فإنّ الخالق الأوّل هو خالق الشيء، والشيء نكرة ومصدر ويتعدد.

نكرة: لأنّه غير محدد، ولذا فإن الخالق يخلق كل شيء، كما يشاء وكيفما يشاء.

ومصدرا: لأنّه أصل لأشياء استمدت منه.

ويتعدد: لأنّه يتجزأ من الكلّ إلى المتجزئ منه.

أمّا الخالق بالإضافة فهو الذي يخلق من الشيء الذي خلقه الله أشياء متعددة ومتنوعة. فيخلق من التراب صناعة، ويخلق بالصناعة ما يُسهِم في إشباع حاجاته المتعددة والمتنوعة والمتطورة. وهو الذي بخلقه يُستخلف في الأرض إصلاحا وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. فالخالق بالإضافة هو الخليفة الذي يعلم أنه لن يخلق الشيء المصدر، ويعلم أنَّ ذلك ليس في نطاق مقدرته، وذلك لعلمه أنّها من خاصية الخالق المطلق. ويُسلِّم بأن الأشياء التي خُلقت من أجله ينبغي عليه أن يستمد منها ما يفيده في حياته الأولى دون أن يكون على حساب حياته الآخرة.

النهي دائما من ورائه بيّنة والبيّنة هي اظهار الحقّيقي، والانبياء لا ينهون عن شيء وهم يقدمون عليه؛ فما نهى عنه نبي الله شعيب كان تاركه أمرا من عند الله، ولهذا لم ينه قومه عن شيء لينفرد به، بل ما يريده تبيان الحقّ من الباطل ليكف قومه عن الباطل ويتمسكوا بالحقّ قولا وعملا. يوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا يبخسوا النّاس أشياءهم،

فيعدلوا ولا يفسدوا في الأرض مصداقا لقوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاس أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}888.

والصفة الإفسادية، أن يخلق الإنسان ما يؤدّي إلى إفساد الحرث والنسل قال تعالى: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}889. يقال كان في مدينة الحِجر تسعة من رؤساء القوم المفسدين الذين أقروا عقر ناقة صالح عليه الصّلاة والسّلام، وبطغيانهم في الأرض أفسدوا القيم الأخلاقية التي بها تعمر الأرض وتصلح الأحوال ويُقوَّم السلوك، فكانوا يمكرون بقوم صالح، وأقسموا على الفساد دون الإصلاح، وأقسموا أن لا يعترفوا بذنب يرتكبونه. وبعد أن أخبرهم صالح صلّى الله عليه وسلّم بمجيء العذاب اتفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دار صالح عليه الصّلاة والسّلام ليلا ويقتلوه وأهله المختصين به. قال ابن العباس: أرسل الله الملائكة تلك الليلة، فامتلأت بهم دار صالح، وعندما جاء التسعة المفسدين تكفَّل الملائكة بهم رميا بالحجارة حيث هم يرون الحجارة تتساقط عليهم ولا يرون من يرميها. ويقول السّدى: "نزلوا على جرف من الأرض فانهار

888 الأعراف، 85.

889 النمل، 48 . 53.

بهم فأهلكهم الله تحته"890. وهناك أقوال أخرى كثيرة منها من قال: أنهم اختفوا في غار بقرب دار صالح صلّى الله عليه وسلّم حيث سقطت عليهم صخرة أنهتم جميعا، وهناك من يقول إنَّ هلاك الكل كان بصيحة جبريل، وهناك من يقول أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد والله أعلم891.

ولأنّ الله عزّ وجلّ هو الخالق، فهوى الذي خلق النشأة الثانية مثلما خلق النشأة الأولى، {قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إنَّ الله على كل شيء قدير}892. النشأة الأولى من غير سابق، وهي نشأة الشيء المصدر، والنشأة الثانية نشأة لاحقّة للنشأة الأولى، أي أنّ النشأة الأولى هي نشأة الشيء من لا شيء. أمّا النشأة الثانية هي: نشأة الشيء من الشيء. ممّا جعل النشأة الأولى تأسيس وبناء، والنشأة الثانية إعادة بناء. وكلا النشأتين مؤسستين على الأمر (كن)، كن من لا شيء فكانت الأولى، وكن من الشيء، فكانت الثانية. وفي الآية السابقة قال تعالى (النشأة الآخِرة) ولم يقل (النشأة الأخرى) ممّا يدل على أنها النشأة الدائمة لمن بُعث في الحياة الحيوان. قال تعالى: {قال كذلك قال ربُّك هو عليَّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تكُ شيئا}893.

ولأنّ الله تعالى هو الخالق بالمطلق الأوّل والآخر، وهو القادر على كل شيء، فهو بذاته العلية لم يتوقف عن الخلق، يُحيي ويميت، ولهذا فإنّ النشأة الأولى لم تتوقف ونحن لم نؤتِ من العلم إلا قليلا، لذا كلما

---

890 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الثالث عشر, 216 . 217.

891 المصدر السابق، 217.

892 العنكبوت،20.

893 مريم، 9.

تمكنَّا من التقدم العلمي، تعرفنا على الجديد وأضفناه لمعارفنا، ولذلك فالمؤمن يُدرك أنّ الخالق لن يتوقف عن الخلق، بل أنه في الخلق يزيد، ويدرك أنه لن يتمكن من الاطلاع على كل ما خلق، فعقولنا ذات الحيز المحدود لا تسع معرفة ما خلق الله. وعليه لو يدرك الإنسان ذلك ليس له بدا إلا أن يؤمن بالخالق العظيم الذي قال في كتابه العزيز: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}894.

خالق الشيء قادر على هدِّه وإزالته وإعادة بنائه من جديد سواء على الكيفية التي كان عليها أو على كيفية أفضل، ونحن نعتقد أنَّ النشأة الأخرى التي سنكون عليها هي أفضل ممّا نحن عليه الآن، ولذلك يترتب على كل شيء مترتب، فلوا عُدنا لما كنَّا عليه ستكون الأطماع والخيانة ملازمة لنا، ويكون الظلم والنزاع والخصام والجوع والعطش والزنى بصحبتنا أينما نكون، وإن سلَّمنا بذلك نسلِّم بأنَّ الوعد الذي وعدنا الخالق به لن يتحقّق؛ قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الجنّة أَصْحَابَ النّار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حقّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حقّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}895، في وعد الخالق لنا أنْ نكون من أهل الجنّة إن كنَّا من المصلحين في الأرض، وإن لم نكن فلن نستخلف في الأرض ولا نرث من بعدها الجنّة، (اللهم أحفظنا ممّا يُبعدنا عنها ومكنَّا ممّا يُدخلنا فيها).

894 المؤمنون، 14.

895 الأعراف، 44.

الخالق هو الله الذي يخلق الأشياء من اللاشيء، فبذلك هو خالق الكون بدون حاجة لأداة أو مادة خام أو حاجة لزمنٍ معين ومحدد، فهو خالق بلفظة "كن".

فالله تبارك وتعالى هو الخالق ولا خالق سواه وكل ما عداه هو مخلوق فالسماوات والأرض وما فيهن وما بينهما من أقدار مقسمة من أرزّاق وأعمار وأعمال وأقوال كلها مخلوقة، لأنه هو الذي أوجد جميع الأشياء وركّبها ورتبها، قال تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[896]، فالخالق لم يخلق هذا الكون وهذه المخلوقات جميعا عبثا وارتجالا، إذ أنه ليس من الحكمة خلق الأشياء وإهمالها، كما هو ظن الكفار، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّار}[897]، بل إنه خلق الخلق جميعا وأعدهم ليوم الحساب.

وقد أنشأ الخالق وأبدع في الخلق، قال تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}[898]، إذن فالخالق هو المكوّن لهذه المخلوقات والمقدّر لها، لأنه يخلق الخلق بعلمه المطلق والمسبق، ثم إنه يقدّر الأرزّاق والأعمار وأقواله وأفعاله التي سيقوم بها ويحفظها في

[896] المؤمنون 14.

[897] ص 27.

[898] السجدة 7. 9.

اللوح المحفوظ ولكل إنسان منا مكانٌ فيه، ولكل إنسان قدر يقع عليه من الخالق وحده دون سواه، لأنه لا أحد يملك القدر إلا الخالق له.

والله تعالى قد خلق العدم، لأنه لم يكن موجودا لولا الخالق له، والخالق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يتجزأ أو يتركب من أشياء فهو واحدٌ أحد، قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[899]، والسورة القرآنية السابقة توضح أن الخالق واحد ليس له شريك من قريب أو بعيد، لهذا فهو عظيم بواحديته وكماله، وبالتالي لا يمكننا فصل صفة عن صفة فيه، أو فعل عن آخر لأنّ القائم بكل الأفعال والمتصف بكل الصفات هو إله واحد لا يتجزأ ولا يتغير، وإلا لكانت له بداية ونهاية لأن التركيب والتجزيء لابدّ له يوما من التفكك أو التحلل، أما المخلوق فهو مركب من عدة جزيئات بمجمل اتحادها تتكون المخلوقات وبالتأكيد بتحلل هذه الجزيئات المتحدة وتفككها ينتهي وجود هذا التركيب المخلوق ويفنى هذا الشيء.

والإنسان وهو مخلوق من خلق الله تعالى فقد كانت له بداية يبدأ منها ونهاية ينتهي إليها متى شاء الخالق، ومن مجموع هذه التركيبات والتقسيمات تكوّن خلق الإنسان بفعل الخالق وبنفخ الروح فيه.

وخلق الله تعالى الإنسان بتركيبة قابلة للخير والشر، داعي للخير والفتن، في دار ابتلاء وامتحان للخلق، فظهرت للعباد رحمة الخالق وبطشه، ولطفه وجبروته، على حسب درجة الإيمان لكل إنسان، فالغاية من الخلق أساسا هو عبادة الخالق، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ

---

[899] الإخلاص 1 . 4.

الْجِنَّ والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}900، فالإيمان الكامل لا يكون بالمعلوم فقط بل أيضا يشمل الإيمان بخلق الله للغيب.

وقد خلق الله تعالى الإنسان مكونا إياه من عدة أشياء:

1-خلق الله للإنسان اللسان:

لإخراج ما في القلب والعقل، فالتعبير عما في داخل الإنسان يتم عن طريق اللسان أولا من طيب الكلام وبديع الأفكار هذا من شأنه حدوث التفاعل البشري الفكري والعملي بعد التوصل إلى أعلى مراتب التفاهم، فالإنسان كائن لا يستطيع الحياة إلا وسط جماعات بشرية تأخذ منه ويأخذ منها ويتفاعلون مع بعض وتطلب ذلك لغة ووسيلة للتفاهم فيما بينهم وكانت هذه الوسيلة هي اللسان الذي يتكلم بلغة من حوله، وبذلك هو نعمة من الخالق أهداها لنا وأوصانا بها، فالخلق متفاوتون في حسن استعمال هذه النعمة فبدل أن تكون ألسنتهم شاهدة على الحقّ ناطقة به، داعية للخير ومخرجة لحسن نوايا القلوب، نجدها أحيانا لا تشهد إلا بالباطل ولا تنطق إلا به ولا نسمع منها إلا سوء القول الناتج عن سوء الفعل، لأن اللسان يجب أن يكون ترجمة لما في القلب ووسيلة تعبير عما فيه، فلو كان هذا القلب حاملا لإيمانٍ صادق نطق به اللسان، وإن كان حاملا للكفر والمعصية نطق به اللسان، وهناك بعض الأمراض التي خُلِقت لألسن الجاحدين والعاصين والمذنبين، مثل مرض الافتراء والكذب كما جاء في قوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النّار وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ}901، فالافتراء على

---

[900] الذاريات 56.

[901] النحل 62.

الخالق الذي خلقهم من أشد ما يمكن أن يتقول به الإنسان، لأن من خلق لنا اللسان وجب علينا أن نشكره لا أن نوجهه للكفر به، كذلك مرض النميمة والغيبة ونجد هذا المرض منتشر بكثرة حتى في مجتمعاتنا الإسلامية اليوم، وهذا من شأنه إحداث شرخ في محبة وثقة النّاس ببعض وتخلق العداوة والبغضاء بين المسلمين، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}902، فالتشبيه هنا من شأنه أن يوضح لنا ما الذي يمكن أن يقودنا إليه اللسان إذا تركناه دون رقيب أو حسيب، كذلك من الأمراض المهلكة التي تصيب اللسان شهادة الزور، التي تعمل على إماتة الحقّوق وسيادة الظلم بين البشر، قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}903، فاللسان الذي لا يشهد الزور هو لسان يخشى الخالق يوم تشهد على الإنسان الألسن التي سينطقها من خلقها ووهبها لنا، كما جاء في قوله تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}904.

فاللسان إذن خلقه الخالق رحمةً بنا فجعله بعض البشر نقمة على نفسه وعلى من حوله، فمن شأن اللسان خلق مجتمع مسلم مترابط واثق قوي إذا أخضعه الإنسان لخالقه وجعله وسيلة مرضاة له فلا ينطق إلا بما أراد الخالق له، ويلزم الدعوة للخير والأمر بالمعروف

---

902 الحجرات 12.

903 الفرقان 72.

904 النور 24.

والنهي عن المنكر فيكون بذلك خليفة الله في الأرض بالإصلاح الاجتماعي والمادي والديني بين النّاس.

وخليفة الله من كان لسانه بلسما لقلوب النّاس بالكلمة الطيبة، ومنبرا لدعوة الحقّ دون خوف أو رهبة من أحدٍ من الخلق، ناشرا للحب والصدق والرحمة.

2-خلق الله العينين للإنسان:

وهما جزء لا يقل أهمية عن اللسان، فهما من نعم ورحمة الله بنا فبهما نستطيع إبصار ما في هذا الكون من نعم الله وقدرته وأن نحمده عليها، فعظمة الجبال تراها أعيننا وانتشار النجوم في السماء البعيدة منثورة أمام أعيننا، وتباين المخلوقات في الألوان والأحجام والأنواع تدركها أبصارنا قبل أي شيءٍ آخر، والأهم من ذلك أنهما لابدّ أن يكونا سببا في حبنا وقربنا للخالق، وإيماننا بعظمة خلقه، قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}905، فقد أهدانا الخالق هذه النعم لا للزينة والجمال بل لتكون مصابيح تنير لنا طريق الهدى والخير من طريق الضلال والشر، فالعين تستطيع أن تعاون العقل في تمييز الحسن من القبيح من الأعمال، فبتأملها وتركيزها تعطي إشارة للعقل بالتحليل للوصول إلى النتائج الإيجابية إذا كانت العين من الأساس عينٌ جادة باحثة عن عظمة الخالق، لذلك نجد أن الخالق قد لفت انتباه الخلق إلى استعمال أبصارهم في أنفسنا أولا، وفي هذا الكون ثانيا للوصول إلى منتهى الإيمان والطاعة والاعتراف بوحدانية الخالق الذي انفرد بالخلق، قال وتعالى:{وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ

1 البلد 8. 10.

لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}906، في هذه الآية الكريمة دعوة من الخالق لنا للتأمل بما أعطانا فيما أعطانا، إذ أنه وهب لنا العينين تحللان ما حولنا وتنقلان ما في هذا الكون من عظمة تدل على الخالق العظيم إلى النفس لتطمئن وتطيع وتخشع.

فعيني خليفة الله يجب أن يوجههما للتمعن والتأمل في عظمة الخالق، فتُنبه القلب والعقل لهذه العظمة التي بدون الإحساس بها يموت الإنسان في الحياة، حتى وإن كان هذا الخليفة فاقد لنعمة البصر، فالعين تستطيع أن تبصر من خلال الروح والنفس، فكم من مبصر هو أعمي تائه في هذه الدنيا ضائع في دروب الضلال والكفر، كما جاء في قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ}907، لأن من صفات الكفار والجاحدين هي فقدانهم لنعمة البصر رغم قدرتهم على الإبصار بعيونهم، قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النّاس شَيْئًا وَلَكِنَّ النّاس أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}908، إذ أنه لا فائدة تُرْجى من عين لا تخشى الخالق.

وصفة البصر من صفات الخالق تعالى مع الاختلاف فيه، فالبصر في حقّ الله هو البصر المطلق الذي لا حدود له، فهو يبصر ما لا نستطيع إبصاره نحن ببصرنا المحدود، قال تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ}909، وقوله تعالى: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ

---

[906] الذاريات 20، 21.

[907] البقرة 17، 18.

[908] يونس 43، 44.

[909] الحاقة 38، 39.

الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ}910، لأنه يبصر حتى ما في القلوب والعقول دون الحاجة إلى إخراجه، فالخالق هو العالم بنا والقادر علينا.

3-خلق الله السمع للإنسان:

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}911، فالسمع نعمة من نعم الله علينا يهدينا إلى صواب الأمر، فمن الذي يستطيع أن يسمع كلمات الخالق ولا يؤمن بها ولا يخشع له إلا من كان قلبه وعقله أصمين قبل أذنيه؟ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}912، أولئك الذين لا يستغلون سمعهم في الوصول للحقّ والاعتراف به، فيغيبهم الضلال عن الخالق.

وصفة السمع في حقّ الخالق تختلف أيضا عنها في الإنسان، فسمعه سبحانه وتعالى لا يحده زمان ولا مكان، كيف لا وهو من وهب لنا هذا السمع الذي نتمتع به، فسمعه عزّ وجلّ ليس مخلوقا يبدأ ببداية وينتهي بنهاية قال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}913، فقدرة السمع عند الخالق ليست

---

[910] الواقعة 83 . 85.

[911] المؤمنون 78.

[912] الأنفال 20 . 23.

[913] غافر 19 . 20.

مقتصرة على أقوالنا وكلامنا بل تتعدى ذلك إلى ما في الصدور من نوايا الخير أو الشر.

وعلى خليفة الله أن ينأي بسمعه عن مساوئ القول من توافه الكلام ورذائله وما من شأنه أن يهوي بصاحبه إلى مستنقع الفساد، فبذلك يحافظ الخليفة على السمع كنعمة من نعم الله تعالى عزّ وجلّ، لا يسمع إلا طيب الكلام.

وقد أنعم الله على المتقين بنعمة السمع الطيب سواء كانوا في الأرض أو حتى في جنان الخلد، قال تعالى: {جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرّحمن عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا تِلْكَ الجنّة الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا}914، فنوعٌ من الراحة والفرح ألا يسمع الإنسان إلا ما هو طيب وجميل.

وقد نجد الكثير من الخلق يفتقدون لنعمة السمع رغم تمتعهم بها، إذ أنه من الجحود والكفر الذي يسكن قلوبهم ما يغطي سمعهم عن قول الحقّ، قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ والإنس لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}915.

4-خلق الله القلب للإنسان:

وهو الذي يجب أن يكون مكمن الطاعة ومستودع المحبة والخضوع والاستسلام للخالق، ومنذ بداية خلق الله للبشر ساوى بينهم في امتلاكهم له كعضو وجهاز ينبض بالحياة، لكنهم تباينوا بعد

[914] مريم 61 . 63.

[915] الأعراف 179.

ذلك في جعله منبعا للخير أو الشر، أو ملئه بالكفر أو الإيمان، كلٌ حسب ما سعى إليه في حياته.

فالقلب كما نسقيه يُنْبِت، فإذا سقيناه الطاعة وحب الخالق أنبت الإيمان والتقوى، وإذا شرب من المفاسد واللهو أنبت الجحود والكفر، وفي الحقّيقة فإن القلوب هي مركز السمع والبصر والإحساس عامة، وليس أدل على ذلك من الذين نراهم حتى يومنا هذا لا يزالون في ضلال وكفر رغم تمتعهم بنعمتي السمع والبصر، كما جاء في قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}916، فقد خلق الله تعالى القلوب للإدراك والاستشعار بعظمة الخالق وقدرته، وللخشية من غضبه، وللإحساس بحب الخالق وقربه منا، بذلك تتحقّق الراحة والطمأنينة التي يتميز بها قلب المؤمن المحسن التقي الذي استحقّ أن يكون خليفة الخالق في الأرض، في المقابل يكون القلق والفزع الدائمين من نصيب القلوب العاصية الكافرة، إذن فالطمأنينة صفة ملازمة لقلب خليفة الله، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}917، لأن الإيمان إذا سكن القلب جلب معه الأمان والطمأنينة من الخالق له، فحب الخالق حين يتمكن من القلب ويتقدم على جميع ما فيه من أنواع الحب الأخرى يخلق الأمن والأمان في القلوب المؤمنة.

بعكس القلوب المريضة بالكفر والنفاق والرياء، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ

---

[916] الحج 46.

[917] الرعد 28.

عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}918، تلك القلوب التي استضافت الفسوق والنفاق لم تعد نعمة على صاحبها بل تحولت إلى نقمة تحيط به، لأن النفاق مرضٌ إذا تمكن من قلب الإنسان حوله إلى مهلكة له ومضيعة، فالخالق ينفر من هذا المرض الخطير بالإنسان بالأمة المسلمة، قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}919.

5-خلق الله العقل للإنسان:

وهو مركز التحليل والتفكير والتبصر في هذه الدنيا، إذ أنه لا يمكن للإنسان أن يتوصل للحقّيقة بدون وجود العقل واستعماله الاستعمال الصحيح، والعقل البشري هو بحد ذاته يُعَد إبداع في الخلق بكيفية عمله وتركيبته العجيبة، فبطريقه نتوصل إلى فهم وتحليل ما حولنا من غموض أو دلائل، لذلك نلاحظ أن أكثر مخاطبة الخالق لمن عصى وكفر موجهة للعقل الذي رقد في ظلمات الجهل والضلال: كمثل قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}920، وكذلك قوله تعالى: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ

---

[918] البقرة 6. 10.

[919] التوبة 125.

[920] البقرة 170، 171.

نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ}921، إنه التعجب الذي يدرك جوهره العاقل، فكيف لا يتدبر من كان له عقلٌ صحيح في كل ما يحيط بهم أو حتى في أنفسهم وكيفية معيشتهم وبدايتهم ونهايتهم التي تتكرر كل لحظة أمام أعينهم في الحياة.

لذلك فالعقل لا فائدة منه إذا كان يقود صاحبه للضلال والهلاك، كمثل عالمٍ اكتشف واخترع وتوصل إلى علوم جديدة لم يسبقه أحد إليها وما زال عقله تائها عن الخالق الذي أوجد كل ما حوله من علوم وحقّائق كونية وطبيعية، فمثله كمثل من لا عقل له، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}922.

أمّا خليفة الخالق فإنه لابدّ أن يسخّر نعمة العقل لاكتشاف حقّيقة الكون ولبيان عظمة الخالق في تصويره فيدرك الإيمان قلبه باكرا ويضيء دربه في الدنيا بنور العلم الحقّيقي.

6-خلق الله الإحساس والمشاعر في الإنسان:

لكن الإنسان هو الذي يحركها كيفما يشاء باختياره لنوعية الأحاسيس مهما كانت الظروف المحيطة به، فالرحمة مخلوقة مع الإنسان والمحبة والصدق والنقاء وكل الفضائل الأخرى كما أنه توجد في المقابل الصفات القبيحة التي يكون الإنسان مخير في استقبال ما يشاء منها، لأن القلب مخلوق خصب تنمو فيه بذرة الخير أو الشر بسرعة متناهية.

---

921 يس 68.

922 العنكبوت 63.

وخليفة الله يجب أن يوجّه مشاعره كلها لهدف واحد وهو رضا الخالق، وإذا تمكن حبّ الخالق من قلب الخليفة خلق فيه أنواعا من الحب منها:

أ- حبّ النفس على أنّها نعمة من الخالق، وإكرامها بالترفع عن المفسدة والضياع، فيحافظ عليها كأمانة سيستردها الخالق وقتما يشاء، وطوبى لمن لقي الخالق بنفسٍ مؤمنة خاضعة خاشعة، قال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}923.

وهنا يكون حب النفس ليس من باب التفضيل والأنانية بل كما سبق القول من باب إكرامها وإعطائها حقّها من السمو كما أراد الخالق لها، فالساجد لصنم من حجارة مثلا فهو يسحقّ حقّ نفسه في عبادة وتوحيد الله تعالى، والمنكر لوجود الخالق لهذا الكون فإنه يسير بذاته إلى وحل الدونية والكفر.

وخليفة الخالق في الأرض هو من يحافظ على نفسه من الشرور والمفاسد، ويُبقيها نقيه وصافية لحين لقاء الخالق ذلك بالبحث عن معالي القول والفعل وبالتحلي بمكارم الأخلاق، لأن من شأن حسن الخلق أن يرقى بالنفس البشرية إلى أعلى درجات الشرف والتقدير، ولنا في رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم- أسوة حسنة، قال تعالى في رسوله الكريم: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}924، هذا الخُلق الذي هو من خَلق الخالق أصلا قد رفع قدر الرّسول عليه الصّلاة والسّلام حتى بين أعدائه وخصومه، وقد ترك فينا هذا الخلق لنسير عليه فنكون

---

923 البقرة 281.

924 القلم 4.

بذلك خير الأمم وأشرفها، " عَنْ مَالِك أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ آخِرُ مَا أَوْصَانِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم حِينَ وَضَعْتُ رِجْلِي فِي الْغَرْزِ أَنْ قَالَ أَحْسِنْ خُلُقَكَ لِلنَّاسِ يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ"925.

ب- حب الحياة: لأن بقيامها تقوم صلة الخليفة بالخالق، فخلق الحياة من أجل التوحيد والعبادة تستحقّ أن نحبها لحب المعبود فيها، هذا الحب الذي يتحكم في نتيجة امتحان الخالق للإنسان في هذه الحياة، فلما كانت الدنيا دار ابتلاء فإذا أحبها الخليفة حبا للتقرب من الخالق تخطى الامتحان بنجاح وتفوق، قال سبحانه وتعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}926، لهذا يجب أن يكون الشعور بحب الحياة معتدلا بين بقية المشاعر الأخرى كي لا يطغى عليها، ولا يكون هذا الحب هو المحرك الأساسي لحياته.

وحب الدنيا ينقسم على قسمين، القسم الأوّل كما سبق وذكرنا يكون حب الإنسان للحياة على أنّها نعمة من خلق الرّحمن فنشعر بمسؤوليتنا عنها وعلى الحفاظ عليها، فحبنا للحياة يكون من حبنا لخالق هذه الحياة وخالقنا.

والقسم الثاني هو من تغلب عليه حب الحياة على ما عداه من حب، فتجره هذه الدنيا بمغرياتها ويقضي العمر لاهثا خلف ملاهي الحياة الدنيا، فيكون هذا الحب نقمة على صاحبه ينقلب عليه يوم الحساب، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ

[925] موطأ مالك، ج5، ص374.

[926] يونس 62 . 64.

الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}927، وكذلك قوله تعالى: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}928، والحب الذي يعود بالخسارة على صاحبه هو حب فاشل من الأساس لأن من شأن الحب إذا وجهه الإنسان في الاتجاه الصحيح أن يخلق السعادة الابدّية للإنسان.

ج- حب الرّسول- صلّى الله عليه وسلّم-:

لقد فضل الخالق الرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام على الخلق أجمعين، وشرّفه بحبه له، وقَبِل شفاعته لأمته يوم يقوم الحساب، بل إنه ربط الشهادتين بالإيمان بواحديته تعالى والإيمان برسالة سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام في قولنا عند النطق بالشهادتين(أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمّدا رسول الله) وهذا هو الإيمان الحقّيقي، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}929.

فحب الخالق يخلق في قلب الخليفة حب رسوله الكريم عليه السلام، فيسعى في الدنيا به مثلا وقدوة مشرفة يحتذي بها، ومن

---

927 البقرة 212.

928 الأنعام 70.

929 النور 62.

أحب رسول الله عليه الصّلاة والسّلام أتبعه وسار على خطاه قدر المستطاع.

د-حب الوالدين: من وسع قلبه لحب الخالق وسع حب والديه، لأنهما مرتبطان ببعضهما البعض، إذ أنّه يستحيل أن تجد من خلفاء الله من هو عاقٌ بوالديه أو كاره لهما، فمن أطاع الخالق أطاع والديه، قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[930].

هـ- حب العام لجميع الخلق:

يأتي ضمن هذا الحب الأهل والأصدقاء والأقارب والجيران والإحسان إليهم ومعاملتهم بالمعروف واللين، لأن من شأن حبنا لله خلق هذا النوع من الحب الشامل، قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا}[931].

و- حب الخير:

الخير اسمٌ جامع لكل معاني البر والمعروف والطاعة والإحسان، فلا يمكن أن يخلق حب المولى في النفوس إلا حب الخير والسعي فيه،

[930] الإسراء23 ، 24.

[931] النساء 36.

قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون}932.

ز- حب الآخرة:

يكون المحب دائما بشوق للقاء من يحب، فيكون موعد اللقاء موعد محبب لقلبه، وهذا شعور خليفة الله، إذ أنّه يسير في الدنيا بحب الخالق ويخرج منها بحب الخالق ولهفة لقائه يوم الحساب، لإيمانهم بصدق الخالق في وعده، كما جاء في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجنّة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأنهار وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحقّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجنّة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَنَادَى أَصْحَابُ الجنّة أَصْحَابَ النّار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حقّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حقّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}933، ومن أحب الخالق فقد أحب يوم اللقاء به وزهد في الدنيا بما فيها، لأنه لا يمكن أن يجتمع حب الدنيا والآخرة في قلب إنسان إلا وتغلب إحداها على الأخرى.

7-خلق الله للإنسان اليدين والقدمين وسائر الأعضاء الداخلية والخارجية:

وكلٌ لها وظيفة تكمل بها الأخرى فيصل الإنسان إلى مخلوق متكامل الأعضاء والجوارح. فالإنسان مخلوق من عدة أجهزة وأعضاء

932 آل عمران 104.

933 الأعراف 42 . 44.

مختلفة الوظائف تعاون كلٌ منها الأخرى في تنظيم عملية الحياة للإنسان، ولتشكيل وحدة متكاملة هي الإنسان الصحيح.

فخليفة الخالق لابدّ أن يكون دائم التأمل في خلقه والشكر والحمد على ما عنده من نعم سواء أكانت تامة أو ناقصة، إذ أن نصيب البشر متفاوت منها فنجد بين البشر من هو فاقدا لنعمة البصر أو السمع أو الكلام أو فاقد لأحد الأعضاء أو غيرها، لكن هذا لا يقف عائقا في وجه من أراد الحياة كخليفة لأن من أهم صفاته أن يتصف بإحياء البصيرة التي تقوده لتحقّيق هدف خلقه في هذه الدنيا.

8-خلق الخالق للقوى الكامنة في الشيء:

التي بواسطتها تنمو بها الأشياء وتتكاثر، ففي النواة قوى خفية كامنة تمكنها من النمو إذا توافرت لها الشروط الملائمة لذلك. وكذلك النطفة داخل الإنسان فهي مكمن لقوى خاصة تمكنها من الإخصاب عند لقائها بالبويضة التي تحمل نفس القوى وباتحادهما وانقسام البويضة والانتقام من مرحلة إلى أخرى، كما جاء في قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[934]، فعملية خلق الإنسان تتم على مراحل مرتبة متناهية في الدقة تتجلى فيها عظمة الخالق، إذ أنه بالرغم من تقدم العلوم والطب إلا أنه لم يتم الوصول إلى كنه هذه القوى التي تستمر بها الحياة.

[934] المؤمنون 12 . 14.

وبما أن كل تلك النعم من خلق الخالق تعالى فهي بالضرورة تأتمر بأمره إذا شاء ومتى شاء، {يوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الحقّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الحقّ الْمُبِينُ}935، فكيف لا تطيع من خلقها وأوجدها؟

ومن الظلم تشبيه الخالق العظيم بالمخلوق الضعيف، لأن الله متفرد ومتوحد في صفاته وأفعاله سبحانه وتعالى، فهو واحد لا يتجزأ ولا يتغير ولا يفنى.

والخالق بكل ذلك هو متضمن لعدة صفات وأفعال منها:

أولا: الخالق هو الرّحيم بخلقه:

الرحمة في حقّ الخالق هي اتصافه بالرحمة المطلقة التي تأتي في صور متعددة منها: هو الرّحيم بهدايتنا للحقّ، والابتعاد عن خطوات الشيطان، قال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرّسول تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ممّا عَرَفُوا مِنَ الحقّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحقّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ}936، فالهدى هو هدى الخالق لخلقه، بهدف شكر الخلق له وقربهم منه تعالى، مع أننا نجد الكثير منهم جاحدون ومنكرون، كما جاء في قوله تعالى: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}937، وهو الرّحيم بقبوله التوبة عن عباده التائبين

---

[935] النور 24، 25.

[936] المائدة 83 . 85.

[937] القصص 73.

المستغفرين من ذنوبهم، قال تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِين}938، قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}939، فرحمته تأتي نجاة وأمان للمذنب الراجع للخالق، فاتحة أبواب الأمل والرجاء ممّا يحفز النفس المخلوقة على التوبة والعمل الصالح، وتوصد أبواب اليأس والخوف، فبذلك تكون رحمته بالخلق أسبق من غضبه.

والرّحيم هو الخالق لكل الخلق لذلك هو فوقهم جميعا، قال سبحانه وتعالى: {الرّحمن عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى}940، بمعنى أنه القائم على أمور الخلق.

فعلى خليفة الله أن يملأ قلبه رحمة وحبّ للخلق بصفة عامة سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، فيكون حبه للمؤمنين متجسدا في حب الخير لهم كما يحبه لنفسه، ويكون حبه للكافرين بدعوتهم للصلاح والنجاة من الهلاك الذي هم فيه.

ثانيا: الخالق هو الملك:

لأنّه خالق فهم ملكٌ على ما قد خلق، فيكون له الأمر والنهي فيما خلق يتصرف كيف يشاء بأمره وفعله، قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي

---

938 المؤمنون 14.

939 الزمر 53.

940 طه 5، 6.

الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحقّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}941، ففي هاتين الآيتين تأكيد لملك الله، ففيهما توحيد للخالق بنفي أي معبود سواه مع توضيح عجز قدرة ما يعبد المشركون من آلهة عن الخلق ولأنهم غير خالقين فهم غير مالكين لأي شيء، قال تعالى: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}942، فهو الخالق الملك الذي استحقّ الكمال.

قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}943، وكذلك قال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الحقّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}944.

وخليفة الله هو من يحيي في قلبه حب الخالق الملك، ومن يراقبه في السر والعلن، ومن توكل عليه لأنه الأعلى والأقوى فأمور العباد بيده.

ثالثا: الخالق هو السميع البصير:

فكيف يكون خالقا من لا يسمع ولا يرى؟ فالخالق عزّ وجلّ له القدرة على سماع السر والنجوى، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ

---

941 سبأ 22، 23.

942 الفرقان 2.

943 الحشر 23.

944 المؤمنون 116، 117.

وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[945].

رابعا: الخالق هو الأول والآخر:

بما أنه الخالق فلابدّ أن يكون قبل الخلق جميعا فليس قبله شيء، والباقي بعدهم جميعا فليس بعده شيء، فالخالق لا بداية ولا نهاية له.

هو الأول بخلقه للخلق وإيجادهم من اللاشيء، وهذا هو أصل الإيمان، فكل ما حولنا ينطق بهذه الحقّيقة التي تقر بها القلوب المؤمنة الصادقة، فهو الأول والآخر له المبدأ وله المرجع، كما جاء في قوله تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[946].

ويقين الخليفة بأنّ له أول وآخر هي ركنا معرفة قدرة الخالق على المخلوق، فكل شيء له أول وآخر هو مخلوق.

خامسا: الخالق هو المهيمن:

أي أنّ الخالق هو المسيطر على ما خلق، فلا تخفى عليه أي شيء مهماَ ضئُل في ملكه، وهو محيط بخلقه وبما يقدمونه في الحياة الدنيا، وبما أنّه الخالق العظيم إذن استوجبت عملية الخلق الرقابة عليهم لحسابهم على ما قدموه في الحياة الدنيا من صالح الأعمال أو سيئها، وبهذا فالخالق قائم على أمور الخلق كلها، قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرّحمن الرّحيم هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا

[945] المجادلة 7.

[946] الأنبياء 104.

إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[947].

ومن شأن اسم الخالق المتضمن للهيمنة أن يزيد من تقوى خليفة الله في كل قول أو فعل، وأن يؤمن بأنه المسيطر على الخلق قويهم وضعيفهم فيغذي هذا الإيمان شعوره بالثقة والقوّة فلا يتردد في قول الحقّ والعمل به.

سادسا: الخالق هو العظيم:

في عملية الخلق لهذا الكون إظهار لعظمة الخالق عزّ وجلّ، فمن مظاهر هذه العظمة ما يلي:

عظمة خلق السماوات والأرض وما فيهما من دقة الخلق وقوته، فمن المعروف مثلا أنّ أيّ ارتفاع لابدّ أن يكون مسنودا بأعمدة تحميه من السقوط، في حين أن الله خلق السماء بدون أعمدة تثبتها، وبالرغم من ذلك هي ثابتة بإذن الخالق لها، وتلك النجوم والكواكب المتناثرة فيها بالرغم من كبر حجمها إلا أننا نراها ضئيلة بسبب المسافة البعيدة بيننا، وكذلك موعد شروق وغروب الشمس اللذان لا يختلفان أبدا، وتظهر أيضا عظمة الخالق في خلق الأرض التي نحيا عليها، بما تحويه من جبالٍ شاهقة ومن بحار ممدودة وأنهار جارية وبما تملكه هذه الأرض في جوفها من البذور والثمار المتنوعة، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأجل مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ

---

[947] الحشر 22 ـ 24.

لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}948، فالخالق يثير العقل البشري بهذه الدلائل الماثلة أمامه ليصل إلي الإيمان بعظمة الخالق سبحانه وتعالى، قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}949.

وكذلك تظهر عظمة الخالق في خلق الإنسان، قال تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}950، لأن الإنسان كمخلوق مجهز بكل هذه الأجهزة الداخلية التي تعمل وفق نظام عظيم في دقته فإنه دليل أكيد وقريب لكل العقول التي تبحث عن الخالق، بما في ذلك تلك العضلات الإرادية واللاإرادية التي تكوّن منظومة الجهاز الواحد، وكذلك تناسق وظائف الأجهزة الداخلية كل ذلك يوضح عظمة الخالق في خلق الإنسان نفسه، وهذا العقل البشري الذي يعمل بمنظومة خاصة به تجعل من الإنسان مبدع ومخترع وعالِم فكيف بخالق هذا العقل؟

---

[948] الرعد 1 . 4.

[949] النبأ 6 . 16.

[950] الذاريات 21.

وتظهر عظمة الخالق في بث الروح في سائر الكائنات الحية، هذه الروح التي تبقى سرا تكمن في عظمة الخالق فلا يستطيع الإنسان أن يصل إلى حقّيقتها أو التدخل فيها بأي شكل، قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}951.

فالخالق عظيم في خلقه لا يستطيع أي كان أن يصل إلى هذه العظمة الإلهية أو إلى سر من أسرارها، فيجب على خليفة الخالق أن يكون مطيعا ومؤمنا بعظمته وقدرته، لا يصله شكٌ في هذه العظمة التي من شأنها أن تصغّر كل من يدّعي العظمة في هذه الدنيا.

سابعا: الخالق هو القادر:

الخالق سبحانه وتعالى إن شاء فعل، ومشيئته فوق كل شيء وأمره لا راد له، كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}952، فالخلق قدرة لا يتماثل فيها مع الله أحد، فله تعالى القدرة المطلقة على التفرد بالأشياء دون الحاجة إلى مساعدة الغير.

وتتمثل مظاهر قدرته في خلقه فيما يلي:

أ- بقدرته عزّ وجلّ خلق الهداية لمن استحقّها من البشر، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}953.

---

951 الإسراء 85.

952 النحل 40.

953 إبراهيم 4.

ب- علمه المطلق الذي لا حد له ولا يستطيع أن يحيط به أحد، فهذه القدرة الإلهية لا تضاهيها قدرة أخرى، قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[954].

ج- قدرته على خلقه لهذا الكون الشاسع، ولكل ما يحتويه من مخلوقات مختلفة، من أرضٍ أو سماء، من إنسان أو حيوان أو نبات، وغيرها ممّا يحويه هذا الكون.

فعلى خليفة الله على الأرض أن يملك القدرة على التحكم في شهواته أولا فيكون بذلك مالكا لها لا أن تكون هي مالكةً له، وأن يكون قادرا على قول الحقّ والعمل به والسعي بالمعروف بين النّاس، وأن يكون قادرا على الصبر والثبات عند الحاجة إليها في الدنيا.

ثامنا: الخالق هو الودود:

الخالق ودود فهو المحب وهو المحبوب، فقد شمل حبه ووده أنبياءه ورسله وملائكته وعباده المخلصين وهو بالتالي المحبوب لهم جميعا، يظهر ود الخالق في كل ما حولنا، سواء في خلقه للهواء الذي ما أن نخرج للدنيا من أرحام أمهاتنا إلا ويكون الهواء المحمل بالأكسجين ينتظر رئتينا لتسير عملية التنفس بشكل طبيعي، وهذه الرياح التي تتحرك حولنا فتنثر حبوب اللقاح لتثمر الأشجار لنا، وكذلك الأمطار المحيية للأرض والإنسان والطير والحيوان، وجعل كل شيء مسخّر لنا لتسهيل عملية الحياة للإنسان على هذه الأرض.

---

[954] البقرة 255.

إذن فالخالق يظهر وده للإنسان بكل ما خلق من حوله من أنعام يستفيد منها وطيور وزرع وغيرها ممّا خلق الخالق لتيسير سبل الحياة له، قال تعالى: {والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأنفس إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}955، فإذا كان الخالق بعظمته وقدرته وجلاله ودودا للإنسان بكل ما سبق ذكره في الآية الكريمة فكيف يكون هذا المخلوق جاحدا منكرا لهذا الود الجليّ؟

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحمن وُدًّا}956.

---

[955] النحل 5 . 14.

[956] مريم 96.

وخليفة الله هو من تواصل مع الخالق مظهرا كل أنواع ومشاعر الود الصادق له سواء كان بالشكر والحمد أو بالدعوة للتوحيد أو بإطاعة أوامره والخضوع له، والخليفة يبادل الخالق الود فيظهر أثر ذلك في سلوكه مع نفسه ومن حوله فلا يمكن أن يكون كارها لذاته فهي نعمة من الخالق، ويكون ودودا مع من حوله لا يؤذي أحد ولا يتعدى على غيره، بل أننا نجد أن محبة الخالق الودود في قلب الخليفة سابقة لأي محبة أخرى، وتلك المحبة هي من خلق الرّحمن المحب لعبده الباحث عن رضاه، الخليفة له في الأرض.

الخالق هو المصور:

التصوير هو إظهار عملية الخلق بأشكال متباينة، والتصوير لا يكون مجسدا في الوجوه وتقاطيع الجسد فقط بل يكون التصوير في الخلق فيما يلي:

أ- هو المصور بتقسيمه العقول البشرية:

فبالرغم من ملايين البشر الذين مروا في هذه الحياة والذين ما يزالون يسيرون فيها، وكل هذه الملايين فإن كل إنسان منها يملك عقلا وتفكيرا يخصه وحده ولا يمكن أن يتطابق مائة بالمائة مع تفكير إنسان آخر حتى وإن كان توأمه، وفي هذا الخلق تصوير لتباين العقول والتفكير.

ب- تصوير الخلق بصور متباينة:

فقد شكّل الخالق البشر بأشكال مختلفة ليس ذلك من باب التفضيل والتمييز بل من باب خلق التعارف والتآلف بينهم: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا

وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}957، فقد صوّر البشر وهم في الأرحام وفي مراحل متتالية ليخرج بالصورة التي شكلها الخالق عليها، كما جاء في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 958، وكذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}959.

بذلك يكون على خليفة الخالق في الأرض أن يحمد الله على حسن الخَلْق، وأن يشكره ويرضى بالصورة التي هو عليها فتهدأ نفسه وتتفرغ لحب الخالق وطاعته.

ولو تأملنا في حقّيقة الخلق لوجدنا أن الخالق خلق الإنسان وجعله مستأمنا في ملكه بعد أن قبل الأمانة التي عرضها الخالق من قبله على السماوات والأرض فرفضتها، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}960، فاستوجبت هذه الأمانة التي تباين البشر في حملها أن يكون الخالق رقيبا بعد أن كانت هذه الدنيا دار ابتلاء وامتحان له فيها، قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}961، ويأتي بذلك الخالق الحسيب على كل ما قدم هذا المخلوق في الحياة الدنيا، إذ أنه ليس من المعقول أن يدخل في عدل الله مساواة الظالم والمظلوم والموحد والمشرك والمطيع

---

[957] الحجرات 13.

[958] آل عمران 6.

[959] الانفطار 6 . 8.

[960] الأحزاب 72.

[961] المؤمنون 115.

والعاصي، فاستلزم ذلك الحساب العادل يوم يقوم النّاس للحساب على ما قدموا من أعمال، قال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النّاس أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[962]

فحكمة وجود الخلق وتباينها وابتلائها لتمييز الموحدين للخالق عزّ وجلّ، قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[963].

وخلق الله تعالى لا ينحصر في الأشياء المادية الملموسة التي تتجسد، بل هو خالقٌ للأشياء المعنوية التي تؤثر في سير حياتنا مثل:

أ- خلقه للأمومة:

الأمومة شعور مخلوق مع الأم بمجرد حملها لجنينها يخلق الخالق هذا الشعور داخلها، ينمو مع نمو الجنين ولا يقف حتى عند بلوغ الابن لسن متقدمة، لأنه شعور مخلوق يعيش في النفس طالما هي تحيا وتتنفس، فهو شعور ينمو رغم التعب والألم والانتظار، قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ

[962] الزلزلة 1 . 8.

[963] الأعراف 35، 36.

صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}964.

ب- خلقه للأبوة:

الأبوة شعور مختلط بين الحنان والمسؤولية والشدة، يخلقه الله تعالى في داخل الرجل عند خروج الجنين للحياة، فتصبح حياته من أجل هؤلاء الأبناء لتوفير ما يلزمهم من جميع النواحي المادية والمعنوية.

ج- خلقه للإنسانية:

الخالق جعل أصل العلاقة بين الأفراد والجماعات والدول قائمة على أساس العدل والأمان والسلام، سواء كانت هذه العلاقة تجمع ما بين المسلمين فقط أو بين المسلمين وغيرهم من الديانات الأخرى، فخلق الخالق الإنسانية لتضم قلوب البشر لبعض فيشعرون ببعضهم البعض بذلك يتحقّق الغاية السامية والنبيلة من خلقنا إذ أنه بتوحيد الله وإقامة الحقّ يصلح الكون وتعمر الأرض باستقرار هذه المبادئ السامية. وهذه الرابطة الإنسانية قابلة للنمو والبقاء وهى أقوى من رابطة الدم أو الوطن أو اللغة.

إن غطى هذا الشعور كل نواحي وجوانب الإنسان في معاملاته ومشاعره لحقّق بصدق رسالته في الأرض من دعوة للخير والإصلاح، فلا يمكن توقع الخير من إنسان منزوع الإنسانية، وتتمثل الإنسانية في عدة صفات منها على سبيل الذكر لا الحصر:

1- الرحمة والحب: وهما أساس الفضائل في الأحاسيس، لأن نبع النقاء والصفاء في الروح هذان الشعوران ففيهما تكمن الإنسانية.

---

[964] الأحقّاف 15.

ولقد اتصف الخالق بهما قبل المخلوق مع الفارق، فالخالق رحمته وحبه لا يحدهما زمان ولا مكان مطلقان يوزعهما كيف يشاء بعلمه المطلق ومشيئته، وهو السابق بهما على الخلق، كما جاء في قوله تعالى: {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفاق وَكَانَ الإنسان قَتُورًا}965، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} 966، قال تعالى أيضا: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 967، فالخالق هو المالك للرّحمة العامّة يتصرف فيها كيفما يشاء، فهو يرحم من يشاء من عباده بعلمه وقدرته، والمخلوق حاجته لرحمة الخالق لا تنقطع لأنه خطاء كثير الزلات، فعند تعثر الإنسان من متاعب الدنيا ومشاغلها يبحث عن واحة يستظل بها ويستريح عندها لن يجد هذا المخلوق إلا رحمة الخالق تعالى.

والحب مخلوق جميل ولطيف وهو أساس العلاقات الصحيحة والقوية سواء كانت بين العبد وربّه أو كانت بين العباد أنفسهم، وأروع وأعظم حب هو حب الخالق لأوليائه وعباده الصالحين، فهو حب نقي لا يدخله زيف أو مصلحة، قال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}968، فقد

---

965 الإسراء 100.

966 الأنبياء 107.

967 فاطر 2.

968 المائدة 54.

سبق حب الخالق حب المخلوق كما جاء في الآية السابقة فهو الأول والأقوى في حبه ورحمته بمن خلق.

فمن كان خليفة الخالق لابدّ أن يكون محبا لله ولنفسه ولمن حوله، هذا الحب الذي ينضح به قلب يعمر بحبّ الخالق عزّ وجلّ.

2-الاعتراف بحقّ الإنسان وحماية كرامته:

الخالق عزّ وجلّ هو الذي كرّم الإنسان أولا بأنّه إنسان وهذا كافٍ لنتأكد من أنه له حقّوق وواجبات بغض النظر عن الجنس أو اللون أو الدين، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}969، ومن دلائل تكريم الإنسان أن الله قد خلقه بيده، وجعل الملائكة تسجد له، قال تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} 970، وسخّر الخالق كل ما على الأرض لخدمة هذا المخلوق، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} 971، وهذا التكريم للإنسان من أجل خلافة هذه الأرض وإعمارها، ولأن هذا المخلوق المكرّم عند الله كان من الضروري الحفاظ على حقّه في الحياة الكريمة وحقّه في الحرية التي تضمن الحفاظ على كرامته كآدمي

969 الإسراء 70.

970 الأعراف 10، 11.

971 لقمان، 20.

وحقّه في إبداء الرأي وغيرها من الحقّوق التي شرعها الخالق له بل خلقها معه،

د- خلقه للقوّة:

هذه القوّة التي يستمد المؤمن منها القدرة على الدفاع عن الحقّ، وتطبيق أوامر الخالق، والمحافظة على ما استخلفنا فيه الخالق يتطلب القوّة المعنوية والجسدية، وهذا كان نهج رسولنا الكريم عليه الصّلاة والسّلام ومن معه فوصلوا بهذه القوّة المعنوية والجسدية إلى أقاصي الأرض، قال تعالى: {محمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}972.

هـ- خلقه للممكن والمستحيل:

فالخالق عزّ وجلّ قد خلق الممكن والمستحيل معا، فكل مستحيل بقدرة الخالق يتحول إلى ممكن إذا شاء دون أدنى تدخل منا، ولنا في القرآن الكريم أصدق الأمثلة على خلق المستحيل من الممكن، كما في قصة السيدة مريم بنت عمران إذ أنها أنجبت دون أن يمسسها بشر كما جاء في قوله تعالى: {قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا} 973، أو حتى أن يتكلم من كان وليدا صغيرا كما نطق المسيح بن مريم حين كان في المهد، قال تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا

---

[972] الفتح 29.

[973] مريم 20، 21.

وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}974، فبالرغم من استحالة ما قد سلف ذكره إلا أن الخالق أوجده كعبرة ودليل على قدرته وعظمته.

و_ خلقه للمعجزات:

المعجزة هي الحدث الذي لا يستوعبه العقل البشري بسهولة، إذ أنه يكون مخالف للعادة، وقد نسمع بمعجزات قد قام بها البشر وسجلها التاريخ، ولكن إذا تأملنا في حقّيقة هذه المعجزات لوجدنا أنها لم تُخْلَق من الأساس من اللاشيء بل أنها اسْتُمِدت من أشياء قبلها قد خلقها الله تعالى من قبل، فمثلا الأهرامات العجيبة التي تُعَد في مقدمة المعجزات البشرية فإنها مكونة من حجارة خلقها الخالق ومواد أخرى في الطبيعة لم يكن للإنسان أي دخل في تكوينها أو وجودها، فما كان عليه إلا أن أبدع في طريقة البناء، على خلاف ما قد خلق الخالق من معجزات من اللاشيء، كما في قوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}975، من البديهي للعقول تصور ما قد يحدث للبشر إذا ابتلع أحدهم الحوت فما بالك بالمكوث في بطنه وقت وهو على قيد الحياة دون أن يموت! وكذلك قوله تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ}976.فمن الإعجاز أن تأتمر

---

[974] مريم 29 . 33.

[975] الصافات 139 . 147.

[976] الأنبياء 81.

الريح القوية بأمر الإنسان الضعيف لولا إذ أمرها الخالق بذلك، فلو حاول الإنسان أن يجرب كافة الطرق والوسائل العلمية المتطورة لحصول ذلك لعجزوا أشد العجز عن تحقّيق ذلك لأنهم غير قادرين على خلق المعجزات.

فالمعجزات الحقّيقية هي من صنع الخالق، ولا قدرة لبشر لخلق معجزة واحدة من اللاشيء ودون الرجوع لخلق الله، فالخالق سبحانه وتعالى يكون في حقّ الله وحده، أما الخلّاق فإنه اسم من أسماء الله تعالى، وقد يصح أن يطلق على الخليفة إذ أنه لا يكون خالقا بل خلاقا، ممّا خلق الخلاق العظيم، فالإنسان يحتاج إلى مواد خام ليستطيع أن يخلق شيئا، فمثلا هو لم يخلق الحديد لكنه استطاع أن يصنع من هذا الحديد الكثير من الأشياء، وغيرها من الصناعات التي تُبْتَكر على يد الإنسان الذي وهب الخالق له العقل للتفكير والابتكار والتحديث.

ز ــ خلق الخالق للعلم:

العلم مخلوق من عند الرّحمن عزّ وجلّ، ينمو ويكبر مع الإنسان وقد يصغر ويتلاشى أيضا إذا لم يُعْتَن به ويُرَاعى، والعلم صفة من صفات الخالق إلا أن العلم المخصوص بالله هو العلم المطلق غير المحدود، العلم الذي لا يصل إليه كائن من يكون من الجن أو الإنس، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ

يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}977، وقال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}978.

ولقد أمرنا الخالق بالتزود بالعلم الذي من شأنه رفع قيمة البشرية إلى أعلى مستويات الرقي والإيمان، لأن العلم إذا كانت الاستفادة منه في الاتجاه الصحيح تَ ٍرفّع الإنسان به عن كل أنواع الضلال والرذائل، فالعلم يصل بالإنسان إلى توضيح الحقّائق من حوله وكشف الأمور وتجليها كي لا يكون على جهل بما يحيط به، الأمر الذي نفّر منه الخالق إذ أنه دعا البشر للعلم والمعرفة للوصول إلى حقّيقة عظمته وإبداع خلقه، ولذلك فقد كرّم الخالق المخلوق برفع درجاته عنده إذا كان من أصحاب العقول النيّرة بالعلم الذي من شأنه أن يقف بصاحبه على أبواب معرفة الخالق وبالتالي الخشوع له وخشيته، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النّاس وَالدَّوَابِّ والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}979، وكذلك جعل العلم علامة تمييز بين النّاس، إذ أنه لا تقارب ولا تشابه بين من يدرك ومن لا يدرك

---

[977] البقرة 30 . 33.

[978] البقرة 255.

[979] فاطر 27، 28.

الحقّائق والثوابت، قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}980.

فخلق الله للعلم هو رحمة بالإنسان، لأن العلم من شأنه أن يجعل الإنسان يعرف الخالق فيقدره حقّ قدره ويجلّه ويعظمه، ويستشعر بضعفه وقلة حيلته أمام الله عزّ وجلّ، فتكون بذلك الصلة بين الخالق والمخلوق صلة تقدير ومحبة، بعكس الجهل الذي يهوي بصاحبه إلى أرذل المستويات بالجحود والضلال اللذان يميتان أي صلة بينه وبين الخالق، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حقّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}981.

ولتأكيد الخالق على أهمية العلم في الحياة بشتى مجالاتها فإننا نجد أن آخر الرسالات السماوية التي نزلت على نبينا محمّد – صلّى الله عليه وسلّم- قد بدأت بالدعوة والأمر إلى القراءة، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ}982.

إن الخالق هو العليم الذي لا حدود لعلمه فكيف يرتضي لخليفته الجهل والضلال بعد أن استأمنه على خلافة الأرض، إذ أنه ليس من خلفاء الخالق من جاهل أو ضال.

---

980 الزمر 9.

981 الحج 73، 74.

982 العلق 1 . 5.

وليكن خليفة الخالق في أرضه حريصا على الحفاظ على العلوم الموجودة في الحياة والاستفادة منها بالشكل الإيجابي الصحيح، وأن يدرك أنه بهذا العلم سيتعرف على الخالق فلا يجادل فيما يخص هذا الخالق العظيم الفائق القدرات وسترتفع مرتبته في الدنيا والآخرة، مع أنه مهما تعرّف عليه فلن يستطيع أن يوفيه حقّه، قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حقّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}983.

وصحيح أنّ جميع الخلق هم للخالق الواحد الأحد، لكنهم مختلفون فيما بينهم، فقد تدرجوا في الأفضلية عند الله، فأفضل البشر هم الأنبياء والرّسل، وأفضل الرّسل والأنبياء هو سيدنا محمّد عليه صلوات الله وسلامه، وأفضل الأمم هي أمّة محمّد – صلّى الله عليه وسلّم- في الخلق، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}984، وكذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النّار وَأَصْحَابُ الجنّة أَصْحَابُ الجنّة هُمُ الْفَائِزُونَ} 985، وفضّل الله من أمّة محمّد عليه الصّلاة والسّلام خلفائه في الأرض المصلحين، كما جاء في قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

983983 الزمر 67.

984 آل عمران 110.

985 الحشر 18 . 20.

دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}986، فقد جعل الخالق شرف خلافة الأرض لهؤلاء العاملين بطاعة الله والخاشعين والمصلحين، فكان لهم ذلك التفضيل على باقي أمتهم الذين لم يتوحدوا في درجة طاعة وحبهم واستسلامهم للخالق، فخُلق هذا التفاضل بين العباد، قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}987، فالتفاضل إذن يكون مخلوق أساسا وموجود لوجود هذا التباين في الأعمال حتى بين المسلمين مثل اختلافهم في حبهم للإنفاق قد خلق درجات الرضا عنهم، وكذلك حبهم للتضحية في سبيل الله.

ولكي تصل إلى درجة التفضيل هذه لابدّ أن يكون الخالق حاضرا معك في ركن من أركان حياتك وفي كل زاوية من زوايا النفس، فتتجه إليه بالتقدير والإجلال أولا وأخيرا، ولا نكون كالذين نراهم يستشعرون الرهبة والتقدير والخوف أمام أفراد آدميين يعلوهم مكانة ومرتبة في الحياة، فنجدهم مرتجفين متأدبين في حضرة أحد الشخصيات المهمة، في حين أن هذا التقدير والأدب لا يحضره وهو أمام خالقه العظيم حين يتعدى حدود الله أو حين يقصّر في واجب من واجباته تجاه الخالق الجليل، مع أنه الأحقّ بالخشوع والطاعة والتقدير، وكيف لا يستحقّ وهو من خلق الخلق جميعا فيسبح له

986 النور 55.

987 النساء 95.

ويخشع كل من السماوات والأرض، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النّاس وَكَثِيرٌ حقّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} 988، فمن هو الذي لا يقدر الخالق حقّ قدره بعد ذلك إلا الجاهل بعظمته؟

وخليفة الخالق هو من تيقن أن الله لم يخلق الخلق لقلة أو لعزة فهو الغني الحميد ونحن الفقراء الضعفاء.

فعلى خليفة الله في الأرض أن يؤمن بالخالق إيمانا يجعل قلبه مشرّعا للخير عاملا بشريعته، ويؤمن بالقدر ومشيئة الله تعالى ويرضى بحكم الخالق عزّ وجلّ.

اللهم يا الخالق لَقَدْ كَرَّمْتنَا وَحَمَلْتنَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْتنَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْتنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْت تَفْضِيلًا فاجعلنا يا الخالق في أحسن تقويم واجعلنا من أبناء أمة يهدون بالحقّ وبه يعدلون.

اللهم إنك قَدْ خَلَقْت فَوْقَنا سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنْت عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِ فلا تجعلنا يا الخالق من الغافلين، اللهم إنك خلقت السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بالحقّ فاجعلنا على الحقّ مصلحين لا ظانين بالإثم ولا مفسدين.

النّاقة الآية:

الآية هي المعجزة، ويقال إنّ الناقة كانت معجزة لأنّ صخرة بالجبل انشقت يوما وخرجت منها الناقة، وقد ولدت من غير الطريق المعروف للولادة. وكانت تشرب المياه الموجودة في الآبار في يوم؛ فلا

---

[988] الحج 18.

تقترب بقية الحيوانات من المياه في ذلك اليوم، وقيل إنّها كانت معجزة لأنّها كانت تدر لبنا يكفي لشرب النّاس جميعا في ذات اليوم الذي تشرب فيه الماء، والذي عندما تشربه؛ فلا يبقى شيء للناس. وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله: (نَاقَةُ اللهِ) أضافها لنفسه سبحانه بمعنى أنّها ليست ناقة عادية وإنما هي معجزة من الله. {هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً}989، وأصدر الله أمره إلى صالح أن يأمر قومه بعدم المساس بها أو إيذائها أو قتلها، أمرهم أن يتركوها تأكل في أرض الله، وألا يمسوها بسوء، وحذرهم أنّهم إذا مدوا أيديهم بالأذى للناقة فسوف يأخذهم عذاب قريب.

في البداية تعاظمت دهشة ثمود حين ولدت الناقة من صخور الجبل؛ فكان واضحا إنّها ليست مجرد ناقة عادية، وإنّما هي آية من آيات الله. عاشت الناقة بين قوم صالح، حيث آمن منهم من آمن وبقي أغلبهم على العناد والكفر. وذلك لأنّ الكفار عندما يطلبون من نبيهم آية، ليس لأنّهم يريدون التأكد من صدقه والإيمان به، وإنّما لتحديه وإظهار عجزه أمامهم. ولكنّ الله دائما يؤيّد أنبياءه بمعجزات من عنده.

إنّ النّاقة المعجزة هي نتاج تحدي قوم ثمود لنبيه صالح عليه السّلام؛ فهم عندما طلبوا منه أن تلد الحجارة ناقة، هم واثقون أنّ الحجارة لا تلد شيء، فما بالك أنّهم قد حدّدوا رغبتهم في أن تلد لهم ناقة، ونسوا أنّ تحدّي الأنبياء هو تحدّ لمرسلهم. ولهذا قال لهم نبيهم صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئت به، وتصدقوني بما أرسلت به؟

---

989 الأعراف 73.

قالوا: نعم، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثمّ قام إلى مصلاه فصلّى لله عزّ وجلّ، ثمّ دعا ربّه تعالى أن يجيب دعاؤه؛ فكانت الإجابة آية حيث فأمر الله عزّ وجلّ تلك الصّخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه الذي طلبوا، أو على الصّفة التي نعتوا. فلما عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيما، ومنظرا هائلا، وقدرة باهرة، ودليلا قاطعا، وبرهانا ساطعا، فآمن من آمن منهم، واستمرَّ أكثرهم على كفرهم990

ولما خرجت الناقة قال صالح عليه السّلام: {هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ}991، فمكثت الناقة ومعها سقيها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد الماء سبتا فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر من الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفعها حتّى تشرب كلّ ما فيها من ماء. ومع ذلك فقد عتوا الكفرة من قوم ثمود عن أمر ربّهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها992.

قتلت النّاقة على أيدي الكفرة من قوم ثمود، ويقال لما قتلت الناقة هرب الفصيل بنفسه فانفتح له الحجر؛ فدخل فيه، ثم انطبق عليه، فهو فيه إلى وقت خروجه993. وبعد أن قتلوا الناقة حقّ عليهم العذاب فأرسل الله عليهم صيحة من السماء أزهقت أرواحهم جميعًا ونجى الله القلة المؤمنة بتوحيدها لله وتوكلها عليه994, قال تعالى: {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ,

---

الموسوعة العقدية، الدرر السنية، 4، ص 44، بترقيم الشاملة آليا 990.

الشعراء 991.155

تفسير الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 4، 253 992.

أشراط الساعة، ص، 149 993 .

عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، ص، 215 994.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ, وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ, كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدا لِثَمُودَ}995

والناقة المذكورة قد وصفت بناقة الله وهذا يعني أنّها معجزة ربانية ظهرت على يد نبي ثمود جوابا على تحديهم. وقد تكرر ذكرها في مواضع عديدة من القرآن المكي. والمفسرون يذكرون استنادا إلى الروايات أن الناقة خرجت من بطن صخرة، كما يذكرون بيانات كثيرة عن جسمها وكيفية شربها وحلبها ومقامها ورغائها والمؤامرة على عقرها ونهاية أمرها996

وهنا أقول: إنّ الدّابة المنتظر خروجها هي فصيل تلك النّاقة الآية الذي دخل الحجر الذي ولدت منه أمّه (النّاقة المعجزة). {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النّاس كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ}997. إنّه فصيل ناقة صالح عليه السّلام، فإنّه لما عُقرت أمّه هرب، فانفتح له حجر فدخل في جوفه، ثم انطبق عليه الحجر، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله تعالى في آخر الزّمان998. والحمد لله ربّ العالمين.

995.68 . 65 هود

التفسير الحديث، 2، ص 141 996.

997.82 النمل

تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، 21، ص 54 998.